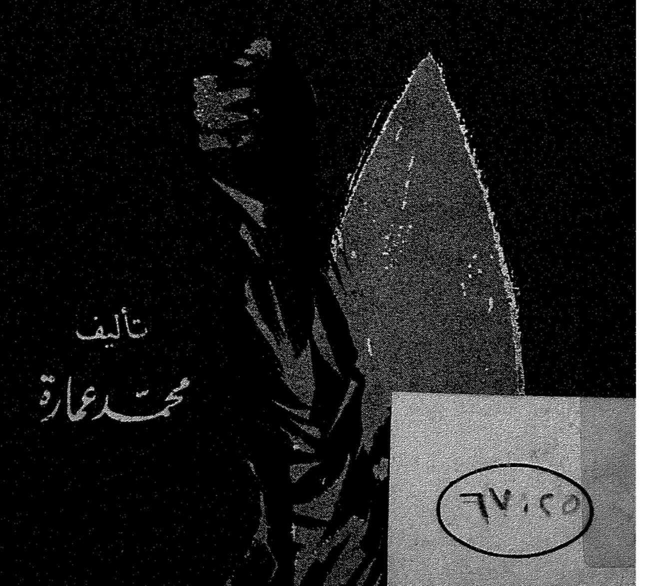
العروبة في العصر الحديث

دراسات في القومية والأمة



تأليف

محمد عمارة


جامعة الإسكندرية

وزارة الثقافة
مؤسسة التأليف والنشر
دار الكاتب العربي
القاهرة — ١٩٦٧

العروبة فى العصر الحديث

دراسات فى القومية والأمة

تأليف : محمد عمارة

تمهيد

لقد كانت اشراقة العصر الحديث مع بداية القرن التاسع عشر تحمل لظاهرة العروبة ، ولحركة القومية العربية الكثير من الأحداث والجليل من التطورات . فعلى الرغم من النكسة التى أصابت حركة القومية العربية ، والتى تمثلت فى الآثار والضربات التى حلت بالقوى الاجتماعية الجديدة ، غير الاقطاعية ، فى قلب المجتمع الاقطاعى العربى ، والتى تمثلت فى الحروب الصليبية ، وحكم المماليك الطويل ، وتحول التجارة العالمية عن العالم العربى الى طريق « راس الرجاء الصالح » ثم الاحتلال العثمانى للعالم العربى ..

على الرغم من هذه النكسة التى أصابت القاعدة المادية لحركة القومية العربية ، وايضا بناءها الفوقى .. الا أن هذه القوى الاجتماعية الجديدة لم تمت ، ولم يستطع ليل الاقطاع ولا قسوة ظروف النكسة ، أن توردها مورد الفناء ، بل لقد نمت وشرعت تقاوم حتى وصلت فى مقاومتها وتمردها ، وانتفاضاتها الى حد الثورة ، ثم أخذت تتضح فى مسارها الثورى ، فلم تعد ترضى بأن تقودها إقيادات اقطاعية مهما كانت وطنية و « شعبية » ، ومهما كانت « مستنيرة » ..

واذا كان القرن التاسع عشر قد شهدت بدايته هذا المستوى من التحرك ، وهذا اللون من التغير العميق



الجذور في عالمنا العربى ، فان مصر ، كما هى العـــادة باستمرار ، كانت فى مقدمة الأقطار العربية التى « حبلت » بالثورة الجديدة وبهذا النوع الجديد من أنواع التغيير .

ولم تكن مصادفة أن تكون مصر هى الطليعة فى هذا التغيير .. وأن تكون هى البلد العربى الذى يدخل فى وقت مبكر ، وقبل الأجزاء العربية الأخرى ، هذا العــالم من الثورات البرجـــوازية ، فتبنى تجربة حديثة ، ودولة حديثة ، لا يقودها ، ولا تسود فيها قوانين نظام الاقطاع .

فمنذ وقت مبكر جدا فى مسيرة الانسان على طريق الحضارة والتقدم ، كانت الجماعة البشرية التى عاشت على ضفاف النيل ، تملك من أسباب الحضارة والتقدم ، اكثر مما تملكه معظم الجماعات البشرية الأخرى . ومن هنا كان طبيعيا أن الجماعة البشرية المصرية التى خطت على أعتاب القرن التاسع عشر ، كانت تملك من أســباب التقدم ، ومقومات الحضارة ، ومن أرصدة العزة والمجد ، ما لا تملكه غيرها من الجماعات المتميزة نوعا ما ، والتى تعيش فى الأجزاء الأخرى من العالم العربى .

ومنذ وقت مبكر من حيـــاة الامبراطورية العربية الاقطاعية ، كانت مصر ــ انطلاقا من احساسها هذا بالتقدم والامتياز ــ تنزع الى احتلال مكانة أكثر امتيازا من غيرها من الولايات والامارات العربية .

وحتى قبل أن تستقل استقلالها الذاتى تحت قيـادة أحمد بن طولون ، كانت تموج بالعديد من الثورات ، حتى اضطر الخليفة « المأمون » الى الحضــور بنفسه اليها للاشراف على اخمادها .

ومنذ الوقت الذى قامت فيه القاهرة ، كعاصمة للدولة الفاطمية فى القرن العاشر الميلادى ، منذ ذلك الوقت ، ومصر تلعب الدور القيادى فى النضال العربى ، وتقف فى المقدمة بالنسبة لباقى الأجزاء والامارات والولايات. ولقد أتاح لها ذلك من ظروف التقدم والرخاء ما جعل من القوى الاجتماعية الجديدة ، التى نمت فى أحشاء مجتمعها الاقطاعى ، قوى ذات بأس شديد وقوة ملحوظة ، وجذور فى تربة المجتمع غير سهلة الاقتلاع .

ومنذ ان قادت مصر العالم العربى ضد أخطر هجومين واجهاه فى العصور الوسطى ، هجوم جحافل الصليبيين ، وأرجال الزحف المغولى ، والحلف المعقود بينهما ، منذ ذلك الوقت ، ومصر تحتل على المسرح السياسى العربى المركز الأول ، وتلعب الدور الرئيسى ، وابطالها الوطنيون يصبحون أبطالا للعرب والعروبة ، ويعيشون فى الضمير القومى للشعوب العربية فى كل مكان .

حدث ذلك بالنسبة لصلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس البندقدارى ، وغيرهما من الأبطال .

وفى هذا الوضع الممتاز للاقليم المصرى ، ما جعل منه مكانا يشبه العاصمة بالنسبة لباقى البلاد .

ونحن نعلم ، فى مجتمع مثل الذى نحن بصدد الحديث عنه ، عظم الفروق بين الريف والمدينة ، وبين المدينة الصغيرة والمدينة الكبيرة ، وبين المدن الكبرى وبين العاصمة ، وهكذا كانت مصر العاصمة ، وكان هذا مركزها بالنسبة لباقى العالم العربى ، وقس على ذلك ما يتبع من نتائج وثمار .

وحتى عندما احتل الخطر البرتغالى مكان الصدارة ، وحول البرتغاليون التجارة عن العالم العربى . كانت مصر هى التى تقود النضال ضدهم ، وكانت السويس هى التى تصنع الأسطول العربى وتودعه ، سنة ١٥٠٨ م ليذهب لمحاربتهم على السواحل الهندية ، تلك الحرب التى لم تكلل بالانتصار ..

وفى ظل الاحتـــلال العثمانى ، ورغم التركيز البشع للظلم والاستبداد العثمانيين ضد مصر ، ومصر بالذات ، الا أن وضعها الحضارى والبشرى ، ومركزها الثقـــافى ووجود الأزهر فيها ، وأيضا موقعها الجغرافى ، وعوامل أخرى كثيرة ، قد جعلت من مصر أضعف حلقات النفوذ العثمانى فى العالم العربى ، باستثناء البلاد التى لم تخضع له نهائيا . وجعلت من مصر الوعاء الذى ظل ـ وباستمرار ـ مليئا بعناصر المقاومة ، وحافلا بعوامل الثورة ، ومحتفظا بقدر من الحرارة يهدد كل يوم بالغليان والانفجار ، وينتهز الفرصة السانحة ، والظرف الملائم ..

وليست هذه هى كل الأسباب التى جعلت من مصر طليعة الثورة البرجوازية العربية ، ولا هى كل العوامل التى نبهت فى المصريين عوامل الانتفاضة المبكرة ضد سلطان الأتراك واستعمارهم .

ففى سنة ١٧٩٨ م ، ولمدة لم تتجاوز ثلاثة الأعوام الا قليلا .. حدثت لمصر تجربة من الاحتكاك بالثـــورة البرجوازية الفرنسية ، عن طريق الحملة الحربية والعلمية التى قادها « نابليون » .. ورغم الاستعمار الذى حمـــل نابليون ومن خلفه فرنسا على القيام بهذه الحملة ، ورغم

الاستعمار الذى حمله الى مصر نابليون وجنوده وجنرالاته بل وعلماء حملته ، الا أنهم قد حملوا لمصر شيئا آخر ، لا نغالى اذا شبهناه بالتيار الكهربائى ، الذى لا يبلغ من القوة درجة « الكهربة » و « الصعق » والافناء .. وان كان يملك منها القدر الذى يسبب اليقظة والانتباه ..

فشعارات « الحرية ، والاخاء ، والمساواة » التى اقيمت لها الزينات فى القاهرة ، والتى صنعت لها الدعاية الواسعة ، والتى صدرت لها جريدة « التنبيه » المصاحبة للحملة ، والتى كانت أولى النشرات الدورية التى صدرت باللغة العربية فى ذلك الحين .

هذه الشعارات قد ألقيت بين يدى البرجوازية النامية فى مصر ، ففتحت أعينها على عالم جديد ، عالم مدنى ، عالم يستجيب لمصالحها وأمانيها وكرامتها ، عالم ليس كعالم آل عثمان ، ولا هو كعالم القيـــادات المترددة التى سارت خلفها حتى ذلك الحين .

ومصر وان كانت قد أغلقت قلبها دون نابليون وجيشه، الا أنها لم تغلق عقلها دون هذه الشعارات .

والبعثة العلمية التى صحبت الحملة الفرنسية ، قد لعبت دورا لا يمكن أن يقاس بعمر الحملة القصير ، لأنها قد فتحت آفاقا جديدة أمام الحركة الثقافية فى مصر ، وأمام البرجوازية فيها ، وارست للمرة الأولى فى بلادنا مفهوما جديدا لمن هو « العـــالم » . وخرجت الحركة الثقافية بخبرة جديدة تقول : ان « العالم» ليس فقط رجل الدين . ولم تكن قبل تعرف من « العلماء » غير المتصوفة ورجال الدين .. فرجل الدين فى العصر الاقطاعى هو مالك

سر المعرفة ، والحارس على خزائن العلوم وكنوزها ، أما يوم تولى الجماعة البشرية وجهها شطر نوع جديد من العلم ، ونوع جديد من العلماء ، فان ذلك يعد ايذانا ببزوغ فجر عصر جديد ، ونظام اجتماعى جديد . والبحوث العلمية والثقافية ، والاقتصادية والاجتماعية ، وعملية المسح والتخطيط التى تمثلت فى آثار البعثة العلمية ، وبالذات فى كتاب (وصف مصر) والاهتمامات الكبيرة بالآثار والنقوش والتراث ، كل ذلك كان فتحا جديدا أمام القوى الاجتماعية الجديدة فى بلادنا المصرية ، وكان الأساس الذى أرسيت عليه الكثير من قواعد التحولات البرجوازية التى سنتحدث عنها بعد حين ..

وهذه الضربات التى وجهتها الحملة الفرنسية الى المماليك كطبقة من أمراء الاقطاع ظلت تستبد بحكم البلاد أكثر من خمسمائة عام ، كانت ايذانا بأفول نجم هذا النظام ..

وهذه المجالس الوطنية الكسيحة العرجاء ، التى أنشأها نابليون فى القاهرة ، رغم ضآلة حظها من التأثير على الأحداث ومجريات الأمور ، الا أنها قد أثبتت أن العنصر الوطنى — وللمرة الأولى منذ مئات السنين — يمكن أن يكون هو المكون لجهاز الدولة ، وأن ذلك ليس امتيازا فقط للمماليك والأتراك .. لقد كان ذلك فتحا جديدا أمام القوى الاجتماعية الجديدة . وان تكن القيادة « الشعبية » الممثلة يومئذ فى العلماء من رجال الدين ، قد وقفت مترددة أمامها ، بل وأحجمت عن أن يتولى منصب قاض القضاة أحد من المصريين ، وأصرت على أن يعين نابليون فيه أحد الأتراك ..

واذا كانت هذه هى بعض آثار الحملة الفرنسية على مصر ، وجانب من جوانب ايقاظها ، أو ان شئنا الدقة ، مساهمتها فى ايقاظ وتحريك القوى غير الاقطاعية فى مصر .. فلقد كان للقوى المختلفة فى مصر يومئذ مواقف مختلفة من هذه الحملة وما حملت الينا من آثار ..

فالقوى الشعبية ، والقوى البرجوازية المصرية ، قد اخذت تتمثل بلا حذر كل الجوانب السلمية للحمـــلة ، وتحاول أن تستفيد من الجانب الحضارى والثقافى والعلمى الذى وضعه العلماء الفرنسيون ، وفى نفس الوقت أصلت جيش هذه الحملة نارا حامية تمثلت فيما شن ضدها من حرب باسلة ، ومقاومة عنيدة ، وثورات لم تعرف التوقف أو الهدوء .

أما القيادة الاقطاعية التقليدية ، فلقد وقف قطاع منها الى جانب نابليون وجيشه ، وجازت عليهم خدعة «اسلام» نابليون ..!!.. واحتفلوا عنده ومعه بالمولد النبــــوى الشريف ؟!!.. وكانوا من قبل قد دعوا الشعب لطاعته ، لأنه قد جاء الى مصر قاصدا اسعادها ، ولأنه « سيساعد مولانا السلطان على فتح بلاد الموسكو » !!!..

بل لقد بلغ من جرأة هذا الجانب من القيادة الاقطاعية أن يتحدث الى نابليون فى بيان أرسل اليه بمناسبة عيد ميلاده ، أن يتحـــدث اليه عن أن مصر وفرنسا تكونان « أمة واحدة » .. أى والله « أمة واحدة » ؟!!!..

هذا قطاع من القيادة الاقطاعية التقليدية ..

أما القطاع الآخر من هذه القيادة ، فلقد اتخذ من هذه الحملة موقفا مزدوجا ، ومن ثم موقفا مترددا وغير



حاسم ، اذا أخـذنا الحملة كظاهرة واحدة ذات جوانب متعددة ..

فهو لم يتمثل جوانبها الايجابية ، ولم يفتح عقله وقلبه للقضايا الجديدة التى أثارتها ، والحضـارة التى تمثلها ، والقيم التى حاول علماؤها تجسيدها والقـاءها بين يدى الناس .. ونظر الى كل ذلك بعداء ، ولم يمثل كل هذا بالنسبة اليه أكثر من عمل كفار وخارجين على الملة ، لأنه لم يكن يفكر خارج نطاق الاقطاع العربى ، الذى ارتضى تقسيم الناس الى مؤمنين وكفار ، كستار يستر به التقسيم الواقعى للجماعة البشرية الى طبقات .

وفى ذات الوقت شن هذا القطاع من قطاعات القيادة والقوى الاقطاعية فى مصر الحرب ، وأعلن الثورة ضـد المستعمرين الفرنسيين ، وهو فى هذا الجانب قد التقى بالقوى الاجتماعية الجديدة ، وغير الاقطاعية والتى أخذت تلعب دورا متزايد الأهمية فى مجريات الأحداث منذ ذلك الحين ..

وهكذا تبلورت فى مصر ، منذ الحملة الفرنسية «قيادة اقطاعية مستنيرة » ترفض أن تسير بالشعب أبعد من حدود المجتمع والنظام الاقطاعى ، وترفض فى ذات الوقت الخضوع للاستعمار الفرنسى ، هذه القيادة هى ما اصطلح فى تاريخنا الحديث على تسميتها ب « القيادة الشعبية » والتى قادها السيد عمر مكرم وغيره من العلماء .

وهكذا وجدت مصر نفسها على أعتاب معركة من نوع جديد ضـد المجتمع الاقطاعى ، وممثـليه من المماليك والأتراك .. معـركة قد أجتمعت للشعب فيها امكانيات

النجاح ، اجتمعت له قبل أن تعرفها المجتمعات العربية الأخرى .

وتقدمت القوى الاجتماعية الجديدة فى مصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبعد مضى خمس سنوات من بدايته ، لتخلع « الباشا » العثمانى ولتعلن ان المصريين هم الذين يقولون اليوم « انزل يا باشا » لا المماليك ولا « شيخ البلد » وكانت هذه نقطة البداية التى غيرت فى مصر ترتيب القوى وموازينها ، وأرخت لمصر ، بل للعرب ، تاريخهم الحديث .

وأما تردد « القيادة الاقطاعية المستنيرة » واحجامها عن القبض على زمام السلطة المصرية ، بدلا من الأتراك ، فانما كان لنقص فى ثقة هذه القيادة بالشعب وبنفسها ، جعلها تستبدل « الباشا » الوالى ، بأحد رجال الجيش الذين جاءوا الى مصر ضمن الجيش العثمانى ، بمحمد على باشا ، الذى توسمت فيه « القدرة والعدل والنجابة والذكاء » .

واقتضت ظروف مصر ، وموازين القوى بين طبقاتها وقواها الاجتماعية الجديدة ، وتردد « القيادة الاقطاعية المستنيرة » التى كانت تمارس نفوذا غير قليل فى ذلك الحين على سائر الناس ، كما اقتضت الفوضى العسكرية بين القـــوى المتنافرة من « الانكشـــارية » و « الأرنئود » و « الألبان » و « الأكراد » التى كانت تعيث فسادا فى مصر يومئذ .. اقتضت كل تلك العوامل ، وغيرها أن يقود محمد على تلك التحولات الهامة التى كانت تطل فى الأفق يومئذ .. وأن يرتبط باسمه بناء الدولة الحديثة .. وأن يؤرخ باعتلائه سدة الحكم سنة ١٨٠٥ م تاريخ مصر ،

بل العرب ، الحديث .. ومن ثم أن يقترن بهذه التجربة البورجوازية التى قادها ، بدء عصر النضال العربى من أجل ان تمتلك الجماعة العربية ظاهرة « الأمة العربية » كما امتلكت فى ظل العصر الاقطاعى ظاهرة « القومية العربية » ..

فماذا تعنى التجربة التى قاد محمد على تحقيقها فى مصر ؟؟.. *

وماذا تعنى حركة الفتح والتوحيد العربيين التى تمت فى عهد محمد على ، وتحت قيادة ابنه ابراهيم ؟؟..

وماذا تعنى الانتكاسة التى أصابت هذا البناء المصرى والعربى ؟؟..

ماذا تعنى كل هذه الأحداث التى استغرقت النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد ؟؟..

وماذا عن ظهور البرجوازية العربية فى المغرب العربى وثوراتها ضد احتلال الفرنسيين ونفوذهم وسلطانهم ؟؟..

وماذا عن المشرق العربى ، وما هى أشكال ثورته البرجوازية العربية ضد الأتراك ومضامينها ؟؟..

ان ذلك أيضا هو جزء من موضوع هذا الكتاب ، أى أنه انما يتناول فيما بين دفتيه الحديث عن ظاهرة « العروبة فى العصر الحديث » .

الباب الأول

التحولات البرجوازية والتحديات التي واجهتها

١

أما أن هذه التجربة التي تمت في مصر وفي أجزاء أخرى من العالم العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، تجربة برجوازية ، وأنها قد خطت بالمجتمع من النظـام الاقطاعي الى المجتمع الرأسمالي ، وانها من كافة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والأدبيـة ، انما تقدم نمـوذجا للتجربة البرجوازية ، والنظـام الرأسمالي ، أما أن أمر هـذه التجربة كذلك ، فهو ما نعتقـده وما سنتحدث عنه فيما سيأتي من صفحات ..

وأما أن هذه القضية ، في حاجة قصوى الى التدعيم والتدليل عليها ، والبرهنة على واقعيتها وجديتها ، فذلك حق لا شك فيه ..

وأما أن أعداء هذه القضية كثيرون ، وأن عـددا كبيرا من

المفكرين ، يرون أن النظام الذى شهدته مصر يومئذ انما هو نظام اقطاعى ، أشرف على احيائه وتجديد شبابه حاكم اقطاعى مستنير ، فهذا واقع ..

واذا كان الوضع كذلك ، بصدد هذه القضية ، فان ذلك يستدعى بذل جهد أكبر ، وعمل مضاعف ، لاثبات قضيتنا عن طريق ما تقدم من حقائق تثبت أن التحولات التى شهدتها مصر فى النصف الأول من القـرن التاسع عشر ، انما كانت تحولات برجوازية ، خطت بالمجتمع من النظـام الاقطاعى ، الى المجتمع الرأسمالى ..

ونحن سنجد أنفسنا مضطرين لتناول هذه التجربة بكثير من التفصيل ، لم تتعرض به لكثير من التجارب التى شهدها العالم العربى قبل القـرن التاسع عشر ، وأثناءه ، وبعده .. وما ذلك الا لأنها متعلقة بالقلب الذى ينبض بآمال العالم العربى ، والقومية العربية .. وللتأثيرات التى مارستها هذه التجربة على باقى أجزاء الوطن العربى الكبير . ولاجماع كل المفكرين الوطنيين والقوميين ، وأيضا الأجانب عـلى أنها تعتبر تأريخا لبـدء العصر العربى الحديث [1] .. وأيضا .. لأننا نعتبرها بداية عصر التحـولات

---

(1) يقول الشاعر اللبنانى (يوسف الخال) فى دراسة له عن الأديب العربى فى العالم الحديث .. « ان هذا العالم الحديث =

البرجوازية العربية ، ومن هنا كانت هذه التجربة تأريخا للمرحلة التاريخية التى كان مفروضا أن تتبلور فيها حركة « الأمة العربية » وتنمو فيها ظاهرة « القومية » لتتجسد فى ظاهرة « الأمة » ..

ومن هذه الزاوية بالذات كانت أهمية دراسة هذه التجربة ، وهذه التحولات ، والاتفاق على تقويم علمى وجاد لها .. وهو ما سنحاول الوصول اليه ، وتقديمه فيما سيأتى من صفحات ..

* * *

وحتى نستطيع أن نتصور المستوى الذى وصلت اليه هـذه التحولات ، ينبغى أن نقدم بعض الحديث عن الظروف التى تمت فيها هذه التحولات ، أو بدقة عن التحديات التى واجهت مصر وهى تبنى هذا البناء الكبير ..

وأول هذه التحديات ، كان الاستعمار التركى ، والسـيطرة العثمانية التى تعانى منها البلاد ..

فلقد كان من الضرورى لمصر ، كولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية ، أن تثور على الدولة الاقطاعية التركية ، وقيمها ، عندما تشرع فى القيام بتحـولات برجـوازية ، وعندما تتخطى قواها

= فاجأنا فى اعقاب الحرب العالمية الأولى ، والحق أنه بدأ فى التسرب الى حياتنا منذ نهاية القرن الثامن عشر بالحملة الفرنسية ، وحكم محمد على ، ونشاط الارساليات الدينية الأجنبية » .

الاجتماعية الجديدة نهايات العصر الاقطاعى ، وتدخل بالمجتمع الى أعتاب الرأسمالية الحديثة .

هنا كان لابد من الثورة ، ولابد من أن تكون تركيا أحـد أعداء هذه الثورة ، ولابد من أن تمثل السلطة العثمانية ، أحد التحديات التى تواجه هذه التجربة والتى لابد من الدخول معها فى حرب وصراع مريرين ..

والاستعمار التركى فى مصر لم يكن ممثلا فقط فى « الباشا » (الوالى) والحامية العسكرية المرتزقة التى تعيث فى الوطن فسادا وافسادا ، وانما كانت تتمثل أيضا سلطاته ومناطق نفوذه ، وعوامله المساعدة ، فى عدد من القواعد والظروف ..

فعدة قرون من الاحتلال العثمانى حملت الى الناس مع المآسى والمظالم ، عددا من المفاهيم الضارة التى بلغت حد العقيدة عند جمهرة غفيرة من بسطاء الناس ، صورت لهم الدولة العثمانية ، دولة الخلافة ، وحامية حمى الاسلام ، .. وصورت ذلك السلطان العثمانى ، الذى يحيا فى بحر من المفاسد والفسق والفجور ، خليفة لله وظلاله على الأرض ، حتى ان كاتبا وطنيا ، وقائدا متقدما ، مثل محمد فريد قد كتب فى كتابه (تاريخ الدولة العلية العثمانية) بمناسبة مقتل السلطان « عثمان » الملقب بالسلطان الشاب كتب يقول « فاعدموا السلطان عثمان ، غير مبالين بهذا الجرم العظيم ،

والاثم الذى ما بعده اثم الا الكفر المبين فانه وان كانت مخالفة أوامر الخليفة المعظم تعد كفرا ، بنص الكتاب الشريف ، فما بالك بقتله .. » ؟ ! [1] .

ومحمد فريد عندما تحدث بثقة وايمان عن أن « مخالفة أوامر الخليفة المعظم تعد كفرا ، بنص الكتاب الشريف » ، لم يكن يلقى كلاما غريبا عن الرأى العام فى مصر ، بل انما كان يعكس هـذا الفكر الذى ساد مصر لعدة مئات من السنين [2] .

وفى ظل هذا الدجل ، وتلك الشعوذة ، والنشاط الذى يقوم به جهاز كبير ومتضخم من المشعوذين وأدعياء الدين .. أقيمت للسلطة العثمانية وللسلطان العثمانى ، فى عقول الناس وقلوبهم ركائز ، كانت تمثل عقبات فى طريق أية حركة ثورية ، وتحديات لأية تحولات تتخطى النظام الاقطاعى كنظام للدولة العثمانية ، تفرضه وتحميه ..

ولقد رأينا مفعول هذه الكلمة التى قالها السلطان ضد أحمد

---

(١) انظر ساطع الحصرى (ما هى القومية ؟) .

(٢) لقد عاد محمد فريد فى أواخر أيام نضاله الى العدول عن فكرة الخلافة الاسلامية ، وكتب فى مذكراته « .. اتضح لى من كثرة اتصالاتى ومساعى ، انه لا امل من جهة فى قيـــام الجامعة الاسلامية باسم الدين .. » (راجع مذكراته المنشـــورة بكتاب (اليقظة) لمحمد صبيح ص ٣٦٨) .

عرابى ، والثورة التى قادها ، والأثر الذى أحدثه اتهامه بالعصيان والمروق ، والخروج على الجماعة ، التى اعتبر السلطان أن ممثلها فى مصر يومئذ هو الخديو توفيق ..

كما كانت تستند الدولة التركية وتحتمى أيضا بالمصالح المادية التى يمثلها استغلالها الاقطاعى للأرض فى مصر ، وتلك الطبقة الرجعية من أمراء الاقطاع الذين يستندون اليها ، كما تستند هى اليهم ويحتمون بها كما تحتمى هى بهم ، ويشد بعضهم أزر البعض الآخر فى مواجهة أية انتفاضة ضدهم جميعا ، فضلا عن تحولات تفلت بالمجتمع من حصار نظامهم الاقطاعى الذى يحتمون بجدرانه وقلاعه .

لقد كان المماليك الذين تمثلت فيهم ، بحق ، الطبقة النموذجية لأمراء الاقطاع فى مصر ، والذين بلغوا فى ذلك الحين عدة آلاف ، الى جوار « الملتزمين » الذين بلغ عددهم نحوا من ٦٫٠٠٠ (ستة آلاف) .

كان هؤلاء جميعا يكونون طبقة من الاقطاعيين الذين يرتبطون بتركيا ، وتتحد مصالحهم بمصالحها ، ويقاتلون ضد أى ثورة ضدها ، ويعملون جاهدين حتى لا تفلت البلاد من أيديهم ، وبالدرجة الأولى ، حتى لا تفلت البلاد من قبضة الاقطاع .

وبذلك كانوا ركيزة لتركيا ، وتحـديا يواجه التحـولات البرجوازية التى شهدتها مصر فى ذلك الحين ..

وفئة العلماء ورجال الدين ، الذين لم تكن مصر تعرف يومها غيرهم موجهين وقادة فكر ، ورجال رأى واعلام ، والذين كانوا يحتلون مكانا مرموقا وبارزا فى نفوس الشعب ، والذين جمعوا الى جانب سلطانهم الروحى ، سلطانا ماديا ، ونفـوذا اقتصاديا بتنظرهم عـلى كثير من الأوقاف ، وحيازتهم لدوائر كثيرة من « دوائر الالتزام » وارتباطهم العضوى بسلطات طبقة الاقطاع والاقطاعيين ، هؤلاء أيضا كانوا سندا لتركيا ، وركيزة لحكمها ، وامكانية هامة من امكانيات استمرار الاحتلال العثمانى ، ومن ثم كانوا يمثلون ، بوجه عام ، أحد التحديات التى تعترض سبيل التحولات البرجوازية [1] .

---

(١) ليس معنى هذا أن كل « علماء الدين » بمصر كانوا يقفون الى جوار الأتراك ، ولا أن جميعهم كانوا يميلون بمواقفهم وعواطفهم مع الاقطاع ، فلقد كانت صفوف « رجال الدين » تزخر بنفوس كبيرة الهمة والعزيمة أبصرت دائما ما فى الاســلام من قيم ثورية وتقدمية ، وما به من تعاليم تفتح الطريق للتقــدم الاجتمــاعى بلا حدود .. فاذا أضفنا الى ذلك أن الاسلام لا يعرف نظام « رجل الدين » كبعض الأديان الاخرى ، استطعنا أن ندرك كيف أن تصرفات من نسميهم «رجال الدين » لا يمكن أن تحسب على الاسلام =

وقوة العادة ، التى لم يمارسها نظام ، ويستفد منها ، ومن قوتها وفعاليتها ، كما فعل ذلك نظام الاقطاع .. والتى لا يمارسها الاقطاع فقط فى ظل راياته التى ترفرف على الدولة ، بل يمارسها ، ويستفيد منها ، ويحارب من فوق أرضها ، حتى بعـد تنكيس أعلامه وانهيار سـلطانه السياسى ، وذهاب دولتـه ، ويحاول باستخدامها استعادة الأرض التى فقدها ، والحصول على ما كان له من سلطان .. قوة العادة هذه ، كانت احدى ركائز الاستعمار التركى ، وأحد التحديات التى واجهت الثورة البرجوازية فى مصر .

تلك كانت أهم الركائز التى اعتمدت عليها تركيا فى حربها ضد التجربة الجديدة فى مصر ، وأبرز التحديات « التركية » التى بنيت فى مواجهتها هذه التحولات ..

ونحن لم نشر هنا الى الجيش التركى الكبير .. ولا الى جهاز الدولة التركى .. ولا الى سلاح الرشوة ، وشراء الذمم ، الذى استطاع يوما أن يوجه سيف « محمد بك أبو الذهب » الى صدر سيده وولى نعمته « على بك الكبير » عندما تمرد على الدولة

= وتعاليمه ، فالاسلام حجة على الناس ، وليس الناس بتصرفاتهم حجة عليه وعـلى تعاليمه .. وهذه الملاحظة تنسحب على كل الاشارات ، التى سترد فى كتابنا هذا ، الى الأدوار غير التقدمية التى كانت لبعض من ينتسبون الى فئة « علماء الدين » ».

العلية ، واستقل بحكم مصر وضم اليها الحجاز والشام واليمن.
نحن لم نشر الى هذه « الركائز » والتحديات ، لأنها مفهومة ضمنا ، ومعلوم أنها واقفة ، ولقد وقفت بالفعل ، ضد البنـاء المصرى الجديد ، ومثلت بالنسبة له تحديات كانت لها فعاليات وآثار .

٢

وتحد آخر بنيت فى مواجهته هذه التجربة الجديدة ، وقامت فى عداء له ، ولكنه لم يكن آتيا من تركيا ، ولا منبعثا من داخل مصر ، وانما كان متمثلا فى الاستعمار الغربى الزاحف على المنطقة العربية ، والواضع بصره على مصر بالذات ..

فالاستعمار الفرنسى كان يضع نصب عينيه مهمة الاستيلاء على المنطقة العربية ، وهو صاحب فكرة أن مصر هى مفتاح العالم العربى ، وأن الاستيلاء عليها شرط ضرورى لاخضـاع الشرق بأكمله .. تلك الفكرة التى حاول تطبيقها ملك فرنسا لويس التاسع بحمـلة صليبية قادها ، ثم دفع الثمن هزيمـة وأسرا فى دار « ابن لقمان » بمدينة « المنصورة » ، ثم ظلت تحتل مكانا بارزا فى الفكر الاستعمارى الفرنسى ، ووضعت من أجلها الخطط ، وأرسلت من أجلها البعثات ، وكتبت حولها التقارير فى زمن لويس الرابع عشر ، ومن جاء بعده من الملوك .

ثم جاء عام ١٧٩٨ م ، وحاول نابليون أن يحقق ما فشل فيه لويس التاسع ، ولكن حظه لم يكن بأحسن من حظ أسير دار ابن لقمان .

ولم تكن هذه الهزائم الفرنسية لتزيد فرنسا الا اصرارا على بسط نفوذها على مصر ، والتمهيد لذلك بالحفاظ على ضعفها وتبعيتها للدولة التركية ، التى كان وجودها من جانب ، وضعفها من جانب آخر ، يمثلان البيئة الطبيعية ، والجو المناسب ، لما يعده الغرب من جولة قادمة يبتلع فيها الوطن العربى ، ليحول دون تقدمه ووحدته ، وليمنع وصول الجماعة العربية الى مرحلة « الأمة » الواحدة ، كما حاول يوما بالحروب الصليبية أن يسلبها ظاهرة « القومية » الواحدة .

لقد كانت جولة ثانية يعد لها الغرب ، وتركة مثقلة للدولة العثمانية ، يرتب أمور تقسيمها وتوريثها ، ومن أجل ذلك كان حريصا ، وكانت فرنسا حريصة ، على بقاء مصر اقطاعية ، وعلى ألا تفلت من اسار الضعف الذى يفرضه عليها نظام الاقطاع ..

وانجلترا التى جاء أسطولها الى مصر يوما ليدمر أسطول نابليون ، وليمهد الأرض لوراثة الانجليز مصر من تركيا ومن نابليون ، ثم اعتزم المجىء ثانية لينصر « الألفى بك » أحد كبار

قادة المماليك فى مصر ، ابان الأيام الأولى لحكم محمد على ، لولا أن عاجل الموت هذا « الألفى بك » .

انجلترا هذه ، كانت تبصر مكان مصر من الطريق الى الهند ، أثمن درة فى تاج الامبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس فى الليل أو النهار ، ومكان مصر كدرة يمكن أن تضاف الى هذا التاج .. ثم مكانها من العالم العربى ، كقلب ، ورأس ، وعقل ، بل وكما قال نابليون فى مذكراته عنها انها « الأرض المقدسة ، والعاصمة الطبيعية للدولة العربية » [1] .

وفى محاولات انجلترا لامتلاك « عدن » للتجارة ، ولحراسة الاستعمار فى شرق أفريقيا ، والاسراع بنجدة نفوذها فى آسيا ، وأيضا لامتلاك منطقة الخليج العربى لتدعيم القوة الضاربة الحارسة لجوهرة الهند ، والواقفة « ديدبان » الطريق التجارى القديم من المحيط الهندى الى الخليج العربى الى أرض العراق فالجزيرة فالشام فشواطىء البحر الأبيض .. فى محاولة انجلترا امتلاك هذه القواعد العربية ، كانت تجد الخطر الماثل أمامها ، آتيا من مصر ، ومصر قبل كل شىء .

ومن هنا يأتى المغزى العميق لكلمة « بلمرستون » وزير

---

(١) محمد على الفتيته (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) .

خارجية انجلترا التى قالها سنة ١٨٣٨ م : « ان مهمتنا فى الخليج الفارسى ، هى وضعه تحت سيطرتنا البحرية ، بعيدا عن نفوذ أية دولة أخرى تستطيع منازعتنا هذه السيطرة » .

والمقصود هنا الدولة الكبرى التى كان يقودها محمد على ، والتى كانت حدودها ونفوذها يمتدان الى منطقة الخليج ..

وهكذا وجدت انجلترا نفسها ، ووجدناها ، صاحبة مصلحة استعمارية أكيدة ، فى وقف تطور مصر ، وابقائها ضمن مناطق تخلف الدولة العثمانية ، ومناطق نفوذها المشوبة بنفوذ الاستعمار الغربى ، والفرنسى والانجليزى بالذات ..

ومن هنا أيضا ، كانت انجلترا ، كفرنسا ، احدى التحديات التى قامت فى مواجهتها تجـربة التحـولات البرجوازية التى سنتحدث عنها .

وخلف انجلترا وفرنسا كانت تقف كل القوى الاستعمارية النامية فى أوروبا ، والراغبة فى الحصول على « المجال الحيوى » مثل بروسيا ، والنمسا ، وغيرهما من قوى الغرب ، وأيضا روسيا القيصرية التى كانت تسير على نفس الدرب ، وفى ذات الاتجاه .

فلقد كان العصر الذى تعيشه هذه الدول الأوروبية ، هو عصر المغامرة الاستعمارية ، والنهب الاستعمارى ، وامتصاص دماء الشعوب .. وهو لم يكن استعمارا ونهبا كهذا الذى دفع الى بلادنا

الجيوش الحاملة للصليب ، وانما كان على درجة من الضراوة والفجور أشد ، ومستوى من الشراسة تجعل فى مقارنته بالحروب الصليبية انكارا لما حدث فى أوروبا من ثورة صناعية ونمو رأسمالى ، وهبت القبضة الاستعمارية قفازا حديديا محطما ، والساعد العدوانى للغرب شده تمزق أوصال الشعوب .

ولم تكن صور التحدى الاستعمارى الغربى ، للتحولات التى أخذت مصر بها ، آتية فقط من جيوشه وأساطيله ، ولا من تهديداته وانذاراته ، وانما أخذت تطل على انتفاضاتنا وتجربتنا ، من مناطق نفوذه ، وقلاعه ، التى أقامها بمساعدة الخلافة العثمانية ، عن طريق المعاهدات التجارية والاتفاقات المالية ، وهذا السيل الذى لا مثيل له من « المنح والحقوق والامتيازات » .

لقد كانت الامتيازات التى منحها الأتراك للدول الاستعمارية ، هى الجسر الذى عبر عليه الاستعمار الغربى الى أرض المنطقة العربية ، وقاتل منها حركة الجماعة العربية من أجل وحدتها ، وامتلاك ظاهرة « الأمة العربية الواحدة » .. ومن هذه القلاع والحصون ، كرر مع الجماعة العربية تلك المغامرة التى خاضها ضدها فى الحروب الصليبية ، وتحويل التجارة .. واذا كان قد ساهم يومها مع المماليك والأتراك فى اقامة عصر نكسة القومية العربية فى عالمنا العربى ، فلقد قام مرة ثانية بهجوم شديد ليعوق

اكتمال حركة الأمة العربية وليضرب القوى الاجتماعية الجديدة النامية .. كما حاول ضربها منذ قرون .. وكان ذلك أحد التحديات الكبرى التى واجهت تجربة مصر الجديدة فى ذلك التاريخ .

* * *

وهكذا نستطيع من خلال هـذا العرض السريع ، لأهم التحديات التى واجهت التحولات البرجوازية التى شهدتها مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، أن ندرك عظم هذه التحديات ، ومن ثم عظم القوى الاجتماعية الجديدة التى قادت وأحدثت فى مصر هذه التحولات .. ونستطيع أيضا أن نقدم اجابة علمية ودقيقة على سؤال : لماذا حدثت هذه التحولات فى مصر عـلى هـذه الصورة ؟ وبهذا الشكل من أشكال التنظيم الخاص ؟ وبهذا الأحكام ؟ والمسـتوى من القوة ، بل والقسـوة فى كثير من الأحيان ؟؟؟..

لماذا خطت مصر الى النظام الرأسمالى من هذا الباب ؟؟.. باب التجربة التى قاد محمد على تطبيقها ، وقدمها الى الناس ؟؟..

ولماذا لم تعرف مصر النظام الرأسمالى كما عرفته بلاد أخرى كثيرة ؟؟.. حرية فردية .. وملكية خاصة .. ودولة تنظم ذلك وتحميه من بعيد ، دون أن تمتلك أو تصنع أو تتاجر ، أو تحتكر امتلاك عصب النظام الاقتصادى الجديد ؟؟..

ان فى التحـديات التى أشرنا الى أهمها ، وفى قوة هـذه التحديات تكمن الاجابة على هذا السؤال .. وتكمن ، من ثم ، الضرورة التى حتمت على مصر دخول العالم البرجوازى ، والعصر الرأسمالى ، من هذا الباب ، ومن هذا الباب وحده ، ودون غيره من الأبواب .

ان قوة النفوذ الرجعى لتركيا ، وما تمثله فى حياتنا من قيود وأغلال ، هى التى حتمت على تجربتنا الجديدة أن تضرب بعنف وقسوة حلفاء تركيا وركائزها من المماليك ، والجند المرتزقة ، والملتزمين ، ونظار الأوقاف ، و « رجال الدين » الذين وقفوا ضد النظام الجديد .. ذلك العنف ، وتلك القسوة ، التى كانت سببا لأن ينتقد طريقنا هذا كثير من الكتاب المخلصين .

وقوة الزحف الاستعمارى ، وما يمثله من تجارة نامية وقوية وذات نفوذ ، هو الذى جعلنا تنظم ، فى تجربتنا الجديدة ، تجارتنا على نحو خاص ، وألا ندعها نهبا لحـرية فرد أو أفراد ، لأنهم ما كانوا ليكونوا فى مستوى الموقف ، ولا بالقوة التى تصـد الزحف وتتصدى للتيار .

كما أن جبروت الزحف الاستعمارى ، هو الذى جعلنا نوجه فى تجربتنا الجديدة هذا القسط الكبير ، نسبيا ، للصناعة الحربية وبناء الجيش ، ونفقات الحروب .

كما أن استهداف أعدائنا للعالم العربى ككل ، وكوحـدة واحدة ، وأيضا روابطنا القومية العربية ، هما اللذان جعلا من حركة بعثنا حركة عربية ، أو ذات طابع عربى واضح ، فى مرحلة من أهم مراحل يقظتها وقوتها ، وذلك حتى تقف القوى الاجتماعية التى تبنيها على الأرض الصلبة ، التى تجعلها قادرة على مواصلة الزحف الذى بدأه الرواد الأوائل للحركة القومية العربية ، والذين أثمر نضالهم امتلاك الجماعة العربية لظاهرة « القومية العربية » ، مواصلة الزحف حتى تمتلك هذه الجماعة ظاهرة « الأمة العربية » كطور جديد ، لظاهرة « القومية » ..

كما أنه من نافلة القول ، كما يقولون ، أن نشير الى أن أحلام التوسع وبناء الامبراطورية الكبرى ، التى كانت تراود محمدِ على وكثيرين من قادة نظامه ، انما كانت تلقى ظلالها على كثير من التحركات والاجراءات التى شهدتها بلادنا يومئذ ، بل وتستغل بعض العوامل والظروف الموضوعية ، محلية كانت أو قومية ، وتلتقى بظروف موضوعية أخرى ، كل ذلك فى سبيل بسط النفوذ الامبراطورى ، ووراثة نفوذ العثمانيين .

تلك كانت التحديات .. وهذه هى الاجابة عن السؤال الذى يثيره الشكل الخاص ، والنمط المتميز ، الذى تحققت عليه هذه التجربة فى بلادنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

الباب الثانى

القاعدة المادية للتحول البرجوازى

١

واذا كانت السلطة الاقطاعية العثمانية ، والليل الذى عاشته مصر فى ظل سلطة المماليك والملتزمين ، قد جعلت منها مجتمعا يدعو للسلطان بالنصر عندما ينهب غذاءه وكساءه وما يملك من مقومات الحياة .. ويرى فى السلطة التى لم تعرف الانسانية أبشع منها ، ظلا لله على الأرض ، دون أن يكون فى ذلك القاء شبهة من الظلم أو الجور على تعاليم الدين .. كما جعلت من هذا المجتمع نموذجا للتخلف والقهر والمذلة والمجاعات ، والأوبئة التى تحدث عن أشباهها علامة بارز كالمقريزى فى كتابه الرائع (اغاثة الأمة بكشف الغمة ، أو تاريخ المجاعات فى مصر) ، عندما صور كيف بلغت الحال بالناس ، الى أكل لحوم الحيوانات التى حرم عليهم

الذين أكلها ، وكيف وصلت بهم قسوة المجـاعة الى أن يأكل الانسان منهم لحم أخيه الانسان ، وعن تلك العصابات صاحبة « الخطاطيف » و « الكلاليب » ، التى كانت تعلو سطوح المنازل ، لتصطاد بـ « خطاطيفها » و « كلاليبها » الصيد الثمين (السمين !) من الرجال أو النساء ، ليتحول بعد لحظات الى طعام يسد رمق الجياع .. وكيف ساهمت هذه الحال فى انتشار الأمراض ، ومنها مرض الطاعون [1] .

وأيضا تلك الصورة التى سجلتها لنا كتب التاريخ الاجتماعى ، والتراث الشعبى ، والتى تصـور ذلك التناقض الصارخ الذى شهدته مصر فى عهد السلطان الطولونى « خمارويه » عندما زوج ابنته الجميلة « قطر الندى » من الخليفة العباس الجالس على عرش امارة المؤمنين ببغداد ، وما حوى جهاز عرس « قطر الندى » من أشياء يعجز خيالنا المترف المتحضر ، والذى اعتاد البذخ وحياة الاسراف ، عن تصورها .. والذى شمل أشياء كثيرة ، ابتداء من « الهاون » الذهب ، الى القصور الاقطاعية المبهرجة التى انتظمتها سلسلة واحدة على الطريق من مصر الى بغداد ، لتستريح فيها

---

(١) كثيرا ما تكررت هذه الأوصاف التى ذكرها المقريزى لمصر ومجاعاتها قبل العثمانيين ، كثيرا ما تكررت فى عهـــد العثمانيين والمماليك .

« قطر الندى » كلما أحست بالحاجة الى الراحة ، أو الرغبة فى وقفة قصيرة بين فترات المسير ..

التناقض بين هذا الجانب من الصورة ، وجانب آخر شهدته الخزانة التى خوت ، والبيوت التى خربت ، والهزال الذى أصاب عامة الناس ، والدور التى أغلقت على أطفال يبكون من الجوع ، وأمهات يبكين جوعهن وجوع الأطفال ..

وشهدت هـذه البيوت ، وشوارع العاصمة « القطائع » هجمات الحرس ، ورجال الشرطة ، وهم يقتحمون البيـوت ، ليجبروا المساكين والجياع على الضحك والابتسام ، ومشاركة « خمارويه » و « قطر النـدى » الفرحة والسرور ، بل ورفع الرايات ، وايقاد القناديل ؟؟!!.. أى والله .. هذا ما حدث .. وما خلفته لنا بعض كتب التراث ..

واذا كانت السلطة الاقطاعية ، والنظام الاقطاعى ، قد شهد هذا اللون من ألوان الحياة ، واذا كانت القاعدة المادية لهذا النظام قد خلقت من ألوان البشاعة والظلم الاجتماعى ، ما يجل عن الوصف ، فاننا ولا شك سنجد أنفسنا ، ونحن نتحدث عن التجربة الجديدة التى قامت فى مصر ، بازاء قاعدة مادية لمجتمع لابد وأن تكون غير اقطاعية .. كما سنجد أنفسنا ازاء صـورة

جديدة لمجتمع جديد .. تبنيه قوى جديدة وتحكمه قيم ليست بقيم الاقطاع ، ولا هى مما شهدها مجتمع الاقطاع ..

والا .. فأية صلة بين وضع الصناعة ، مثلا ، فى ظل المجتمع العربى الاقطاعى وبينها فى ظل هذه التجربة الجديدة ؟؟ .. بل أية صلة بين صناعة تجربتنا هذه ، وبين صناعة أى مجتمع اقطاعى فى أى بلد من البلاد ؟؟..

ان الصناعة الحرفية ، وتنظيمات الطوائف ، ونقابات الحرف ، التى كانت احدى قسمات المجتمع العربى الاقطاعى ، والتى كانت سمة كل مجتمع اقطاعى مرت به كل الجماعات البشرية .. ان هذا اللون من الصناعة ، وذلك النمط من التنظيم ، قد أخـذ فى التداعى ، والتحطم ، والذبول ، فى ظل عملية البناء الصناعى التى شهدتها مصر فى ظل تجربتها الحديثة ..

وتحول كثير من الحرفيين الى ميـدان الزراعة ، وهجرها البعض الآخر الى المصانع الحديثة الكبيرة التى أخذت تقام على نطاق واسع منـذ التنظيم الصناعى الذى أخـذت به البلاد فى سنة ١٨١٦ م ..

ولقد اتخذ بعض الكتاب والباحثين ، من هذه الظاهرة ، وذلك المصير الذى أصاب الصناعات الحرفية ، والحرفيين ، وذلك التحلل

والتفكك الذى أصاب نقابات الحرف ، اتخذوا من ذلك مـــادة للهجوم على التجربة ولكن هذا الموقف غير دقيق .

فالعصر الذى تتحطم فيه الصناعات الحرفية ، ويتحلل فيه نظام الطوائف ونقابات الحرفيين ، ثم تقام فيه فى نفس الوقت ، صناعات كبيرة ، ومصانع يعمل فى بعضها أكثر من ٥٠٠ عامل (خمسمائة عامل) ، مثل هذا العصر لا يمكن أن يكون غير طور جديد لعصر جديد ..

فظاهرة تفكك الصناعات الحرفية هى احدى الظواهر التى شهدتها كل المجتمعات التى خطت من دائرة الاقطاع الى رحاب الرأسمالية ، والتى أدارت ظهرها للعصر الاقطاعى ، ويممت وجهها شطر المجتمع البرجوازى الجديد .

ومن هنا كانت هــذه الظاهرة دليل تقدم لمصر ، لا دليل تخلف .. وفى صف التجربة لا ضدها .. وايذانا بمرحلة جديدة فى تطورنا الاقتصادى ، لا مظهرا من مظاهر الانهيار ..

وليست هناك أية قسمات مشتركة ، أو سمات عامة واحدة ، تجمع بين ما أصاب الصناعات الحرفية وتنظيماتها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فى مصر ، وما أصابها فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، فى نفس مصر ، عندما قام الاحتلال العثمانى ،

بقيادة السلطان سليم بحركة « تفريغ » مصر من الصناع والتجار والمهرة من الفنيين والحرفيين ، فانهارت أركان هامة ، وكثيرة ، من هذا الجانب من جوانب اقتصادنا بعملية « التفريغ » هذه ، وأصيب من جرائها بأبلغ الأضرار .

لأن الوقت الذى شهد انهيار الصناعات الحرفية وتنظيماتها ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد كما أشرنا ، قيام تنظيم صناعى ، أقل ما يمكن أن يقال فيه انه كبير وانه ضخم بالنسبة للعصر الذى تم فيه ..

* * *

ففى صناعة الغزل والنسج ، والتى تعد من أقدم الصناعات فى مصر ، لم تقف تجربتنا الجديدة عند حد تطويرها وتحسينها وتوسيعها ، فى الاطار اليدوى الذى كان يضمها ، وانما شهدت مصر مجموعة من المصانع الكبيرة والمتوسطة ، بمقاييس ذلك العصر .

ونحن هنا نورد بيانا بأهم هذه المصانع ، الخاصة بالغزل والنسج ، سواء للقطن أو الحرير أو الصوف أو الكتان أو للجوخ أو للبطاطين :

المصنع	تجهيزاته		
	الدواليب	الأنوال	ماكينات التجهيز
مصنع الخرنفش (١)	١٠٠	٣٠٠	٧٠
فابريقة مالطة ببولاق (٢)	٢٨	٢٠٠	٢٤
فابريقة إبراهيم أغا	٤٥		٣٠
فابريقة المبتدية	٤٥		٣٠
مصنع نسيج البركال ببولاق (٣)		١٥٠	
مصنع أمشاط الغزل (٤)		٣٠٠	
مصنع الجوخ ببولاق (٥)		١٠٠	
مصنع الحرير بالخرنفش		٢٠٠	
مصنع الحبال			
مجموعة مصانع الصوف والبطانيات		٤ر٠٠٠	
فابريقة الطرابيش بفوه (٦)			
مصنع الغزل والنسيج بقليوب			
» » » بشبين الكوم	٧٠		
» » » بالمحلة الكبرى (٧) ...	١٢٠	٢٠٠	
» » » بزفتى	٧٥		
» » » بميت غمر	٧٥		
» » » بالمنصورة (٨) ...	١٢٠	١٦٠	

(١) وكانت به مجموعة من الورش المختلفة كملحقات للمصنع .
(٢) وألحقت بها عدة ورش للصيانة والانتاج .
(٣) وكان هذا المصنع بدار بالبخلو ، وبه كذلك قسم للغزل .
(٤) وكان يعمل بهذا المصنع ٥٠٠ خمسمائة عامل ، و ينتج ثلاثين مجموعة من الأمشاط و ١٢٠٠ ثوب شهريا ، وبه قسم للنسيج . (٥) وانتاجه قد بلغ ٢٠ر٠٠٠ ذراع شهريا ، والحقت بهمصبغة للجوخ . (٦) وانتاجها ٢٧٠ طربوشا يوميا .
(٧) وألحقت به مجموعة من الورش وقسم للسبك .
(٨) وبه مسبك حديد ، ومصنع حديد ، ومجموعة من الورش الأخرى .

المصنع	تجهيزاته		
	الدواليب	الأنوال	ماكينات التجهيز
مصنع الغزل والنسيج بدمياط..	١٢٠	١٢٠	
« « « بدمنهور.	١٠٠		
« « « بفوه	٧٥		
« « « برشيد	١٥٠		
مصنع الغزل ببنى سويف	١٢٠		
مصنع الغزل بأسيوط	١٢٠		
« « بالمنيا			
« « بطنطا			
« « بجرجا			
« « بقنا			
« « بفرشوط			
مجموعة مصانع نسيج الكتان (١)		٣٠٫٠٠٠	
المبيضة (٢)			
مبيضة شبرا شهاب قليوبية			
« شبين الكوم			
« المحلة الكبرى			
« المنصورة			
المجموع (٣)			

(١) وكانت موزعة فى بلاد مختلفة ، وتنتج سنويا ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ « مقطع » من الكتان . (٢) وكانت تقع بين بولاق وشبرا ، ووظيفتها تبييض وطبع الأقمشة .

(٣) ولقد بلغ انتاج هذه المصانع من الغزل السميك ١٠٫١٥٠ رطلا يوميا ، فى الشتاء . و ١٤٫٥٠٠ رطلا يوميا فى الصيف ومن الغزل الدقيق ١٣٫١٤٠ رطلا يوميا فى الصيف . و ٨٫٥٤٠ رطلا يوميا فى الشتاء . (راجع كلا من (عصر محمد على) للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور حسين خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور محمد فهمى لهيطة) .

هذا عن صناعة الغزل والنسج ، وما شابهها ، والعظم الذى وصلت اليه خلال سنوات التجربة البرجوازية التى أقيمت على أرض المجتمع المصرى ، وفى ظل العصر الذى ارتبط باسم محمد على ، والذى لم يبنه محمد على ، وانما قاد فقط عملية بنائه ، تلك العملية التى قام بها الشعب ، وبالذات تلك القوى الاجتماعية التى قهرها طويلا نظام الاقطاع وسلطانه .

* * *

وجانب آخر من الصناعة ، شهدته هذه التجربة ، وأقامته هذه التحولات ، وهو صناعة الحديد والمسابك ، والورش ، وصناعات التعدين .

فالى جانب المسابك والورش العديدة ، التى أقيمت كملحقات لكثير من المصانع ، قامت عدة مصانع خاصة بهذه الصناعة ، كان من أهمها [1] :

المصنع	حجمه	إنتاجه
قسم الورش ببولاق	٨٠ ورشة	
مسبك الحديد ببولاق	٨ فرن	صب ٥٠ قنطار حديد يوميا (تكلفت عمليات بنائه ٦٠ر٠٠٠ جنيه) .
مسبك الحديد بقليوب		
مصانع الحدادة ولزوم السفن برشيد		
مصانع الواح النحاس		من ٧٠ إلى ١٠٠ لوح نحاس يوميا .

(١) (عصر محمد على) للأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

ولم يكن القطن فقط هو المحصول الزراعى الذى انعكس تعاظم انتاجه على الحركة الصناعية فى مصر ، بل ان عددا آخر من المحاصيل الزراعية التى أدخلت حديثا فى مصر ، قد حظيت بنفس الاهتمام ، وأحدثت آثارا مشابهة ، وانعكاسات ملحوظة على حركة التصنيع ..

وذلك مثل « النيلة » التى أنشئت لها فى مصر مصانع تستهلك سدس الانتاج المحلى منها بينما يصدر الباقى الى الخارج أيضا ، بل ويصدر جزء من انتاج هذه المصانع الى الخارج كذلك .

وكما غطت شبكة مصانع الغزل والنسج معظم مدن مصر فى ذلك الوقت ، فان مصانع « النيلة » قد حظيت بقدر كبير من الاهتمام ، وأقيمت أهم مصانعها فى [1] :

رقم	المصنع ومكانه	رقم	المصنع ومكانه
١	مصنع النيلة فى شبرا شهاب	٩	مصنع النيلة فى المحلة الكبرى
٢	» » » العزازنة	١٠	» » » أبو تيج
٣	» » » ميت غمر	١١	» » » ملوى
٤	» » » المنصورة	١٢	» » » منفلوط
٥	» » » منوف	١٣	» » » طهطا
٦	» » » أبيار	١٤	» » » أسيوط
٧	» » » الأشمونين	١٥	» » » الفشن
٨	» » » بركة السبع	١٦	» » » الجيزة

(١) (عصر محمد على) للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور حسين خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور محمد فهمى لهيطة .

وغير الغزل والنسج ، وما شابهه ، وغير التعدين والحديد ، وغير مصانع النيلة ، أقيمت العديد من الصناعات الهامة والضرورية مثـــل [1] :

المصنع	مكانه	إنتاجـــه
معمــــل الســـكر	الريرمون مركز ملوى	١٩٥ر١٢ قنطاراً فى سنة ١٨٣٣ م
« «	ساقيه موسى « «	
« «	الروضة « «	
مصنع الصـــابون		
« الزجاج والصينى		
« الشمع... ...		
« الورق... ...		(أهمل ولم ينجح)
معاصر الزيوت ...		
مدبغة الجلود ...	رشيد	

وهذا غير المصانع الحربية التى أقيمت فى أماكن عديدة ، فى القلعة وغيرها من البلاد ..

ونحن لن نفيض فى الحديث عنها ، لأن أحدا لا ينكر أن قطاع الصناعات الحربية والأسلحة والبارود ، قد احتل مكانا بارزا فى الصناعات التى أقيمت بمصر فى أثناء التجربة التى نتحدث عنها ، وها هو الماريشال « مارمون » يقول فى كتابه (رحلة الماريشال

(١) المراجع السابقة .

مارمون) عن مصنع أسلحة القلعة : « .. معمل القلعة يضارع أحسن معامل الأسلحة فى فرنسا ، من حيث الاحكام والجودة والتدبير .. » .

ولم يكن معمل القلعة هذا هو الوحيد ، وان كان أهمها ، فلقد شهدت مصر العديد من هذه المصانع ، وبالذات فى مدن :

- القاهرة ..
- والفيـــوم .
- والبدرشين ..
- وأهنسا ..
- والأشمونين ..
- والطرانة ..

وقد بلغ مجموع انتاج هذه المصانع الستة ١٥ر٧٨٤ قنطارا من البارود سنويا [1] .

* * *

وفى مجال المواصلات وربط أجـزاء البلاد بعضها بالبعض الآخر ، صنعت هذه التحولات الشيء الكثير ..

فالى جانب أسطول للملاحة النهرية ربط أجزاء مصر عن طريق النيل والترع والرياحات الكبيرة التى شقت طريقها الى مختلف أنحاء الدلتا ، الى جانب هذا الأسطول ، أنشئت شبكة من الطرق

---

(١) (عصر محمد على) للرافعى .

البرية الواسعة « المشجرة » ، والتى عرفت فى ذلك الحين باسم « الطرق السلطانية » .

بل لقد شرع محمد على فى انشاء سكة حديد « القاهرة — السويس » ، ولكنه بعد أن أحضر لها المعدات والقضبان عاد فخشى أن تلعب سكة الحديد هذه ، وقيامها ، دورا مساعدا فى زيادة نفوذ انجلترا فى مصر ، وذلك عن طريق سيطرتها على هذا الطريق ، بحكم كثرة مصالحها التجارية عليه ، لاحتكارها تجارة الهند وغيرها من البلاد ، والمستعمرات الانجليزية فى آسـيا ، فعدل لهذا السبب ، عن انشاء خط الحديد هذا ، وأنشأ بمعداته خطا حديديا قصيرا بمحاجر « طره » ..

وفى ميدان المواصلات اللاسلكية ، أدخل فى مصر « وللمرة الأولى » نظام التلغراف القديم ، على طريقة (شاب) ، وكانت الرسـالة من القـاهرة الى الاسكندرية تستغرق فى ارسـالها ٣٥ دقيقة « خمسا وثلاثين دقيقة » [١] .

* * *

ونحن نريد أن نكرر مرة أخرى أن هذه لم تكن كل ما أقيم فى مصر من الصناعات خلال التحولات البرجوازية التى شهدتها

---

(١) المرجع السابق .

البلاد حينئذ . وانما كانت هذه المصانع ، وهذه الصناعات التى أشرنا اليها ، هى أهم الصناعات التى أقيمت ، وأبرز ما شهدته البلاد فى القطاع الصناعى من القاعدة المادية للمجتمع الجديد الذى دخلت بلادنا أبوابه فى مطالع القرن التاسع عشر .

ففى بولاق مثلا أقيم مرصد « الرصدخانة » ..

وحول الجيش ، والأعمال الحربية ، أقيمت عديد من الصناعات التى يحتاج اليها جيش وطنى ، يقيم دولة مترامية الأطراف ، ويتحدى ويحارب أهم جيوش العالم وأقواها فى ذلك الحين .. ومن أهم هذه الصناعات ، صناعة السفن ، التى أقيمت لها توسيعات لترسانة بولاق ، ثم أنشئت لها « ترسانة » بحرية فى الاسكندرية .

ونحن لن نتحدث الآن عن الجانب الحربى ، والأساسى ، من عمل هذه المؤسسات ، لأن الحديث عنه سيأتى عندما نتحدث عن الجيش ، وانما فقط نريد أن نشير هنا الى ما قدمته هذه المؤسسات البحرية من خدمة للتجارة والنقل ، النهرى والبحرى ، وما صنعته من وسائل الربط والتوحيد لأجزاء مصر ، وتدعيم وحدتها وربطها بالعالم العربى ، وغيره من بلاد العالم المختلفة .

وهذه الاشارات الى أهم جوانب القاعدة المادية لهذا المجتمع

الذى تتحدث عنه فى مجال الصناعة ، تؤكد ، وخاصة اذا قسناها بمقاييس ذلك العصر [1] دخول مصر عن طريقها الى عصر جديد .

أما عن الحالة الكيفية التى ترتبت على اقامة هذا البناء فان لها مجالا سيأتى بعد تقديم أهم ملامح الصورة ، صورة القاعدة المادية لهذه التحولات .

٢

أما الزراعة ، التى كانت — عنـــدما طرقت أبواب مصر التحولات البرجوازية — فى حالة يرثى لها ، والتى كانت قريبة الشبه ، من ناحية أسلوب انتاجها ووسائلها ، بما كانت عليه أيام الفراعنة الأقدمين .. وعلاقات انتاجها غارقة فى ذلك الأخطبوط الاقطاعى من علاقات الانتاج .. والتى كانت قائمة على أعمـــدة اقطاعية ثلاث :

- اقطاعات أمراء الاقطاع من « المماليك » ..
- ودوائر التزام « الملتزمين » ..

(١) ولعلنا نستطيع أن نلمس ضخامة هذا البنـــاء الصناعى وما كان سيحدثه بمصر ، لو لم يتدخل الاستعمار لتحطيمه ، اذا علمنا أن بلدا صناعيا كبيرا مثل ألمانيا كان فى سنة ١٨٠٠ م مجزأ الى مئات من الولايات والامارات .. وليست به صناعة ســوى مصنع واحد للنسيج فى « بروسيا » به مكنتان فقط للنسيج !!

• وتفاتيش أوقاف « نظار الأوقاف » ..

والتى بلغت حال الفلاح فى ظلها تلك الصورة التى عبرت عن جانب منها حكمة الشعب « أدع للسلطان بالنصر » .. وعن جانب آخر قول المقريزى .. « كان يسمى الفلاح المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، الا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له » .

وعبر عن جانب آخر منها المؤرخ محمد شفيق غربال عندما قال : « خضع الفلاحون لنظام مقيد لحريتهم ، معطل لشخصيتهم، خضوع الجندى للقانون العسكرى » .

والذى وصف « چورچ كيرك » الفلاحين وقراهم فى ظله بقوله : « فكانت القرى تقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء ، وكثيرا ما كان يتسلل المزارعون ليلا الى الجسور يقطعونها لتحويل مياه جيرانهم الى أراضيهم . ولما اشتد بهم الحرمان من الماء ، وضاقوا بما يلاقونه من الملاك من الضرب والظلم ، هجر كثير منهم الأرض وتحولوا الى أعمال « مناسر اللصوص » وقطاع الطرق والاجرام فى الخلاء المحيط بالقرى » [1] .

---

(١) چورچ كيرك . (موجز تاريخ الشرق الأوسط) ص ٩٣ ، ٩٤ .

الزراعة التى وصلت الى هذه الحالة قد شهدت الكثير من التغيرات وخاصة اذا نحن أدخلنا فى اعتبارنا ، ونحن نقومها ، مقاييس العصر الذى تمت فيه هذه التحولات .

ويكفى أن نقدم هنا ، أهم المعالم البارزة لما شــهده الريف المصرى من تطور فى الزراعة سواء أكان ذلك أفقيا أم رأسيا .

ففى خلال أقل من نصف قرن بلغ التطور فى مساحة الرقعة المزروعة ، وبلغت الزيادة فى النمو الأفقى للأرض الزراعية أكثر من الضعف ، اذ أن المساحة المنزرعة فى مصر سنة ١٨٢١ م قد كانت ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ فدان (مليونى فدان) ..

وفى سنة ١٨٤٠ م بلغت هذه المساحة ٢٢٦ر٨٥٦ر٣ فدان ..

ولم يأت سنة ١٨٥٢ م حتى كانت الرقعة الزراعية فى مصر قد بلغت ١٦٩ر١٦٠ر٤ فدان .

وهكذا وصلت الرقعة الزراعية فى خلال نحو ثلاثين عاما من أعوام التحول البرجوازى الى أكثر من ضعفها [١] .

---

(١) كانت الرقعة الزراعية بمصر ايام الحكم العربى المبكر تبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر١ فدان « مليونا ونصف مليون من الأفدنة » .. ولقد ادخل الحكم العربى بمصر محاصيل « الأرز » و « النارنج » ، و « قصب السكر » و « الليمون البلدى » و « الموز » و « التوت الأبيض » كما ادخلوا حيوان « الجاموس » الذى جلبوه من الهند .

ولم تكن المسألة مسألة زيادة أفقية فقط ، بل لقد دخلت مصر عصر التحول الى النظام الرأسمالى ، وهى لا تعرف ، أساسا ، غير نظام الرى بالحياض ، ذلك النظام الذى لا يتيح سوى محصول واحد فى العام ، هو المحصول الشتوى .

ووصل هذا التحول بالوضع الزراعى فيها ، الى نظام الرى الدائم لمعظم أراضيها ، وهو النظام الذى يتيح لفلاحيها الحصول على ثلاثة محاصيل ، ومحصولين فى العام .

فكأنما قد تضاعف النمو الزراعى فى مصر اذ ذاك الى أربعة أضعاف أو ستة أضعاف .

وليس ذلك كل ما حدث فى هذا الميدان ، فلقد عرفت البلاد يومئذ ثورة فى أنواع المحاصيل التى تزرعها ، مما زاد الدخل العام للبلاد .

فالقطن الذى كانت تعرفه مصر سنة ١٨٢١ م والذى كان من الرداءة وانحطاط النوع ، وقلة المحصول ، وندرة الزراعة ، بحيث لا يلحظ فى خريطة مصر الاقتصادية ، قد أدخلت منه الى البلاد أنواع جديدة ، وبلغ انتاجه فى بعض سنوات هذا التحول قرابة النصف مليون قنطار ، وقيمة مبيعات الحكومة منه فى احدى السنوات أكثر من مليون جنيه ..

أى أن هذا المحصول الرئيسى الجديد ، قد مثل ثمنه فى بعض السنوات نحوا من نصف ميزانية الدولة ..

وبلغ حجمه فى جملة الصادرات سنة ١٨٣٦ م ٨٦٪ من اجمالى الصادرات .

و « النيلة » ذلك المحصول المرتبط دخوله بمصر بهذه الفترة ، قد بلغ محصولها فى احدى السنوات ٧٧٫٣٠٠ أقة .

و « الخشخاش » « الأفيون » تلك السلعة الزراعية الحديثة ، والتى بلغ محصولها سنة ١٨٣٣ م ١٤٫٥٠٠ أقة بيعت بنحو ١٦٫٠٠٠ جنيه مصرى فى نفس العام .

والمزارع المملوكة للدولة والتى أقيمت خصيصا لزراعة أشجار التوت ، وتربية دود القز ، والتى جهزت بالمعدات والفنيين ، على مساحة من الأرض الجيدة بلغت ١٠٫٠٠٠ فدان قد أنتجت فى ١٨٣٢ — ١٨٣٣ م ١٢٫٠٠٠ أقة من الحرير .

وعمليات التشجير التى بلغت فى ظلها أعداد الأشجار المغروسة فى أعوام ١٨٢٩ — ١٨٣٠ فقط ٤٫٣٣٩٫٤٠٩ شجرة فى الوجه البحرى فقط [١] ؟؟ ..

---

(١) راجع (عصر محمد على) للرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور لهيطة .

ان هذا النمو فى ميدان الزراعة لم يكن كل ما أحدثته هذه التحولات ، ولا كل ما بناه الشعب والقوى الجديدة التى قادت عملية البناء هذه .. أى ان هذا النمو لم يقتصر فقط على ادخال الجديد من المحاصيل ، مثل القطن ، والخشخاش ، والنيلة والحرير.. وعلى مجرد التوسع فى الرقعة .. وادخال نظام الرى الدائم .. وانما شمل النمو والتقدم كذلك المحاصيل التقليدية فى البلاد ، بدليل أن انتاجية الفدان من هذه المحاصيل فى بعض السنوات قد كانت على النحو التالى [1] :

المحصول	إنتاج الفدان	وحدة القياس	المحصول	إنتاج الفدان	وحدة القياس
القمح ...	٧	إردب	البصل ...	٢٠—٣٠	إردب
الشعير ...	٥—١٠	»	الذرة ...	٦ — ١٠	»
الفول ...	٣—٧	»	القطن ...	٣٠٠	رطـل
الحلبة ...	٢—٥	»	قصب السكر	١٥	قنطار

ونحن هنا انما أردنا — بما قدمنا — اعطاء نماذج تحدد اتجاه حركة نمو الظاهرة واتجاه البوصلة فى هذا المجال .

* * *

وبديهى أن حركة تقدم من هذا النوع ، وبهذا المستوى ، كان لابد لها من سلسلة من الانشاءات ، وشبكة واسعة من الترع

(١) راجع المرجع الأخير من المراجع الثلاثة السابقة .

والرياحات ، والمشروعات المائية الكبيرة والصغيرة والمتوسطة ، التى تشمل الرى والصرف ، واقامة القناطر والجسور ، وكان لابد لأعمال كهذه أن تكون فرصة كبرى لعمل قومى ، يحول وحدة البلاد ومركزيتها الى بوتقة زاخرة بحرارة العمل والانشاء ..

وهذا ما حدث بالفعل .. ففى معظم أنحاء مصر ، أخذت تمتد شبكة من الترع الحديثة ، تحمل الى الأرض مياه النيل ، والتى كان من أهمها [1] :

رقم	الترعة	رقم	الترعة	رقم	الترعة
١	الفرعونية[2]	١٤	الوادى	٢٧	مصرف العموم
٢	المحمودية[3]	١٥	المسلمية	٢٨	البرانقــه
٣	الخطاطبة	١٦	بحر مشتول	٢٩	القشن
٤	الخضراوية	١٧	الصاوى	٣٠	السبخة
٥	بجيرم	١٨	بحر الرمل	٣١	المرعشلى
٦	البوهية	١٩	بردين	٣٢	السنهورية
٧	المنصورية	٢٠	مصرف بلبيس	٣٣	بلاجيا « توسيع »
٨	الشرقاوية	٢١	الزعفرانية	٣٤	الرمادى
٩	أم سلمة	٢٢	الباسوسية	٣٥	المقيلى
١٠	رويدة	٢٣	الشرقاوية	٣٦	الشال
١١	النعناعية	٢٤	القرماطية	٣٧	النابــه
١٢	الرساوية	٢٥	البولاقية القبلية		
١٣	الباجورية	٢٦	قنبــه		

(١) راجع (عصر محمد على) للرافعى .

(٢) اقيم عليها سد لزيادة الانتفاع .

(٣) انشئت سنة ١٨٢٠ م وعمل فيها ٣١٣,٠٠٠ عامل .

أما فى ميدان اقامة الجسور ، فلقد شهدت هذه الفترة العدد الكثير ، وكان من أهمها :

الجسر	ملاحظات	الجسر	ملاحظات	الجسر	ملاحظات
جسور على النيل	شملته من جبل السلسلة إلى شاطئ البحر المتوسط لمنع الفيضانات	بنى كلب المحرق كودية	فى أسيوط	المنشاة	فى جرجا
الرقة	فى بنى سويف	فرشوط أبو دياب	فى قنا	سد فتحة العربية	فى المنزلة
الطهنشاوى القبس الرانقة	فى المنيا	شطا الشباسات الوادية	فى جرجا		
أبو قير	إصلاح ، وطوله ١٢٤٣ متراً وسمكه ٥ م				
دفهيا فاو	فى أسيوط				

وغير الترع والجسور ، شهدت بلادنا فى الحقل الزراعى أيضا ، قيام عدد من القناطر على النيل والترع ، فى الوجهين القبلى والبحرى ، كان من أهمها :

القنطرة	ملاحظات	القنطرة	ملاحظات	القنطرة	ملاحظات
القناطر الخيرية	ولم تتم فى عهد محمد على	البوهية	فى الدقهلية	النعناعية	فى المنوفية
		المنصورية		القرينين	
بحر مويس	فى الشرقية	السنطة	فى كفر الشيخ والغربية	الرساوية	
المسلمية		الراهبين		الباجورية	
بحر مشتول		دميره		ميت عفيف	
الصفراء		تيده		الشرقاوية	فى القليوبية
العلاقمة		بيلا		الزعفرانية	
فاقوس		نشرت		أبو منجى	
الريحات	فى البحيرة	المراشدة	فى قنا	سمهود	فى جرجا
المحمودية		منبال	فى المنيا	المصالحة	
خزان طامين	فى الفيوم	الجرنوس		الوهابية	
سنورس		سنشتاد		الشباسات	
جسر شوشه	فى بنى سويف	الصاويه		بسرة	فى أسيوط
الرقه	فى الجيزة	الطنبشاوى		أسيوط	
العتامنه	فى منفلوط	على بك	فى أبنوب	قلاوى	
قطع أبو عفريت	فى ملوى			بنى سميع	

واذا علمنا أن الـ ١٠٠٠٠ فدان التى كانت تمثل مزارع الدولة المخصصة لتربية دودة القز ، قد أقيم بها ١٠٠٠ ساقية لرى الأرض ، وربى فيها ٦٠٠٠ رأسا من الماشية ، واذا قسنا بهذا المعدل ، أو بجزء منه ما شاهدته مصر اذ ذاك من منشآت خاصة بالرى ، ومن تنمية للثروة الحيوانية ، وما شهدته أيضا من اهتمام بالثروة السمكية ، وتنظيم لعمليات الصيد النهرى والبحرى ..

اذا علمنا ذلك ، استطعنا أن ندرك عظم التقدم الزراعى الذى أحدثته التحولات البرجوازية فى مصر ، والآثار التى نتجت عن الاهتمام بالبذور . وأبصرنا من خلال ذلك مدى الاتساع الذى أصاب القاعدة المادية لهذه التحولات فى ميدان الزراعة ، ومن ثم أهمية هذه التحولات .

٣

والحركة التجارية ، تلك الدعامة الثالثة من دعامات القاعدة المادية للتحول البرجوازى فى مصر ، أنها قد سارت هى الأخرى بنفس المعدل فى النمو .

ونحن عندما نتكلم عن الحركة التجارية يومئذ ، فلابد وأن نتذكر تلك الامتيازات التى شملت كل شيء ، والتى منحت كل شيء للتجار الأجانب ، والرعايا الأوروبيين ، والمغامرين والأفاقين الذين وفدوا الى البلاد وعاشوا فيها « تحت الحماية » .. وخاصة حماية الانجليز والفرنسيين ..

فالامتيازات التى منحها السلطان لأكثر من أربعة عشر بلدا أوربيا ، قد أعاقت كثيرا حركة التجارة العربية ، ومنها حركة التجارة المصرية ، ووضعت بناة التحولات الجديدة فى مصر أمام

ضرورة ضرب هؤلاء الأجانب ، والاعتماد على تدخل الدولة فى هذا المجال [1] ، فكان احتكار التجارة فى سنة ١٨١٦ م .

وأثبتت احصاءات سنة ١٨٣٦ أن ٩٥٪ من صادرات البلاد كانت بيد الدولة . وكذلك ٤٠٪ من الواردات .

ولم يكن ذلك كل ما حدث فى هذا الميدان ، فحجم التجارة قد بلغ :

السنة	حجم الصادرات	حجم الواردات
	جنيه	جنيه
سنة ١٨٠٠ م	٢٨٨ر٠٠٠	٢٦٩ر٠٠٠
سنة ١٨٣٦ م	٢ر١٩٦ر٠٠٠	٢ر٦٧٩ر٠٠٠

وهذه الزيادة التى بلغت فى سنوات التحول نحو العشرة أضعاف ، انما تعنى الى جانب ذلك شيئا غير الزيادة الكمية فى حجم الصادرات والواردات ، تعنى انتقال التجارة التى كانت بيد الأجانب سنة ١٨٠٠ م الى يد الدولة المصرية سنة ١٨٣٦ م .

---

(١) كما التقت مع هذه الضرورة ، وهذا الظرف الموضوعى رغبة محمد على فى إحكام قبضته على كل مقدرات الوطن ، وفرض سيطرته على كل الموارد والامكانيات لتسخيرها فى مهام انشاء الامبراطورية التى عمل فى سبيل الوصول اليها .

كما تعنى كذلك أن الواردات التى كانت تستورد سنة١٨٠٠م ، والتى كان معظمها منسوجات فاخرة للمماليك وأمراء الاقطـاع والجوارى والحريم ، ومنتجات معدنيه وزجاجية لقصــورهم ومتاعهم وترفهم ، وتوابل شرقية للقصــور التى شــهدت ليالى الشرق ، وقصص ألف ليلة وليلة ، وغيرها من مواد الترف .. هذه الواردات قد تحولت فى ظل التجربة الجديدة الى آلات وأدوات انتاجية ، ومواد صناعية ، حتى أن الواردات من بلد واحد هو فرنسا بلغت فى باب واحد هو الآلات ما بين عامى ١٨٢٦ م ، ١٨٣٧ م ما قيمته ٣٥٢ر٦٣٨ فرنك « ١١٧ر٥٤٩ جنيه مصرى » .

وليست الواردات فقط هى التى تدعمت وأصبحت ذات دلالة ، بل لقد أصبحنا نستغنى جزئيا أو كليا عن كثير من أنواع النسيج الأجنبى الذى أصبح يصنع محليا ، ونستغنى عن استيراد الكثير من الآلات والأدوات التى صــارت تصــنع محليا ، كما أصبحت صادراتنا لا تقتصر فقط على الحبوب ، والنسيج اليدوى ، بل شملت القطن الذى بلغ ٨٦٪ من حجم صادرات سنة ١٨٣٦ م ، والخشخاش « الأفيون » والنيلة ، والغزل والنسيج ومنتجات الكتان ، وغيرها من منتجات الصناعات الحديثة ، والتى أخذت تعرف طريقها لا الى البلاد العربية فقط ، بل والى كثير من البلاد الأوروبية .

ونحن عندما نقرأ رقم الصادرات أو الواردات التى وصلت أكثر من مليونى جنيه ، ثم نعرف أن الميزانية العامة للدولة قد بلغت ايراداتها سنة ١٨٣٣ م ٢٧٥ر٥٢٥ر٢ جنيه مصرى ، ومصروفاتها فى نفس العام ٠٧٠ر٩٩٩ر١ جنيه مصرى ونقارن بين رقم الميزانية هذا أو حجمها ، وبين حجم التجارة الخارجية ، ندرك المكانة التى احتلتها التجارة الخارجية المصرية فى ذلك الحين .

ومن هنا نستطيع أن ندرك معنى كلمات تقرير « ديهامل » قنصل روسيا العام بمصر فى ذلك الوقت الذى كتبه الى حكومته ، والذى قال فيه : « ان الموازنة بين تجارة مصر اليوم وتجارتها فى عصر المماليك وفى السنوات الأولى من حكم محمد على ، لا يسع الناقد النزيه ازاءها ، الا أن يعترف بما حدث من تقدم عظيم .. ولما كانت البيانات الموثوق بصحتها بعيدة عن متناول أيدينا ، فان موقفنا لا يساعدنا على أن ندعم هذا الرأى بالأرقام ، غير أن جميع من يقيمون فى هذه البلاد منذ زمن طويل ، قد اتفقت كلمتهم على أن المعاملات التجارية فى تلك العهود القديمة لم تكن شيئا مذكورا اذا قيست بما هى عليه اليوم من نشاط واسع النطاق » .

على أن ذلك كله ، رغم أهميته ، لا يمثل كل أبعاد التجارة ، تجارة أى بلد من البلدان .. فحجم التجارة ، بعد من أبعادها ..

ونوع السلع بُعد آخر .. واليد القابضة عليها ، والتى تربح منها بُعد ثالث .. وأيضا فان النقل فى المسألة التجارية يمثل بُعدا من أبعادها ، وهو بعد هام ، بل عظيم الأهمية .. لأن الدولة التى تملك القدرة الذاتية على نقل تجارتها الصادرة والواردة ، أو نقل جزء هام منها على أقل تقدير ، غير الدولة التى تعيش تحت رحمة غيرها من الدول .

ولقــد استطاعت مصر فى فترة التحولات البرجوازية التى نتحدث عنها أن تنقل أهم أجزاء تجارتها على سفن أســطولها التجارى وأن تحقق من ذلك الكثير من الوفر والأرباح .

فبعد اصلاح ميناء الاسكندرية ، وانشاء أسطول تجارى قوى فى البحر الأحمــر ، غــدت قدرة مصر التجارية أكبر من حجم ما تحويه الأوراق من أرقام ..

واذا كان هذا هو الحال فى تجارة مصر الخارجية ، فلقد سارت التجارة الداخلية على نفس الدرب ، وحققت نفس الخطوات ، ان لم يكن أكثر .

فعن طريق نظام التسويق الخاص الذى وضعته الحــكومة للمحصولات الزراعية ، والذى سنتحدث عنه فيما بعد ، كانت تضع يدها على فائض المحاصيل التى لا يستهلكها الناس ثم تقوم بتسويقها وبيعها فى المدن ، أو تصدرها الى الخارج .

وعن طريق حركة الملاحة النهرية فى النيل والترع والرياحات ، استطاعت التجارة الداخلية أن تحقق الأرباح الكثيرة للدولة .

وكما كانت التجارة الخارجية ، قبلا فى يد الأجانب ، فكذلك كانت التجارة الداخلية ، وكما قضت التجربة الجديدة على نفوذ الأجانب فى ميدان التجارة الخارجية ، فلقد انتزعت من يدهم كذلك السيطرة على التجارة الداخلية ، وأصبحت محصورة فى نطاق المصريين .. ، قلة من التجار الأفراد .. ونصيب الأسد فى يد الحكومة فى هذا المجال ..

وحتى ندرك أن هذا العمل انما كان موجها أساسا ضد التجار الأجانب ، الذين كانت بيدهم وحدهم السيطرة على هذا الميدان ، فلنقرأ كلمات محمد على التى يقول فيها : « اننى اذا لم تخنى الذاكرة .. لم أجد فى الاسكندرية حين قدمت الى مصر سوى ثلاثة من الأوربيين ، ينم مظهرهم على أنهم فى أسوأ حال ، أما اليوم فان الاسكندرية غاصة بالتجار الأوروبيين ، حتى انها لتبدو مدينة أوروبية .. وهؤلاء التجار يقتنون الجياد الأصيلة والمنازل الأنيقة ويعيشون عيشة الترف والنعيم » .

وهذه المعلومات التى تقدمها لنا هذه الكلمات عن التجـار الأجانب ، تبين لنا أنهم كانوا قلة ضعيفة عندما جاء محمد على الى مصر للمرة الأولى زمن الحملة الفرنسية .. أو أوائل أيام عصـله

وقبل توليته السلطة .. وأنهم قد استفادوا من سعى الدولة للانشاء والتعمير ومن الفوضى التى أحدثتها الحرب ضد المماليك ، ومن اقتراب النفوذ والاحتلال الأجنبى من مصر ، انجليزيا كان ذلك الاحتلال أو فرنسيا .. وانهم قد باتوا أصحاب سلطان كبير فى مصر ، وغـدوا طبقة أرستقراطية وعـددا كبيرا ، يطبع مدينة كالاسـكندرية بطابع خاص .

ومن هنا نستطيع أن ندرك ونلمس كيف أن الضربة التى وجهت سنة ١٨١٦ باحتـكار التجارة الخارجية ، ومعظم التجارة الداخلية ، انما كانت موجهة ضد هذه الطبقة من التجار الأوربيين..

وفى الحديث الذى سيأتى تفصـيله فيما بعد عن معاهـدة « باليتمان » التجارية المعقودة بين انجلترا وتركيا سنة ١٨٣٨ م ، والتى كانت موجهة بالدرجة الأولى الى النظام التجارى الجديد للدولة الجـديدة ، ما يبين الى أى مدى كانت هـذه السياسة التجارية وهذا النظام التجارى ، يمثلان شوكة فى حلق الاستعمار الزاحف على الوطن العربى ، وقلبه : مصر ، والسعى الذى سعته الرجعية الاقطاعية فى تركيا لتحطيم هذه التحولات المصرية ، ليس بالسلاح والتآمر فقط ، وانما عن طريق هذه المعاهدة الموجهة ضد احتـكار التجارة .. وكيف أن اضطرار مصر وارغامها على تنفيذ هذه المعاهدة سنة ١٨٤٢ م قد أثمر مضاعفة عدد السكان الأجانب

فى مصر خمسة أضعاف خلال ثلاثين عاما .. وكيف عادت هــذه الجاليات الى عهــد الحمــاية والامتيــازات والمحاكم القنصلية ثم المختلطة .. والى حياة السيطرة على اقتصاديات مصر .. حتى ثار ضدها الشعب بقيادة جيش عرابى فأتت اليه بجيوش الاحتلال سنة ١٨٨٢ م [١] .

---

(١) راجع فى كل ذلك (عصر محمد على) للرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور لهيطة .

الباب الثالث

تراكمات كمية ؟. أم تغيرات كيفية ؟

١

ولكن .. أمن الضرورى ، والمحتم ، أن تعنى هذه الأرقام ، وهذه الزيادة فى الدخل القومى ، التى شهدها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، وهذا النمو فى قاعدته المادية صناعة وزراعة وتجارة .. أمن الضرورى والمحتم أن يعنى ذلك انتقال المجتمع من النظام الاقطاعى الى ساحة النظام الرأسمالى ؟؟.. وأن يصبح تعبير « التحولات البرجوازية » وصفا علميا دقيقا ، وتشخيصا موضوعيا لهذا النمو وذلك التغيير ، اللذين حدثا ، واللذين تحدثنا عنهما فى الباب السابق ؟؟؟...

وألا يمكن أن تدخل هذه التغيرات وذلك التطور ، تحت باب التراكمات الكمية ، والاصلاحات التى تتم فى اطار النظام الاقطاعى ؟؟..

اننا لا نستطيع أن ننظر الى هذه الأشياء الجديدة التى شهدها المجتمع كمجرد تراكمات وتغيرات كمية ، بينما هى تغيرات كيفية ، ذات أثر ودلالة فى الاقتصاد والاجتماع وسائر مناحى الحياة .

* * *

فلم تكن التغيرات والتطورات التى حدثت فى ميدان الصناعة مجرد اضافات كمية ، ولا مجرد انشاءات جديدة تقام فى اطار النظام الاقطاعى ، وتحكمها قوانينه ، وتنسجم مع قيمه وتتعايش مع نمط الحياة الذى يخلقه ويدعمه ويرعاه هذا النظام ..

بل لقد خلقت هذه الحركة الصناعية الواسعة ، قوانين جديدة ، وطبقة جديدة ، وقيما جديدة ونمطا جديدا من أنماط الحياة .

وكان هذا أمرا بديهيا ، ولابد أن يحدث ، وتحدثه هـذه الصناعات ..

لأنه بدلا من الاقتصاد الاقطاعى المغلق والذى ينتج للاكتفاء الذاتى ، والاحتياجات المحلية أولا وأخيرا ، وفقط ، أصبح الاقتصاد الذى أنشأته هذه التحولات ، ينشأ وينمو ويتطور فى ترابط وعلاقات وثيقة مع الأنظمة الاقتصادية الأخرى ..

وغدا اقتصادا مفتوحا ، وذا علاقات دولية متعددة الجوانب ، أى أنه غدا اقتصادا تنتج مؤسساته الصناعية للسوق ، وللبيع والشراء ، وغدت النقود فيه ، وعمليات التبادل ، تحدث دورات

كاملة ، ولم يعد اعتماده الوحيد ، ولا الأساسى ، على التبادل الطبيعى والمقايضة ، كما هو الحال عندما تسود الاقتصاد قوانين نظام الاقطاع .

ولم يعد الجو العام ، والطقس الذى يعيش فيه هذا المجتمع بعد الحركة الصناعية ، هو جو المجتمع الاقطاعى الزراعى بما فيه من خرافة وسحر وشعوذة ورفض للمنهج العلمى فى التفكير وتناول الأشياء لأن مجرد استخدام الآلات ، وانتشار الصناعات ، يضع بين أيدى الناس الأسباب المادية والمحسوسة للانتاج ، ولتطور السلعة من مادة خام الى شىء نافع ومستخدم وجميل .. وذلك انما يخلق عقلية جديدة تدرك الأسباب الحقيقية التى مرت بها الأشياء التامة الصنع والمستوية الخلق ، وترفض القيم الخرافية وثقافات السحر والشعوذة التى تنمو فى المجتمعات الاقطاعية ، وتفرخ وتزدهر فى البيئات الزراعية ، حيث تلعب الزراعة ، ووضع البذرة فى الأرض وعدم معرفة كيف أنبتت ونمت وأثمرت ، دورا كبيرا فى تدعيم الشعوذة والسحر والخرافات .

لقد أحدثت هذه الصناعات تغيرات ملموسة فى الطقس الذى عاش فيه الناس ، وحولته الى طقس مجتمع قد خلف وراء ظهره العديد من قيم مجتمع الاقطاع .

كما أن هذا النمو الصناعى ، قد ساعد على خلق طبقة اجتماعية

جديدة هى الطبقة العاملة المصرية .. واذا كانت التنظيمات الحرفية ، قد استطاعت فى فترات نموها فى أحضان المجتمع الاقطاعى العربى أن تكون ذات أثر وفعالية وأن تلعب دورا فى السياسة والفكر والتأثير فى الأحداث ومجريات الأمور عن طريق الحركة الثورية التى ظهرت كتعبير عن الحرفيين ، وهى « القرامطة » .. فما كان بوسع الطبقة العاملة التى أنشأتها التحولات الصناعية البرجوازية فى مصر الا أن تكون ذات تأثير كبير .. وخصوصا وان المنشآت الصناعية التى أقيمت يومئذ ، لم تكن منشآت صغيرة الحجم فى أغلبها ، بل لقد كانت ، فى أحيان كثيرة . منشآت كبيرة بمقاييس ذلك الوقت ، ولقد بلغ تركز العمال فى بعضها درجة كبيرة بلغت الـ ٥٠٠ عامل ، وهو أمر هام فى خلق الروح الطبقية التى تمتاز بها طبقة عاملة حديثة ، ذات تقاليد جديدة وفى اضفاء هذه الروح وتلك التقاليد على قطاع هـام متزايد من المجتمع الذى يعيش وينتج فيه هؤلاء العمال .

واذا كان الباحثون والمؤرخون الذين كتبوا عن هذه الفترة لم يولوا اهتماما خاصا لهذا الوليد الاجتماعى الجديد ، فان الاستنتاج الطبيعى والمنطقى للأحداث والمقدمات حتما سيؤدى الى هذه النتيجة التى قدمناها ..

وذلك الحديث الذى ساقه عـدد من المؤرخين الأوروبيين

المعاصرين لهذه التجربة عن الروح التى امتاز بها عمال « ترسانة » صناعة السفن بالاسكندرية ، ومنافستهم لمنشآت بناء السفن فى الدول الأجنبيـــة ، ومحاولتهم الاجـادة والسبق فى الاتقـان والاختراع .. يشير الى جانب من هــذه الروح الجـديدة التى خلقتها هذه التجربة فى البلاد .

وهذه « النكت » أى الاختراعات ، جمع « نكتة » أى اختراع حسب تعبير الجبرتى ، قد أخذ الحديث عنها يشيع بين الناس ، والتسابق على ميادينها يشغل تفكير عدد غير قليل من الوطنيين ، والتشجيع الرسمى يلهب حماس الناس فى هذا الاتجاه ..

وها هو ذا « أحد أبناء البلد » ــــ حسب تعبير الجبرتى ــــ واسمه « حسين شلبى عجـوه » ، قد اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدمها الى محمد على باشا ، فأعجب بها ، وكافأه على هذا الاختراع ، وركبت احداها فى دمياط والأخرى فى رشيد .

وليس ذلك فحسب .. بل لقد كان هذا الاختراع سببا فى انشاء أول مدرسة للهندسة بالقلعة فى نفس العام الذى قدم فيه « ابن البلد » « حسين شلبى عجوه » هذا الاختراع .

وهؤلاء العمال المصريين الذين خلقهم التحــول الصناعى الجديد ، قد كانت لهم اهتمامات ملحوظة بتنمية النظام الجديد ، كما نجد فى موقفهم من التهديد الاستعمارى لمصر سنة ١٨٤٠ م ،

وفى ثقة جهـاز الدولة فيهم ، واطمئنانه الى ارتباط مصـالحهم بمصالح هذه التحولات التى تتم فى البلاد ولو جزئيا ، نجد فى ذلك وضعا جعل محمد على عندما واجهته انجلترا ومن خلفها الدول الاستعمارية بطلب الرضوخ لاتفاقية يوليو سنة ١٨٤٠ م ، يعلن فى أغسطس من نفس العام رفضه للتهديد ، ورفضه الرضوخ ، ثم « أخذ الاستعداد للدفاع ، وحشد الجنود فى ثغور مصر ، ووزع السلاح على عمال المصانع والفابريقات وطلبة المدارس الحربية »[١]، وسمح له هذا الوضع بأن يقول ، اعتمادا عـلى تأييد القـوى الاجتماعية ، التى أطلقت التجربة لها العقال ، بأن يقول : « اذا كانت الدول المتحالفة تريد أن تكرهنى بالقوة عـلى الاذعان ، فلتتفضل بالمجىء ، فانى على استعداد لمقابلتها ، انى لا أهاجم أحدا ، ولكنى مستعد للدفاع عن البلاد حتى آخـر نسمة من حياتى .. ان الانجليز يتهـددوننى بالنـزول الى أرض مصر ، فليجربوا !!! ولينفذوا وعيدهم فسـيرون أننا عـلى استعداد لملاقاتهم ، وان الأجنة فى بطون أمهاتهم سيشتركون فى قتالهم » .

فهذه الروح الجديدة التى خلقتها الصناعة فى مصر ، والتى خلقت الى جانبهـا « كادرا » فنيا ، وفئـة كبيرة من المديرين والرؤساء والمهندسين والمشرفين ، فئة ترتبط مصالحها بالتقـدم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى (عصر محمد على) ص ٣٣٩ .

والصناعة والربح ورأس المال .. كل ذلك انما كان أحـد نتائج التحولات الصناعية ، ومن ثم كان اضافة برجوازية أزاحت من حياة المجتمع قطاعا من تكوينه النفسى القديم المرتبط بالقـاعدة السابقة للمجتمع الاقطاعى القديم . ولو لم يجعل محمد على هذه المناصب مرتعا خصبا للشراكسة والمتمصرين لكانت هذه الروح قد أثمرت أكثر مما أثمرت وامتد بها العمر وطالت بها الحياة .

ان موقف المجتمع الاقطاعى القديم ، قاعدة وقيادة ، قد مثلها الجبرتى وزملاؤه عندما رأوا فى التجارب العلمية فى مقر البعثة العلمية الفرنسية سحرا ورجسا من عمل الشيطان وعندما رأى فى (العربة « الكارو » ذات العجلة الواحدة التى أخـذ الفرنسيون ينقلون بها أتربة الشوارع وبقايا المتاريس) ، معجزة كبيرة ..

ان هذا الموقف ، وتلك العقلية ، لم تعد لها القيادة ، ونشأ مع المجتمع الجديد ، جيل جديد له مفكروه الذين اجتمعت خصائصهم ومميزاتهم فى رائدهم العملاق « رفاعة رافع الطهطاوى » الذى لم يكن امتدادا للجبرتى ، بل نقيضا ومغايرا له عندما قال عن الصناعة ، وليس عن عربة « الكارو » : « ليكن الوطن محلا للسعادة المشتركة بيننا ، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع » .

وهكذا كانت الصناعة خلقا جـديدا فى المجتمع المصرى ، أحـدث من التغيرات الكيفية فيه ما لا يمكن أن يغفـله باحث

اقتصادى أو اجتماعى ، رغم نواقصها وعيوبها التى قيل عنها : « اننا نعتقد ان كثيرا من نقائص الحركة الصناعية فى عهد محمد على ، كان من قبيل تلك العيوب التى تلحظ عادة فى الصناعة عند نشوئها ، والتى تزول تدريجيا اذا ما توفرت لتلك الصـــناعة أسباب النمو والاستمرار » (١) .

٢

واذا كانت النهضة الصناعية التى أقامتها التحولات البرجوازية فى مصر ، قد أزاحت من على مسرح الحياة الاقتصادية الصناعات الحرفية ، وتنظيماتها الطائفية ، فان التغيرات التى حدثت فى ميدان الزراعة كانت أكثر وضوحا وحسما ، وأبرز للعيان . وفى استطاعة كل دارس أن يلمسها ويعرف دلالاتها ومغزاها .

وان كان ذلك لا ينفى أن السياسة الزراعية التى اتبعت خلال هذه الفترة قد هوجمت كثيرا ، ومن أغلب الباحثين والمفكرين والمؤرخين ، وذلك بدعوى أن النظام الزراعى الذى سلكته هذه التجربة قد انتزع الأرض من الفلاح المصرى ، وحرمه من الملكية التى تاق اليها ، وعاش عليها ، وتمناها آلاف السنين ..

---

(١) د . حسين خلاف (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) ص ١٨٦ .

والذى نعرفه عن نظام الملكية فى الامبراطورية العربية والعالم العربى ، ومصر بالذات ، حتى العهد الذى تتحدث عنه ، يؤكد أن علاقة الفلاح بالأرض كانت فقط علاقة « ملكية الانتفاع » وأن هذا « الانتفاع » قد تحول الى « الغرم » بدلا من « الغنم » فى ظل الدولة العثمانية ، وسيطرة أمراء الاقطاع من المماليك ..

وأن الأرض فى مصر قد وزعهـا يوما « الروك » الناصرى أربعة وعشرين قيراطا ، للسلطان وحاشيته عشرة قراريط ، وللأجناد والأمراء أربعة عشر قيراطا .. ولا شىء للفلاح !! [١] .

وأن عهد التحولات البرجوازية قد أطل على مصر ، وأرضها موزعة بين أمراء الاقطاع من المماليك وبين الملتزمين الذين يعيشون أمـراء اقطاع فى دوائر الالتزام ، وبين نظار الأوقاف ، الذين يعيشون أمـراء اقطاع فى تفاتيش الأوقاف ، ولم يكن للملكية الخاصة ، والمطلقة ، سـوى نصيب تافه من الأرض لا يستحق الذكر ، اذا نحن استثنينا أراضى « الوسية » التى كانت ملكية خاصة ، ولكن للملتزمين .. وأراضى « الرزقة » التى كانت ملكا خاصا ، ولكن للمماليك والأتراك ..

---

(١) « الروك الناصرى » نسبة الى الملك الناصر محمد قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) . وقبـله كان « روك حسام الدين » « المنصور لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) » قد وزعها أربعة وعشرين قيراطا للسلطان أربعة وللامراء عشرة وللأجناد عشرة .

وهكذا كان الفلاح المصرى ، بصدد ملكية الأرض ، خارج الصورة ، وخارج الموضوع .

واذا كانت هذه هى صورة « ملكية الأرض » وحيازتها فكيف سارت أمور التحولات البرجوازية فى الزراعة ؟؟.. وما هو المكان الذى أعطته هذه التحولات للفلاح المصرى فى لوحة « الأرض والزراعة » ؟؟

اننا لا نغالى اذا قلنا ان التعديلات والتغيرات العميقة الجذور التى أحدثتها هذه التحولات فى الريف المصرى قد أحدثت نوعا من « الاصلاح الزراعى » الذى كان منسجما ومتمشيا مع التحولات البرجوازية التى شهدها المجتمع المصرى ككل ، والحياة المصرية بشكل عام .

لقد أخذت هذه الاصلاحات الزراعية ، والتحولات الاجتماعية تزحف على الريف ، وتأخذ طريقها الى الزراعة ، قبل أن تعرف التغيرات فى ميدان الصناعة أو التجارة طريقها الى هذه المجالات .. أى أن « الاصلاح الزراعى » قد كان من أول الاصلاحات التى تمت فى ذلك الحين ، وقد أخذ طريق التدرج والنمو غير السريع ..

* * *

فمنذ اليوم الأول لتولى محمد على السلطة ، أخذ يناصب

المماليك العداء ، وأخذت الحرب تستعر بين هاتين القوتين ، محمد على ومن خلفه القوى الاجتماعية الجديدة ، الراغبة فى بناء دولة مدنية حديثة ، والتخلص من عصر الاقطاع .. والمماليك الذين يمثلون النظام الاقطاعى ، وتتجسد فى حياتهم كل قيم هذا النظام ..

ولقد بدأت هذه الحرب ، واستمرت ، كحرب يشنها المجتمع الجديد ، والتحولات الجديدة ضد النظام الاقطاعى ، وكخطوة ضرورية ومعركة ضارية فى سبيل « الاصلاح الزراعى » الجديد .. وأيضا كصراع دام بين محمد على وبين المماليك على السلطة فى مصر ، ومن تكون له الغلبة .. هو ؟؟ أم المماليك ؟؟ ! ..

* * *

وفى سنة ١٨٠٥ م ، أى نفس السنة التى جاء فيها الشعب بمحمد على الى كرسى الحكم ، اقتطع محمد على من « الملتزمين » ثلث المال الذى كانوا يحصلون عليه باسم « الفائض » .. والذى كان يمثل نحوا من ثلث انتاجية الأرض فى دوائر الالتزام .

وكانت معركة ثانية .. وخطوة على نفس الطريق ..

* * *

وفى أواخر سنة ١٨٠٧ م ، عدلت الحكومة عن الاعفاء الضريبى الذى كانت قد منحته لفئة « العلماء » ، وهو الاعفاء الذى كانت قد منحته لهم هم وأتباعهم سنة ١٨٠٥ م ، والذى استمر العلماء

والمشايخ ، رغما عنه ، فى جباية الضرائب من فلاحيهم واقنانهم ، واحتجازها لأنفسهم ، .. عادت الحكومة فى أواخر سنة ١٨٠٧ م ففرضت الضرائب على أرض هؤلاء « العلماء » ..

* * *

وفى سنة ١٨٠٩ م جاء دور تفاتيش الأوقاف ، تلك التى كانت ترفع أعلام النظام الاقطاعى على مساحات شاسعة من الأرض المصرية فى ذلك الحين ــ والتى كانت تحت سيطرة المشايخ والعلماء ففرضت عليها الضرائب للمرة الأولى ..

وقاوم العلماء .. ولكن ذلك لم يمنع التنفيذ ..

بل لقد خطت خطوة أبعد من ذلك ، فطلبت من نظار الأوقاف تقديم « حجج » أوقافهم ، وعجز الكثيرون عن ذلك ، لسببين :

أولهما : قدم العهد بزمن كتابة هذه « الحجج » وعدم وجود نظام ادارى لحفظ هذه الوثائق وتسجيلها ..

وثانيهما : لعدم وجود هذه « الحجج » أصلا ، والاكتفاء بالوقف « الشفوى » واشهاد الشهود الذين ماتوا من زمن بعيد ..

بل ولقد انكشفت بطلب الحكومة لهذه « الحجج » خدعة كبرى ، وتحايل قام به العلماء والملتزمون والاقطاعيون لعدة سنوات .. فلقد كان الاعفاء الضريبى الممنوح للأرض الموقوفة ، لا يدعو الناس الى وقف أراضيهم فقط ، وانما الى تسجيل الأرض

غير الموقوفة على أنها موقوفة عند « مسح » الأرض ، وذلك هربا من فرض الضرائب عليها ..

وبطلب « الحجج » الخاصة بالأوقاف ، انكشف هذا التحايل ، وسقط هذا « القناع » وألغيت كل « الأوقاف » التى لم تقدم عنها « الحجج » والبيانات ..

وكانت هذه هى الضربة الخامسة ، والموجهة للنظام الاقطاعى والخطوة الخامسة كذلك على الطريق الجديد .

* * *

وحتى هذا العام ، سنة ١٨٠٩ م ، كان لا يزال للالتزام نظام قائم .. وللملتزمين سطوة ونفوذ ، .. وفى هذا العام وجه النظام الجديد ضربات جـديدة لهؤلاء الملتزمين .. ففرضت لأول مرة الضرائب على الأرض « الوسية » وهى الملك الخاص للملتزمين ، الممنوح لهم مع سائر أنواع التسهيلات والاعفاءات والذى يزرعه الفلاحون سخرة لحساب هؤلاء الأسياد ..

وليس ذلك فحسب ، بل لقد استدار محمد على فى نفس السنة الى أموال « الفائض » التى يحصل عليها الملتزمون ، فاقتطع منهم نصفها ، رغم المقاومة .. والاحتجاج .. والتحالف الذى تم بين الملتزمين والعلماء .. ودفاع السيد عمر مكرم .. واحتجاجاته ضد هذه الاجراءات .

وكانت هذه هى الخطوة السادسة فى ذات الاتجاه ..

* * *

وكما أشرنا سابقا ، فلقد قوبلت هـذه الاجراءات المتقدمة بمقاومة ، ومقاومة شديدة ، وضارية ، بلغت حد القتال والحرب من جانب الأمراء المماليك ..

واستعان بعضهم فى مقاومة النظام الجديد بدول استعمارية ، كما فعل « الألفى بك » الذى سافر الى انجلترا ، وعقد معها حلفا ، ثم عاد ليقود المماليك فى حرب ضد هذا النظام الجديد ..

كما أخذت هذه المقاومة شكل التمرد المسلح ، مثل الذى قام به الملتزمون فى الوجه القبلى ، وجرد محمد على جيشا حاربهم وهزمهم وجردهم من امتيازاتهم الاقطاعية وحرمهم من أراضى « الوسية » التى كانت لهم ..

ومثل التمرد الذى قام به « العلماء » ورجال الدين ، بقيادة السيد عمر مكرم والذى سنفصل الحديث فيه بعد حين .. هـذا التمرد الذى انتهى أو الذى انتهت حدته ، بنفى السيد عمر مكرم من القاهرة ، واحداث انقسام كبير فى صفوف هؤلاء « العلماء » .

ولقد كانت هزيمة « ملتزمى » الوجه القبلى ، وكسر حـدة تمرد العلماء نظار الأوقاف .. خطوة هامة ، وسابقة على الطريق ،

دعمت الخطوات السابقة وفتحت الباب لعمل أكثر حسما وفاعلية فى هذا الاتجاه .

* * *

وكانت الخطوة الثامنة ، هى الغاء نظام الأوقاف من أساسه ، وضم الأراضى الموقوفة الى أملاك الدولة ، وانهاء هذا الشكل من أشكال الاستغلال الاقطاعى .. وسحب الأرض من تحت أقدام نظاره الذين كانوا — أمراء للاقطاع فى الحقيقة والمضمون .. وأخذت الدولة على عاتقها الانفاق على المشاريع والمؤسسات الخيرية والعلمية والثقافية ، التى كانت قد حبست عليها هذه الأملاك ..

* * *

أما الخطوة التاسعة على هذا الطريق ، فلقد كانت جمع عقود « الالتزام » من « الملتزمين » بحجة مراجعتها .. ثم احراقها ..

ومع هذه الأوراق المحترقة ، احترق نظام الالتزام .. وتداعى ركن من أركان النظام الاقطاعى الذى شهدته البلاد العربية منذ الفتح العربى ، وعاشت فيه مصر منذ أن كانت تعقد حلقات المزايدة على « دوائر الالتزام » فى جامع عمرو بن العاص ، فى مدينة الفسطاط .

وأعطيت للملتزمين تعويضات شخصية ، تنتهى بانتهاء حياتهم دون أن تورث للخلف والأحفاد [1] .

* * *

أما الخطوة العاشرة ، والتى كانت أكثر حسما وفاعلية . فلقد كانت فى أول مارس سنة ١٨١١ م عندما أباد محمد على فى مبنى القلعة بواسطة جنوده ورجاله ٤٦٩ أميرا من أهم أمراء ورجالات المماليك ..

وعندما فتحت أبواب القلعة لينطلق منها الجنــود فى حركة واسعة وجولة عنيفة لترفع رقم الأمراء والمماليك الذين لقوا حتفهم فى أيام معدودة الى نحو ١٠٠٠ر١ مملوك ..

وصودرت أرض المماليك وممتلكاتهم ، وانتهت الى الأبد هذه الطبقة من أمراء الاقطاع الذين حكموا مصر أكثر من خمسمائة عــام .

* * *

غير أن هــذه الملامح التى عددناها ، والخطوات العشر ، أو الضربات العشر التى سددها النظام الجديد الى الاقطاع ، والتى

---

(١) يسمى المقريزى نظام الالتزام بنظام « قبالات الأرض » ، ولقد كانت تتم المزايدة بعد جامع عمــــرو بن العاص ، بجامع ابن طولون ، ثم بدار يعقـــوب بن كلس ، زمن العزيز بالله نزار الفاطمى ، وبعد موته بالقصر بالقاهرة الى نهاية الدولة الفاطمية .

بدأت باقتطاع ثلث « الفائض » من الملتزمين سنة ١٨٠٥ وانتهت بمذبحة القلعة الشهيرة ، وابادة المماليك ومصادرة أملاكهم ، وطى صفحتهم من الحياة .. هى ملامح لوجه واحد من وجهى العملة التى ضربها النظام الجديد وصنعتها التحولات البرجوازية للأرض والريف والفلاح ..

فبعد أن أفاقت البـلاد من آثار الضربات العشر القاسية ، شرعت الحكومة فى « مسح الأرض » تمهيدا لاقرار نظام جديد للزراعة .. وتنظيم علاقات جديدة للانتاج ..

وبدأت فى سنة ١٨١٣ م عملية مسح الأرض المصرية ، وتقسيمها الى أحواض وتعيين درجة جودتها ، وقيمة ضريبتها .. هذه العملية الكبيرة التى قادها « ابراهيم باشا » ابن محمد على ، والتى استغرقت خمس سنوات .

وفرضت لأول مرة ضريبة واحدة موحدة على جميع الأطيان ، لأنه لم تعد هناك « أوسية » ولا « دوائر التزام » ولا « أوقاف » ولا « رزق » ، ولا « سناجق » أو « كشوفيات » ..

وتراوحت الضريبة على الفدان الواحد ما بين ٤٫٥ قرشـا « أربعة قروش ونصف » وبين ٤٩ قرشا « تسعة وأربعين قرشا » .. وذلك حسب جودة الأرض وانتاجيتها ..

واذا كانت حصيلة المبلغ المتجمع من الضرائب عـلى الأرض الزراعية قرب الحملة الفرنسية قد كانت :

جنيه مصرى	
٩٥١ر٠٥٢ر١	قيمة الخراج النقدى أو العينى المتحصل من الفلاح
٦٠٢ر٠٠٠ر٠	قيمة المتحصل من نظار تفاتيش الأوقاف
٨٤٢ر٠٠٠ر٠	قيمة المتحصل من الملتزمين
٣٩٥ر٠٥٤ر١	المجمـوع

وكانت نسبته الى مجموع الايرادات العامة للدولة نحوا من ٨٨٪ .. فان نسـبة المتحصل من ضرائب الأرض فى ظل النظام الجديد الى مجموع الايراد العام للدولة سنة ١٨٣٣ م قد بلغت ٤٥٪ فقط .

ولم تكن الزيادة فى الايرادات المتحصلة من الصناعة والتجارة ومصادر الانتاج الجديدة ، هى فقط التى أنقصت هذه النسبة الى نحو النصف ، وانما كان التنظيم الضرائبى الجـديد ، واتباع وسائل منظمة فى جباية الضرائب ، ومواعيد محددة فى التحصيل .. والقضاء على العلاقات الاقطاعية فى الانتاج .. كانت هذه الأسباب، وغيرها ، تقف خلف هذه التغيرات ..

* * *

واتخذت علاقات الفلاح الجديدة بالأرض شكلا ثابتا وجديدا ، فلقد وزعت الأرض على الفلاحين قطعا صغيرة مساحتها ٣ و ٤ و ٥ فدادين ، حسب قدرة الفلاح على رعايتها وزراعتها وتنمية انتاجها ..

وتجسد هـذا الشكل الجديد فى قانون « الفلاحة » الذى أصدره محمد على سنة ١٨٢٨ م لتجميع ما استقرت عليه الأمور فى هذا المجال ..

ولم يكن النظام الجديد ليمنع الفلاح من حيازة الأرض ، بل كان يعمل بكل الوسائل ليجعل الفلاح على علاقة وثيقة بالأرض والقرية والانتاج .

والعقود التى حددت يومها علاقة الأرض بالفلاح قد اتخذت اسما ذا دلالة هو « التكليف » .

ووضعت الحكومة نظاما حديثا للانتـاج الزراعى ، فكانت تعطى الفلاح البذور والسـماد والماشية « تحت الحساب » .. ثم تحدد المحاصيل التى ستزرع ، والمساحات التى ستزرع فيها ، والأماكن والمديريات المناسبة لاعطاء انتاجية أكبر وأجود من هذه المحاصيل .. ثم تتسلم المحاصـيل وتسوقها تسويقا حكوميا ، وتستوفى ديون الفلاح ، وتعطيه ما يتبقى له من قيمة المحصول ..

ولم يكن هـذا النظام سهل التقبل أو الاستساغة من قبـل

الفلاح ، الذى استمر قرونا طويلة ينظر بحذر وريبة الى جهـاز الدولة ، ولا يتوقع منه غير السلب والنهب .. والمصادرات .. والذى يقف موقف الشك والحذر من أشكال « التنظيم الزراعى » على اختلافها ، لأنه يجهل ما وراءها ، ولا يعرف مراميها ، ولم تتح له الظروف ، التنظيم الجماهيرى الثورى ، ولا النظرية الثورية التى تضع يده على فوائد هذا « التنظيم » .

وكان من الطبيعى أن تحدث مشاكل .. وأن تحدث مظالم .. وأن تنشأ عقبات .. ولكنها كانت مجرد مشاكل ومظالم وعقبات فى طريق التقدم والتطور والاصلاح ..

ولكن .. ما هى قيمة هذه العقود التى جسدت العلاقة بين الأرض والفلاح ، والتى سميت « التكليف » ؟؟ .. وما هو حظ هذه العقود من الفاعلية ؟؟.. وما هو حظ الفلاح المصرى من الملكية الخاصة كقسمة أساسية لأى « اصلاح زراعى برجوازى » تحدثه التحولات البرجوازية على انقاض نظام الاقطاع ؟؟؟..

اننا نعتبر أن اقرار الفلاح فى أرضه ، والاستمرار فى تنمية حقوقه ، وزيادة علاقته بها ، انما مثل ، فى ظل هـذه التحولات جوهر الملكية الفردية ، وكان اللبنة الأولى فى اقامة هذا النظام

من نظم الملكية الفــردية للأرض فى مصر ، والذى قنن وشرع باللائحة السعيدية التى صدرت سنة ١٨٥٦ م .

ويكفى أن نقارن بين علاقة الفلاح بالأرض فى عهد المماليك ، قبيل عصر التحولات البرجوازية فى مصر ، وعلاقة الفلاح بها أثناء عصر التحولات ، لنعلم جدية هذه التغيرات التى شهدتها البلاد ..

فقبل هذا العصر كانت الأرض « تعتبر ملكية اسمية للسلطان ، أما من الوجهة الفعلية ، فقد كان المماليك يتقاسمون البلاد ، بحيث كان كل منهم يختص ببضعة قرى ، يقسم الأرض فيها بين الفلاحين المقيمين عليها ، ويلتزم بجمع الضريبة المستحقة عليهم ، ويمنح فى سبيل ذلك أراضى يستغلها مع اعفائه من الضريبة عليها ، وكانت هذه الأرض تعتبر ملكه الخاص ، أما الفلاح فلم يكن له الا حق الانتفــاع بالأرض بشرط دفع الضريبة فكان ذلك بمثــابة المستأجر . وكانت ثمة أراض أخرى تمنح للعسكر وغيرهم وتعفى من الضرائب ، وثالثة يقفها أصحابها على خلفائهم وغيرهم ، وقفا أهليا أو خيريا ، حسب الأحوال » [1] .

أما فى ظل هذه التحولات الجديدة ، فلقد أصبحت قيمة عقود

---

(١) د . حسين خلاف (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) ص ٩٤ .

« التكليف » ونصيب الفلاح من الملكية الخاصة ، وحظه من حرية التصرف فى الأرض حظا كبيرا .

ونحن نقرأ فى أحد تقارير القنصل الانجليزى « كامبل » الى حكومته عن هذا الجانب من جوانب حياة الفلاح المصرى ، هذه الكلمات :

« على الرغم من أن ملكية الأرض معتبرة من حق صاحب السلطان ، فانى لا أعرف حالات طرد فيها الفلاحون من أراضيهم ما داموا يؤدون الضرائب المفروضة عليهم بانتظام ، وكثيرا ما كانت الأرض تنتقل من يد الى أخرى ويسجل النقل فى المحكمة ، لقاء مبلغ يزيد كثيرا على قيمة ضريبة الأرض المقررة ، وعلى ذلك فقد نشأ نوع من حق الملكية المكتسب » [١] .

كما أن هناك من يرون « أن موقف محمد على من الملكية الزراعية يعتبر على أية حال تمهيدا لما جرى بعد ذلك من اقرار للملكية الخاصة ، اذ قضى هذا الوالى على طبقة المماليك والملتزمين ، وهى التى كانت تقف وسيطا بين ولى الأمر والفلاحين ، كما أنه ثبت للفلاحين فيما كان فى أيديهم ، وزادهم على توالى الزمن حقوقا فى أراضيهم » [٢] .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

وقسمة أخرى من قسمات التحولات الجديدة فى ميدان الزراعة ، تؤكد ذلك التحليل الذى ذهبنا اليه ، وهى قسمة المزارع التى أقامتها الدولة ، والتى اعتمدت فى ادارتها على الفنيين والعمال الزراعيين ..

ولقد تنوعت هذه المزارع ، وتراوحت الأغراض من اقامتها ما بين الحدائق الكبرى ، والمشاتل ، وحقول التجارب على القطن واكتشاف المحاصيل الجديدة والبذور الجيدة وتهجينها ، الى غابات التشجير ، ومساحات الزيتون الكبيرة التى أقيمت حديثا ، وان تكن أهم هذه المزارع ، انما كانت المزارع الخاصة باتتاج الحرير (تربية دود القز) ، والتى من أهمها [1] :

المزرعة	مساحتها بالفدان	عدد العمال الزراعيين العاملين بها	عدد الفنيين العاملين بهـا
وادى الطميلات بالشرقية	٣٫٠٠٠	٢٫٠٠٠	٥٠٠ (أحضروا من سوريا ولبنان)
مزرعة الدقهلية ...	٧٫٠٠٠ (للمزارع السبع)		
« المنوفية			
« الغربية... ...			
« القليوبية ...			
« دمياط			
« رشيد			
« الجيزة... ...			

(١) راجع (عصر محمد على) للرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور لهيطة .

ولقد بلغ من أهمية هذه المزارع التى شملت مساحة ١٠٫٠٠٠ فدان ، والتى بلغ انتاجها من الحرير سنة ١٨٣٢ — سنة ١٨٣٣ م ١٢٫٠٠٠ أقة ، ما هو أكثر من الربح والأرقام ، لأنها كانت تقدم نموذجا من المزارع الرأسمالية التى تدار بوسائل حديثة ، ويقوم بالعمل فيها عمال وفنيون ، يحصلون على مقابل عملهم فى شكل أجور ، كما أنها قد أحدثت من الآثار الأخرى فى حياة الناس ما جعل مؤرخا كبيرا ، وضنينا بكلمات الثناء على محمد على وذكر اصلاحاته ، مثل « الجبرتى » يسجل فى أحداث سنة ١٨٢٠ م ان الباشا « توجه لناحية الوادى (مزرعة وادى الطميلات) لينظر ما تجدد به من العمائر والمزارع والسواقى وقد صار هذا الوادى اقليما على حدته ، وغدت به قرى ومساكن ومزارع »[1] .

نعم .. فعلى هذا النحو كانت مزارع الدولة التى شهدتها هذه التحولات ، وهذه المزارع التى رأى « الجبرتى » احداها « اقليما على حدته .. به قرى ومساكن ومزارع » لم تنتج للحرب

(١) وهى المزرعة التى أنشئت سنة ١٨١٦ م ، واشتملت على ٦٠٠ رأس ماشية وقامت على ريها عدة مئات من سواقى الرى .

ولا للاكتفاء الذاتى ، وانما كانت تنتج سلعا رأسمالية ، للسوق المحلى ، والعربى ، بل والعالمى كذلك .

* * *

وقسمة أخرى للمزارع التى أقامتها هذه التحولات ، وان تكن قد سبقت الاشارة اليها ، الا أننا نذكرها هنا فى هذا السياق .. وهى ذلك الوزن الكبير ، والمتزايد ، الذى كان للسلع الرأسمالية التى أخذت تزرع وتنتج فى البلاد فى ظل هذه التحولات .. فلم يكن المجتمع ينتج فقط لغذائه وكسائه ، وانما كان يزرع سلعا رأسمالية للسوق .

• فالقطن الذى بلغت قيمة مبيعاته فى بعض السنوات أكثر من مليون جنيه ، هذا القطن كان سلعة رأسمالية ، لابد وأن تلقى أهميتها هذه ظلال مجتمع جديد ، ونظام جديد ، على النظام الاقتصادى الذى أقيم فى ذلك الحين .

فالحكومة التى تبيع من القطن ما قيمته ١٫٠٧٠٫٢٩١ جنيه مصرى ، وتربح من هذه الصفقة ٥٨٣٫٧٩٥ جنيه مصرى .

وتبيع من « الأفيون » فى احدى السنوات ما قيمته ١٦٫٠٠٠ جنيه مصرى وينتج محصول « النيلة » عندها فى احدى السنوات ٧٧٫٣٠٠ أقة ، وتنتج مزارعها فى احدى السنوات من الحرير ١٢٫٠٠٠ أقة ، وينتج مصنع واحد من مصانعها الثلاثة

الكبرى التى تصنع قصب السكر ، والمزروع محليا ، ١٩٥ر١٢ قنطارا من السكر .

وذلك غير الزيتون المزروع محليا ، ومنتجاته من الزيوت .

الحكومة التى لديها سلع زراعية رأسمالية كهذه ، والتى لها هذا الثقل وتلك الأهمية بالنسبة لايرادها الذى يتراوح ما بين مليونين وثلاثة ملايين من الجنيهات .. حكومة كهذه لابد وأن تلقى هذه الأرقام والحقائق والسمات لقطاعها الزراعى أضواء كثيرة على طبيعة النظامين الاقتصادى والاجتماعى اللذين شهدتهما .. وبالدرجة الأولى ظلالا وأضواء على طبيعة التحولات الزراعية التى أثمرت وضعا يقدم لنا كل هذه الحقائق وهذه الأرقام ..

وهكذا كانت التغيرات التى شهدتها الزراعة أكثر من تغيرات كمية . كانت تغيرات كيفية .. وبعيدة التأثير فى حياة الريف المصرى .. والفلاح المصرى .. رغم ما صاحبها من أساليب للقهر والحكم الفردى الذى سلكته الدولة طريقا لهذه الاصلاحات فى ذلك الحين .

ومن ثم كانت طريقا جديدا للمجتمع المصرى ، قاد هذا المجتمع من نهايات المجتمع الاقطاعى ، الى أعتاب المجتمع البرجوازى الجديد .

٣

والتجارة كذلك .. لقد سـارت على نفس الدرب ، درب التغـيرات الكيفية ، التى صبغت المجتمـع بصبغة التحـولات البرجوازية ، ونقلته من نظام الاقطاع ..

ولقد سبق أن أوفينا موضوع التجارة حقه فى الباب السابق ، وعرضنا كيف أن التجارة قد نمت نموا كبيرا ، وأنها قد امتازت فى ذلك العهد بعدد من الميزات والأبعاد ..

فبينما كانت تجارتنا :

فى سنة ١٨٠٠ م		نراها قد بلغت فى سنة ١٨٣٦ م	
حجم الصادرات	حجم الواردات	حجم الصادرات	حجم الواردات
جنيه ٢٨٨ر٠٠٠	جنيه ٢٩٦ر٠٠٠	٢ر١٩٦ر٠٠٠	٢ر١٦٩ر٠٠٠

أى أنها قد تضاعفت الى أكثر من ثمانية أضعاف ..

وقد يكون هذا مجرد زيادة فى حجم التجارة لا يعكس تمثيلها لتغيرات كيفية أصابت حياة المجتمع الاقتصادية والمالية ..

ولكننا اذا أضفنا الى ذلك تلك التغيرات التى أصابت « نوع » المواد التى كانت تصدر وتستورد فى سنوات التحولات البرجوازية عن تلك التى كانت تصدر وتستورد قبل هذه السنوات ..

وكيف كانت قبلا ، موادا غذائية ونسيجا يدويا ، فى مجال التصــدير .. ومواد ترف وزينة ، وتوابل ، ولوازم للقصـــور والأمراء ، فى مجال الاستيراد .. ثم تغيرت فأصبحت غزلا ونسيجا وقطنا ونيلة وحريرا وخشخاشا ، أى موادا وسلعا رأسمالية أساسا فى مجال التصدير ، وآلات وأدوات أساسا فى مجال الاستيراد .. اذا أضفنا هذه التغيرات « النوعية » الى زيادة الحجم ، أحسسنا بقيمة التغيرات الكيفية فى هذا المجال .

وبعد آخر من أبعاد تجارتنا فى سنى التحولات هذه ، هو الذى تجسد فى تبدل اليد القابضة على ناصية هذه التجارة [1] فبعد أن كانت مصر حقلا لنفــوذ الأجانب ومنطقة لامتيازاتهم الأربعة عشر الشهيرة التى منحها سلطان آل عثمان ، عادت التجارة فى يد مصر ، وأصبحت فى الأساس بيد الدولة التى كانت ، وكانت وحدها ، صاحبة المقدرة والفاعلية فى انتزاع الزمام من الأجانب وسحب الأرض من تحت شركاتهم .

وحتى نستطيع أن نفهم الضرورات التى حتمت عــلى الدولة

---

(١) فى سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) وفى عهد العباسيين ، جعل « أحمد بن محمد بن مدبر » تجارة النطرون احتكارا للدولة المصرية وكان يومها هو والى الخراج بمصر .. ولكن التغير الذى أحدثه محمد على كان من نوع آخر غير ذلك الذى شهدته مصر حتى فى ظل الاقطاع .

احتكار التجارة الخارجية ، ومعظم التجارة الداخلية ، عن طريق التسويق الحكومى للمحاصيل الذى أشرنا اليه ، علينا أن نبصر ، الى جانب احتياجات التخطيط والتمويل ، وضرورة السيطرة على عصب الاقتصاد الوليد الذى يبنى فى تحد لقوى عاتية وذات نفوذ ..

علينا أن نبصر ذلك الضعف الذى أصاب به النظام الاقطاعى ، ومفاسد المماليك والأتراك وسلبها ونهبها ، وبشاعة نظام الامتيازات ، الضعف الذى أصاب به كل ذلك التجار الوطنيين والتجارة الوطنية . مضافا الى ذلك أيضا تلك الرغبة المحمومة التى كانت لدى محمد على للسيطرة على كل شىء فى البلاد ، والتحكم فى سائر مرافق الاقتصاد .

وعندما أراد التجار الأوروبيون التسلق على البناء الاقتصادى الجديد ، والاستفادة من المشروعات الجديدة ، باعتبارهم وحدهم القادرين على ذلك ، أممت الحكومة التجارة ، واحتكرت العمل فى هذا الميدان ، وسجلت أرقام سنة ١٨٣٦ م أن ٩٥٪ من الصادرات كانت بيد الدولة ، وأيضا بيدها ٤٠٪ من الواردات .

والقطن (هذه السلعة الرأسمالية) التى مثلت ٨٦٪ من حجم الصادرات فى هذا العام (سنة ١٨٣٦) .

كل ذلك يلقى ضوءا على مكان التجارة من حديثنا عن التغيرات الكيفية التى شهدتها مصر فى ذلك الحين ..

* ولم تكن هذه هى كل ملامح الحركة التجارية فى مصر ، فلقد أحست الحركة التجارية ، وأحست الحكومة ، عندما اقتربت التجربة ، من الاستقرار ، شعرت باحتياجها الى جهاز مالى ، مركزى ، يكون بمثابة العصب والمخ لهذا البناء الاقتصادى والمالى الجديد ..

ففى سنة ١٨٤٢ م ، حاولت الحكومة انشاء بنك مركزى بالاشتراك مع مديرين ورجلين من رجال الأعمال الفرنسيين ، وذلك برأسمال قدره ٧٠٠٠٠٠ر ريال ، تساهم فيه الحكومة بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ر ريال ، ويساهم فيه المديران الفرنسيان بباقى المبلغ ، وذلك ليكون « مثل بنوك الممالك المتمدينة ويكون له امتياز وسلطة فى تسعير العملة السالفة الذكر ، والعملة الأجنبية ، والأوزان ؛ وتسعير سائر أصناف الزراعة والتجارة ، الجارى الأخذ والعطاء فيها ، سواء أكان بالمزايدات أو بالممارسات أو بالاعلانات ، وفتح اعتمادات ، وقبول التحاويل والرجع الميرية.. لما فيه من ازالة الضرر ، واتساع نطاق التجارة ، ومنع تداول النقود بغير قيمتها المقررة »[1] .

(١) من مشروع قانون انشاء البنك المركزى سنة ١٨٤٢ م .

غير أن هذا الموضـــوع ، قد جاء فى وقت متأخر ، وأرادت الحكومة تنفيذه فى الوقت الذى كانت تصعد فيه موجات النفوذ الأجنبى بعد اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ م والتى فرضت النكسة على البلاد ، وفرضت على القوى الاجتماعية الجديدة فى مصر أن تقبع داخل الحدود بل وفرضت على مصر شروط معاهدة « باليتمان » (الانجليزية ـــ التركية) التى كانت تستهدف أســاسا تحطيم التجربة المصرية الجديدة ..

ورغم أن هذا البنك المركزى لم يخرج الى حيز التنفيذ ، ولم ير مشروعه النور ، الا أن التفكير فيه ، والمحاولة التى بذلت لانشائه ، والأسباب التى قيلت تبريرا لاحتياجات الوطن اليه .. قد جعلت منه « ترمومترا » يسجل الدرجة التى بلغتها هــذه التحولات فى ميدان التجارة والمال ، ومن ثم فى الميدان الاقتصادى بوجه عام ..

* * *

ومن هنا كانت هذه البدايات للقرن التاسع عشر ، هى الفترة الزمنية التى يحق لنا أن نجعلها تاريخا لبدء سلطان البرجوازية المصرية ، أولى البرجوازيات العـربية ، فى القوة والســيطرة والنفوذ .. وأولاها أيضا فى تاريخ الظهور .

٤

ولكن اذا كانت هذه هى حقيقة التغيرات والاصلاحات التى حدثت فى مصر مع سنوات النصف الأول من القرن التاسع عشر ..

واذا كان هذا هو التشخيص العلمى الموضـــوعى لما شهدت بلادنا من تحولات فى ذلك التاريخ .. فلماذا هـــذه الاختلافات والتناقضات الشديدة بين الذين كتبوا عن هذا العصر ، وهـــذه الأحداث ..؟؟.. ولم كل هـــذا التضاد فى المواقف الفكرية بين المؤرخين والباحثين الذين كتبـــوا عن هـــذه التجربة ، وهـــذه التحولات ؟

اننا لا نتهم أحدا باخفاء الحقائق ، وخاصـــة من باحثينا الوطنيين ، وانما نعتقد بأن سبب هذا التباين والاختلاف ، انما يكمن فى تباين الأرضية التى يقف عليها كل مفكر ، وأيضا تباين المصالح التى يمثلها ، ومن ثم تباين الأفكار التى تصـــدر عنه لتنسجم مع هذه الأرضية ، وهذه المصالح .. فما هى أســـباب الخلاف حول تقويم هذه التجربة ؟؟.. ذلك الخلاف الذى تراوح بين اعتبار محمـــد عـــلى مصلحا اجتمـــاعيا . أو حاكما اقطاعيا مستنيرا .. أو ديكتاتورا اقطاعيا متخلفا .. أو أفاقا دوليا سارق مجد وحضارة ؟؟!..

اننا نعتقد أن هناك مواقف ثلاثة خاطئة فى هذا المجال ، وكل موقف منها انما يستند الى حجج معينة ، ويصدر من منبع فكرى بعينه .. وسنشير الى كل منها فى هذه السطور ..

* * *

وأول هذه المواقف الخاطئة ، والمعادية للتجربة التى تحدثنا عنها ، هو ذلك الموقف الذى تبناه كثير من الباحثين الأوروبيين ، سواء منهم من عاصر التجربة ، أو من قد جاء بعد ذلك .. والذى تبناه بعض المفكرين والمؤرخين الوطنيين ..

وأصحاب هذا الموقف ، يرون خطأ محمد على ، والمصائب التى سببها للبلاد ، انما تأتى ، وهى قد أتت ، من سلوكه طريق التصنيع ، ذلك الطريق الذى لا يلائم « طبيعة » المجتمع المصرى ، الذى خلق ، وأهلته الطبيعة ليكون مجتمعا زراعيا ، وحقلا من حقول الغلال .. ومخزن طعام ، كما كان أيام الاحتلال الرومانى ، وكما يجب أن يستمر الى أبد الآبدين .

ونحن قد نسخر اليوم من أصحاب هذا الرأى ، وقد نقرأ الصفحات التى سودوها بهـذا الكلام فنبتسم ابتسامة ساخرة ، ونرثى لحال هؤلاء الناس ، ولمصير الأفكار التى سودوا بها هذه الصفحات .

ولكن تاريخ مصر الحديث ، الى ما قبـل ثورة ٢٣ يوليـو

سنة ١٩٥٢ م ، كان زاخرا بالذين يقولون هذا الكلام ، ويدافعون عنه ، ويصدقونه ، ويرون فيه عين العقل ، والطريق المأمون للتقدم والبنـــاء .

وسبب آخر يدعو أصحاب هذا الرأى لتشديد هجومهم على هــذه التجربة ، هو ذلك النظــام من التــأميم والاحتــكار ، أو « رأســمالية الدولة » التى أقامتها ، وجعلت منها القــاعدة الأساســية ، والثابتــة ، والكبرى ، لما حــدث فى المجتمع من تحولات .

وهــذا النمــط من التنظيم الاقتصــادى ، هو ما يعــاديه الاقتصاديون الرأسماليون « الأحرار » ، ويحاربه مفكرو نظام الاقطاع ..

ولقد كان الاستعمار ، والاقطاع ، والرجعية ، وكل رصــيد الفكر الرجعى يقف خلف الباحثين والمفكرين الذين صبوا جام غضبهم على هذه التحولات ، لهذه الأسباب ..

وهل هناك دليل أكثر من ذلك الذى قيل فى تبرير هذا الرأى ، وفى التدليل على فشل التجربة من حديث كاتب مثل « جورج كيرك » فى كتابه (موجز تاريخ الشرق الأوسط) عندما يقارن بين النظام الذى أقامه محمــد على ، والنظام الذى أقامه « لينين » والحــزب الشــيوعى السوفيتى بعــد ثورة أكتوبر الاشتراكية

سنة ١٩١٧ م فى الاتحاد السوفيتى ؟؟!!.. وأن يعلل فشل النظامين (أى والله النظامين) لأنهما قائمان كلاهما على « السخرة » ، والجماعية ، والبرمجة ، ومعاديان « للحرية الفردية والنشاط الفردى فى الاقتصـــاد ؟؟.. » [1] (وهى مقــارنة وان تكن ســاذجة ، بل وفجة ، الا أنها تعكس الخلفية الفكرية التى جعلت چورچ كيرك يهاجم التحولات التى هى موضوع حديثنا) .

هل هناك أكثر من ذلك دليلا على نوعية القوى التى تقف خلف مثل هذه الأفكار ، ونوعية الأرض التى يقف عليها مثل هؤلاء المفكرين ..

وهذه العبــارات التى وردت فى أحد مؤلفات أحــد كتابنا الاقتصاديين ، والتى يرى صاحبها أنه « بالرغم من تقدم موارد الثروة الزراعية والصناعية والتجارية ، فقد ساءت حالة المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة ، وهم غالبية أفراد الشعب ، ويرجع ذلك الى أن الحكومة كانت تستولى على أرباح هذه الحرف

---

(١) وكتاب چورچ كيرك هذا ، هو عبارة عن المحاضرات التى القيت فى لندن على الدبلوماسيين البريطانيين القادمين للعمل فى بلاد الشرق الأوسط ، وهو يمثل وجهة نظر استعمارية فى كثير من القضايا التى تعرض لها بالبحث والدراسة .

تبعا لسياسة الاحتكار أو الاشتراكية الحكومية » [1] (كذا) !!
تعكس هذا الموقف كذلك .

وصاحب هذه العبارات ، وذلك الرأى هو الذى يلخص مذهبه فى نظام الملكية بهذه العبارة التى تقول « ان سحر الملكية كفيل بأن يحيل التراب الى تبر » !!.. فلا عجب أن يرى فى هذه التجربة ــ رغم اعترافه بالتقدم الذى حدث فى ظلها ــ تحولات لم تستطع أن تحيل التراب الى تبر !!!

وها هو ذا المسيو « مانجان » ، والذى عاصر التجربة وشهد التحولات شهود العيان والذى تحدث باكبار عن أشياء كثيرة ، وجوانب متعددة من جوانبها ، يأتى الى قسمة الملكية فيها فيقول : «ان التعديلات التى أدخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا هو اعترف بها » .

ولقد أبصر بعض باحثينا مغزى هجوم المؤرخين والباحثين الأجانب على هذا الجانب من جوانب التجربة ورأوا انه « يمكن الاستدلال على اهتمام الأجانب باقرار نظام الملكية الفردية فى

(١) د . محمد فهمى لهيطة (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) ص ٩٨ .

مصر ، بالانتقادات المرة التى وجهوها الى تملك محمد على للأراضى فيها » [1] .

أما « كلوت بك » فانه لم يقف موقفا وديا من هذه القسمة الأساسية من قسمات هذه التجربة وان لم يشن ضدها ، كما فعل غيره ، الهجوم ، وانما اعتبر هذا النظام ضرورة ، وانه « نظام مؤقت ، وانه يمهد السبيل لتقرير حق الملكية الزراعية » .

وهكذا نستطيع أن نبصر ونلمس الأسباب الموضوعية ، التى تدفع قطاعا من المفكرين والباحثين للهجوم على هذه التجربة بسبب ما أقامت من صناعات ولما أعطت للدولة من سلطة التملك .. وقيام نوع من « رأسمالية الدولة » التى كانت ضرورية حتى تستطيع الدولة احداث تغيرات هامة فى مواجهة أعداء كثيرين وأقوياء وخطرين ، والتى كانت كذلك سبيلا سلكه محمد على لاحكام قبضته على اقتصاديات البلاد .

* * *

وموقف عدائى آخر ، لمفكرين آخرين ، لعل أغلبهم من المفكرين الوطنيين ، لم يروا فى محمد على الا الطاغية الأفاق الذى سطا على مقدرات شعب عريق ، فأورثه نظاما جعل الشعب يعيش فى عبودية ، وشظف من العيش ، وعوز ليست له حدود .

---

(1) د . حسين خلاف (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) ص ١٠٠ .

ولعل السبب وراء هذا الموقف ، والأرضية التى وقف عليها هؤلاء المفكرون ، واحد من ثلاثة ، أو مجموع الأسباب الثلاث :

١ ــ فهؤلاء الكتاب يحملون محمد على وتجربته ، وزر ، بل أوزار ، العائلة الملكية التى ورثت عنه حكم مصر ، والتى لم تجلب لمصر الذل والمهانة ، والفقر والاستبداد فحسب ، وانما جلبت اليها أيضا الاحتلال الانجليزى الذى استمر جاثما على صدرنا أكثر من سبعين عاما ..

ولكنه ظلم وتجن ، أن نحمل محمد على أوزار الملوك والخديويين والأمراء .

٢ ــ وسبب آخر لموقف الكتاب هؤلاء ، وهو عدم تفرقتهم بين عصر محمد على . الذى أقيمت فيه التجربة التى تحدثنا عنها ، وبين عهد النكسة التى بدأت بحكم عباس الأول ، والتى استهلت عهدها بتحطيم ما بقى من تحولات التجربة ، وأفلت من معاول الاستعمار التى انقضت عليها بعد اتفاقية سنة ١٨٤٠ ، واجبار مصر على الخضوع لها بقوة السلاح والمؤامرات .. وفى ذلك أيضا ظلم وتجن ، أن نسحب على عهد هذه التجربة ظلال النكسة الرجعية التى بدأت بعهد عباس الأول ومن أتى بعده من الخديويين ..

٣ — وسبب ثالث .. لعله هو الوحيد ، الذى يحق لهؤلاء المفكرين والمؤرخين أن يروا فيه سحابة سوداء تظل عهد محمد على وتجربته ، وذلك هو الأسلوب الاستبدادى ، والظلم الاجتماعى الذى كان يشوب التجربة والتحولات التى شهدتها البلاد فى ذلك الحين [1] .

فلقد كان محمـــد على باشا حاكما فردا ، وصاحب سلطان مطلق ، وذلك رغما عن المجالس التشريعية ، ومجالس الشورى التى أقامها ، ورغما عن التشريعات ، والتنظيمات الحكومية العامة التى أنشأها والتى أطلق عليها « السياستنامة » . فان ذلك لم يغير من سلطانه المستبد ولم يقلل من نهمه الى التفرد بالسلطة والنفوذ .

ولقد كان يعالج مخالفة أوامره ، والتقصـــير فى العمـــل ، والتخريب الذى تتعرض له التجربة بأساليب قاسية ، كانت تبلغ أحيانا الضرب والجلد ، وقطع الآذان ؟!!..

---

(١) يقول « الجبرتى » عن اصلاح محمد على لسد « ابى قير » « .. فارسل اليه المباشرين والقومة والرجال والفعلة والنجارين والبنائين ، والمسامير وآلات الحديد والأحجار والمؤن ، والأخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم ، حتى تممه .. وكانت له (أى محمد على) مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان ، ولو وفقه الله الى شىء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان اعجوبة زمانه وفريد اقرانه » .

كما كانت أساليب السخرة ، وبشاعتها تشوه روعة الانشاءات التى أقيمت فى ذلك الحين .. وشق ترعة المحمودية نموذج لذلك ، فلقد عمل فيها ٣١٣٫٠٠٠ فلاح ومات من قسوة العمل فيها خلال عشرة أشهر فقط أكثر من عشرة آلاف عامل ..

فلقد كان التقدم ، فى أحيان كثيرة ، يفرض على الناس فرضا ، ولم تكن بيد القوى الاجتماعية الجديدة القدرة يومها على امتلاك الوسيلتين الوحيدتين اللازمتين والقادرتين على احداث التقدم بأقل ما يمكن من الهزات والآلام .. وهما : التنظيم الثورى الجماهيرى ، والنظرية الثورية ، التى تتحول الى قوة مادية محركة عندما تؤمن بها الجماهير ..

ونحن نعتقد أن واجبنا ، وواجب هؤلاء المفكرين والباحثين الوطنيين ، هو أن نفرق بين تجربة محمد على ، والتغيرات الكمية والكيفية التى حدثت فى ظل حكمه وتحت قيادته ، مع تقويم المظالم الاجتماعية وأساليب القسوة والاستبداد التى صاحبتها تقويما موضوعيا دقيقا .. أن نفرق بين هذا الجانب وبين نموذج مصر الأخرى ، مصر عصر النكسة الرجعية فى عهد عباس الأول ومن أتى بعده من الخديويين والملوك والأمراء .. وألا نلقى وزر كل هؤلاء على عاتق محمد على ، فنطمس التاريخ .

* * *

وموقف ثالث لمعسكر ثالث من المفكرين والباحثين ، لم يروا من نظام الملكية الذى عرفته مصر سنوات التحول البرجوازى ، غير نماذج ثلاث هى :

- الأبعديات ..
- والشفالك ..
- وما « أقطعه » محمد على للأعراب من أملاك ..

وهم قد رأوا فى هذا الجانب من جوانب نظام الملكية الزراعية اقطاعا ، فحكموا على التحول الزراعى بأنه « ترقيع » تم فى اطار النظام الاقطاعى ، بل لقد رأى بعض الكتاب ان عصر محمد على كان هو بدء الاقطاع المصرى بمعناه المعروف لنا ، وشكله المألوف لدينـــا .

ولكن .. ما هى الحقيقة فى هذا الموضوع ؟؟.. وما هى حقيقة « الأبعديات » و « الشفالك » و « اقطاعيات » الأعراب ؟؟.. وهل كانت هذه الأشكال من أشكال الملكية مما يدخل تحت باب نظام الاقطاع ؟؟

اننا نجيب بالنفى على هذا السؤال ..

فالأبعديات .. كلمة أطلقت على الأراضى التى لم تكن صالحة للزراعة عندما مسحت الأرض وفرضت عليهـــا الضرائب ما بين

عامى ١٨١٣ و ١٨١٨ م ، .. وكلمة « أبعدية » آتية من بعد هذه الأرض عن المساحات المزروعة والمربوطة على السكان ، والداخلة فى الحيازات ..

وعندما أرادت الدولة أن تزيد الرقعة المنزرعة ، وأن تقوم بعمليات استصلاح كبيرة للأراضى الجديدة ، وزعت هذه الأراضى البور « البعيدة » عن العمران .. على القادرين على استصلاحها ، وسميت « أبعديات » ولكنها لم تدر بشكل اقطاعى ، ولم تقم بها علاقات انتاج اقطاعية ، حتى تحسب ضمن الأسباب التى ترجح دخول هذه التحولات ضمن اطار نظام الاقطاع .

فلقد طلبت الحكومة من الذين وزعت عليهم هذه « الأبعديات » أن يقوموا بزرعها بأنفسهم ، وألا يؤجروها للغير ، وبهذا حالت بينهم وبين أن يقيموا فى هذه المساحات علاقات انتاج اقطاعية ، ونظاما للاقطاع .. كما منعوا من التصرف فيها بما يخالف المصلحة العامة ، وحرم عليهم وقفها ، وكان جزاء اهمالهم لهذه الأرض ، هو الطرد منها ، واعطاؤها لمن يستطيع القيام بهذا الاصلاح ..

ومع هذه التحفظات والقوانين ، والاحتياطات .. فلم تكن المساحة التى أعطيت كأبعديات فى البداية تزيد على ٢٠٠,٠٠٠ فدان ،

وهو رقم لا يؤثر فى اعطاء الصبغة العامة لنظام الملكية الزراعية فى بلد مساحة أرضه المزروعة أكثر من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فدان ، حتى ولو كانت هذه « الأبعديات » تدار بأسلوب اقطاعى ، فما بالنا ، وهى لم تعرف هذا الأسلوب ، ولا هذا النوع من أنواع علاقات الانتاج ..

ومثل « الأبعديات » تماما ، فى نوعية الأرض ، ونوعية الملكية ، وحقوق الذين أعطيت لهم الأرض ، ومركزهم فيها ، مثل هـذه « الأبعديات » كانت « الشفالك » .. مع فارق واحد هو أن أصحاب « الشفالك » كانوا من الأمراء والحاشية والشراكسة وخلصاء محمد على ، وخدام نظام وجهاز دولته الكبار ..

غير أن هـذه « الشفالك » ، وان كانت قد بدأت مثل « الأبعديات » فى نطاق الأرض البور وغير المزروعة ، رغبة فى اصلاحها وتوسيع الرقعة الزراعية عن طريقها .. الا أن مرور الزمن ، والوهن الذى أصاب التحولات البرجوازية ، والأمراض والعلل التى تسللت الى التجربة بعد أن هاجمها الاستعمار بالسلاح والمؤامرات ، قد جعل نظام « الشفالك » يغزو الأراضى الجيدة وينسحب على الأرض غير البور ، مما جعل منها نواة الاقطاعيات المصرية ، ومن أصحابها طلائع طبقة كبار الملاك .

والشكل الثالث من أشكال الملكية ، الذى جعل هذا البعض يتوهم أن هذه التجربة كانت اقطاعية ، هو « اقطاع » الأعراب ومنحهم مساحات من الأرض يفلحونها ويستقرون فيها ..

وهذا الأمر علاوة على أنه لعب دورا هاما وذكيا ، فى دمج هؤلاء الأعراب فى المجتمع المصرى ، وانهاء عهد الانفصام الذى كان قائما بينهم وبين السكان المستقرين فى المدن والقـرى ، وتلك النزاعات ، والسطو والسلب والنهب ، التى كانت ديدنا لهؤلاء الأعراب .. علاوة على ذلك .. فلقد كانت هـذه الأرض التى اقتطعت لهؤلاء الأعراب خارج نطاق الأرض المنزرعة ، والتى مسحت وُسجلت على الفلاحين ، وفرضت عليها الضرائب .. وذلك بهدف اضافة أرض مستصلحة جديدة .. وكان النظام المسموح به لهؤلاء الأعراب فى زراعة هذه الأرض وادارتها لا يسمح بقيـام علاقات انتاج اقطاعية فيها ..

ففى سـنة ١٨٣٨ م ، عندما أخذ بعض الأعـراب يهملون أرضهم ، وأراد البعض الآخر تأجيرها .. صدر قانون يحرم ذلك ، ويطلب منهم العمل فى هذه الأرض بأنفسهم ، والا حرموا من «ملكية المنفعة» ، وأعطيت لمن يستصلحها ويفلحها بنفسه ، ويحقق عن طريقها ، له وللدولة ، الأغراض التى منحت الأرض من أجلها .

وهكذا نجد فى « الأبعديات » و « الشفالك » و « اقطاعيات

الأعراب » وسائل جديدة لاستصلاح الأراضى ، واضافة مساحات جديدة الى ما هو منزرع من البلاد .. وهى سبل للملكية لا علاقة بينها وبين نظام الاقطاع ، ولا رابطة تربط بين العلاقات الانتاجية فيها ، وعلاقات الانتاج التى عرفها نظام الاقطاع ..

وهكذا نجد أن الدراسة الموضوعية ، والكشف عن الحقائق ، وتناول هذه التجربة بأسلوب علمى ، يجعلنا نغير الكثير من مفاهيمنا الخاطئة والمغلوطة التى قيلت فى حق النظام الذى قام وتحقق فى النصف الأول من القرن الماضى بمصر .

وهكذا يقودنا هذا التحليل الى أن نزداد ايمانا ويقينا بالحقيقة التى قلناها منذ الصفحات الأولى لهذا الكتاب ، والتى تقول ان مصر قد عرفت فى هذا الوقت المبكر من القرن التاسع عشر حركة برجوازية نامية ، وقوى اجتماعية جديدة .. عملت على احداث تحولات برجوازية ، واقامة قاعدة مادية لنظام برجوازى ، نقلت المجتمع من النظام الاقطاعى الى أعتاب النظام الرأسمالى الحديث [1] .. وان كانت التحديات التى واجهت هذه التجربة

---

(١) يقول د . محمد انيس فى (الهلال) عدد سبتمبر سنة ١٩٦٤ م : « لم يرحب الجبرتى بعملية التحول التى بدأها الفرنسيون واتمها محمد على ، من خلق دولة مركزية تتولى مسئولياتها بمفهوم الدولة الراسمالية المعروف » .

قد فرضت عليها سلوك طريق خاص ، وأعطتها ملامح خاصـــة ، وقسمات معينة ، لم تكن من حظ البلاد التى دخلت النظـام الرأسمالى عن طريق الملكية الفردية والخاصة ، والنمو البطىء لرأس المال والرأســماليين ، كما تحالفت مع هــذه التحــديات والضرورات أساليب الحكم الفردى والاستبدادي لدى محمد على لتدعم من اصراره على أن تعطى هذه التجربة ما أعطيت من ملامح وقسمات .

الباب الرابع

البناء الفوقي للتجربة البرجوازية المصرية

١

ولقد كان طبيعيا لقاعدة مادية جديدة ، قد بنيت في مجتمع جديد ، بهذه الأهمية التي تحدثنا عنها .. ولتغيرات عميقة في المجتمع المصري ، كالتي أشرنا اليهـا ، كان طبيعيا لتحـولات برجوازية كهذه ، ولتغيرات كيفية على هذه الدرجة ، أن تحدث في البناء العلوي للمجتمع تغيرات ذات قيمة كبرى ، وأن تجد لها انعكاسا وتأثيرا في البنـاء الفوقي الذي شهدته مصر في سني التحولات .

كما كان طبيعيا أن يكون جهاز الدولة ، أحد الأبنية الفوقية التي تنالها التغيرات ، وتشهد هذه التحولات .. اذ أنه لم يكن طبيعيا ولا ممكنا أن يقود الجهاز القديم الاقطاعي ، للدولة القديمة

الاقطاعية ، احداث التغيرات الكمية والكيفية التى تحدثنا عنها فى البابين الثانى والثالث من هذا الكتاب .. الا اذا كان متصورا أن يقود الأتراك اخراج مصر من نفوذ امبراطورية الأتراك .. وأن يقوم المماليك بمذبحة القلعة للماليك !!!..

وبقدر أهمية التغيرات التى حدثت فى القاعدة المادية للمجتمع ، كانت أهمية التبدل والتغير اللذين أصابا الجهاز العلوى له ، والبناء الفوقى الجديد ..

وذلك لأن المنهج العلمى ، وخبرة الحياة ، تعلمنا أن البناء الفوقى للمجتمع انما هو انعكاس ومرآة لما يحدث فى قاعدته المادية من تغيرات ..

فماذا حدث فى جهاز الدولة من تغير على عهد سنى التحولات البرجوازية ؟؟

ان أول هذه التغيرات التى حدثت وتأكدت فى جهاز الدولة ، هو ذلك الفصل الكامل ، والحاسم بين السلطتين الدينية والزمنية ، والتى كانت وحدتهما ، وارتباطهما ، سمة للسلطة فى ظل نظام الاقطاع العربى ، وأى نظام آخر من أنظمة الاقطاع .. فلم يعد السلطان للخليفة ، أمير المؤمنين ظل الله فى الأرض ، المتربع على عرش الامبراطورية ، والمتحكم فى مصائر العباد ، وثانى هذه

التغيرات هو ذلك التوحيد الذى أصاب جهاز الدولة فى مصر ، والذى كان يعكس توحد المجتمع ، وارتباط أجزائه سواء بطرق المواصلات أو الأسطول النهرى ومسالكه المائية التى جاست خلال البلاد .. أو نظام التلغراف ، أو عن طريق بناء جهاز جديد للدولة ، واحداث تقسيم ادارى جديد يقسم الدولة كدولة ، لا كدوائر التزام ، وينظر الى الوحدات الادارية نظرة عامة ، وعلى الصعيد القومى ، لا نظرة من خلال « السناجق » و « الكشوفية » التى كانت فى الغالب وحدات اقتصادية مجسدة للتقسيمات التى كانت تعيش فيها البلاد .

وهذه الحكومة الواحدة التى قامت فى مصر ، تحت قيادة محمد على ، والتى نظم أعمالها وأجهزتها قانون « السياستنامة » سنة ١٨٣٧ م ، والمجالس الاستشارية المتعددة ، ومجالس الخبرة ، التى أنشأها محمد على ، مثل « مجلس الشورى » و « المجلس الخصوصى » ، و « المجلس العمومى » .. هذه المجالس جميعا ، وان لم تنف عن هذه التجربة صفة الحكم المطلق ، وان لم تقيد تفوذ محمد على تقييدا ذا بال ، الا أنها قد أوجدت جهازا واحدا للدولة ، على أنقاض التقسيمات الاقطاعية والتجزئة التى عاشت فى ظلهـا البـلاد ، تلك التجـزئة التى دعم الأتراك أشـكالها ومضامينها .. والتى وصفها بدقة وروعة « نابليون » فى مذكراته

عندما قال [1] : « كان عند تركيا أكثر من سبب للخوف ، من مصر ، فمصر فى نظر العرب الأرض المقدسة ، والعاصمة الطبيعية للدولة العربية ، وقد كان من المحتمل أن يقوم « باشا » طموح لأنهاض الأمة العربية ، وعندئذ تتضاءل الى جانبها الدولة العثمانية ، وخوفا من هذا الاحتمال لم يشأ السلطان سليم فاتح مصر أن يعهد بحكومة مصر الى باشا بمفرده ، كما أنه كان يخشى ألا يكون ذلك ضمانا كافيا ، فقسم مصر الى عدة مقاطعات يحكم كلا منها أحد الباشوات ، ولم ير فى ذلك أيضا ضمانا كافيا يحول دون قيام زعيم يحقق لمصر الوحدة ويتولى قيادتها ، فأوفد بعثة من جانبه مكونة من ثلاثة وعشرين مملوكا ، واشترط ألا تتضمن حاشيتهم الا عبيدا ، كما اشترط أن يكون المماليك وعبيدهم من أصل شركسى ، وألا يكون أبدا من بينهم من كان ينتمى الى أصل عربى أو مصرى » .

وحتى نعطى مثلا للتجزئة التى عاشتها مصر الاقطاعية ، والتى قضت عليها التحولات البرجوازية والبناء الفوقى الذى أحدثته ، يكفى أن نعرف أن مدينة الاسكندرية ، قد كانت ولاية مستقلة عن مصر ، يحكمها حاكم تركى متصل رأسا بعاصمة آل عثمان ..

(١) محمد على العتيت (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) .

وأن هذا الوضع قد كان قائما فى ظل الحملة الانجليزية ، حملة « فريزر » سنة ١٨٠٧ م ، عندما خان هذا الحاكم التركى مسئولياته ، واستسلم للغزو الانجليزى قبل أن يهزم شعبنا هذا الغزو فى رشيد .

وليست الوحدة فقط هى التى كسبها جهاز الدولة الجديدة ، وانما التمصير أيضا ..

فهذه الأشكال البسيطة والأولية ، للمجلسين اللذين أقامهما نابليون ، من العلماء والأعيان والتجار ، أيام الحملة الفرنسية ، والتى كانت بداية لوضع شئون البلاد بين يدى العنصر الوطنى ، هذه الأشكال البدائية قد تطورت فى ظل التحولات الجديدة ، الى جهاز دولة يعتمد على العنصر الوطنى .. وذلك باستثناء العناصر التركية ، أو ذات الثقافة التركية ، المرتبطة والمحيطة بمحمد على باشا ، والتى ظلت لفترة طويلة ذات سلطان كبير .

ولقد أخذ الطابع الوطنى لجهاز الدولة هذا ينمو ويتدعم ، وتزداد صبغته وضوحا بازدياد نشاط العنصر الوطنى ومساهماته الكبيرة فى الجيش والحروب ، والبعثات العلمية ، والمدارس والمعاهد ، وغيرها من المجالات التى أخذت تزخر وتموج بنشاط الوطنيين ..

فلقد أخذت « الكوادر » الوطنية التى تربت تربية مدنيــة حديثة ، تملأ مجالات ذلك الجهاز المدنى الحديث ، الذى أقامته التجربة الجديدة ، لقيادة هذه التحولات .

والشرايين التى تمتد من جهاز الدولة هذا الى مختلف أنحاء البلاد ، فى شكل قبضة للدولة ، أو قانون أو تشريع ، أو قيم أو عرف .. لقد أخذت هذه الأشياء جميعا تأخذ طريق التوحد والبلورة والتنظيم ..

فبعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها فى مجال العملة المالية والنقود ، وبعد أن كانت الأيدى تتداول فى مصر : الدينار ، والدرهم ، العربيين . والبندقى ، والميدى ، والقرش ، وهى تركية . والدوك البندقى « البنــدقية » . والريال الهولندى . والريال الأسبانى .

وبعد أن كانت التعــديلات فى أســعار العملة تأخذ بعقب التعديلات ، حتى أن مدة ولاية أول ولاة الأتراك على مصر ، قد شهدت أربعة وعشرين تعديلا فى أسعار هذه العملة ، بما يخدم زيادة حدة المظالم والضرائب والمصادرات ..

بعد هــذه الصــورة البشعة من الفوضى النقدية ، أثمرت التحولات البرجوازية الجديدة ، ووحدة جهاز الدولة الجديدة ،

وحدة فى العملة المصرية ، وضربت النقود ذات المعدنين الذهب ، والفضة وكانت وحداتها :

١ ـــ القرش .. ٢ ـــ الريال .. ٣ ـــ الجنيه .

وحدثت للمرة الأولى ، فى البلاد ، معجزة تثبيت أسعار النقود المحلية والأجنبية ، والموازنة بينهما ، « حيث انه من الضرورى تطابق قيمة العملات الأجنبية مع عملة مصر » [1] والمقاييس التى كانت تعانى من الفوضى قدرا لا يقل عن فوضى النقود ، فى التعدد ، والزيادة والنقصان ، والتى كانت وحداتها تختلف من مديرية الى أخرى ، ومن دائرة التزام الى دائرة ثانية ، والتى جعلت من مساحة الفدان ، أمرا تتفاوت فيه النواحى والدوائر والمديريات ، امعانا فى الفوضى ، وخدمة للاستغلال ..

هذه الفوضى فى المقاييس ، قد أفسحت الطريق هى الأخرى ، لوحدة فى المقاييس ، اذ « أن الفوضى التى كانت تسود مقاييس الأطوال دفعت جنابه « أى محمـــد على » الى اختيـــار النظام العشرى ، ووحدته المتر الفرنسى » [2] .

---

(١) من تقرير موضوع سنة ١٨٣٤ م ، يعالج هذا الموضوع .

(٢) من اجوبة سعادة مختار بك ، ناظر المعارف العمومية بمصر ، فى عهد محمد على ، على اسئلة المستر « كامبل » .

وعلى نفس الدرب التوحيدى ، سارت الأمور فيما يتعلق بالمكاييل والموازين ، فوحدت كل منهما ، وأصبحت الوحدات الجديدة فى المكاييل والموازين هى العامة والسائدة والمستعملة فى جميع أنحاء البلاد ، بل لقد أخذت « الشون » الحكومية العامة ، وكثير من المتاجر ، تستخدم الوزن فى تجارة الحبوب ، بدلا من الكيل ، وسادت عملية توحيد المكاييل ودمجها بالموازين ، واستعمل فى ذلك النظام المئوى الفرنسى الحديث [١] ..

وهكذا أخذت التحولات البرجوازية التى شهدتها البلاد ، والقاعدة المادية لبناء التجربة الجديدة ، أخذت تثمر ضمن ما أثمرت جهازا واحدا للدولة الواحدة ، جهازا ذا طابع وطنى ، كتعبير عن القوى الوطنية التى تبنى ، والتى تمثل التجربة الجديدة آمالها وأهدافها فى بناء وطن متقـدم على أنقاض الفوضى الاقطاعية السابقة .. وفى مواجهة التحديات الكبرى التى كانت تناصب مصر العداء ، حتى استحقت من قائد ثورات الشرق وأسـتاذ ثواره جمال الدين الأفغانى تلك الأوصاف وذلك التقويم الذى أضفاه عليها عندما قال عنها انها « دخلت فى طور جديد من أطوار المدينة ،

---

(١) راجع فى كل ذلك (عصر محمد على) للرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور لهيطة .

وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء .. وتقاربت أنحاؤها .. وتعارفت أهاليها ، وائتلفوا ، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية ، وتواصلوا فى المعاملات ، وتشاركوا فى المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أخذ فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه « وطنى مصرى » وارتفعت بذلك أصواتهم بعدما جالت فيه أفكارهم »[1].

٢

وأمام التحديات الكبرى التى كانت تواجه بناء هذه التجربة ، وتعادى قيامها ونموها واستمرارها ، لم يكن جهاز الدولة الموحد الذى تحدثنا عنه بالأمر الكافى والمجدى فى صد نفوذ هذه التحديات .. فكان لابد من جيش يقيم ويحرس هذا البناء ..

ومع تطور التجربة ، وتبلور التحولات ، ووضوح سماتها ، تطور التفكير حول طبيعة هذا الجيش ودوره .

فعندما كانت العلاقة بين محمد على وبين « القيادة الاقطاعية المستنيرة » محل شد وجذب وأخذ وعطاء ، وعندما كانت قوى المماليك ما زالت تعيش فى مصر ، ويطلب لها السيد عمر مكرم

---

(١) (خاطرات جمال الدين الافغانى) ص ٢٨٦ .

من محمد على العفو والأمان ، والاقطاعيات فى بعض أنحاء البلاد ، وعندما كانت القاعدة المادية للبــلاد لا زالت زاخرة بالحــرف والتنظيمات الحرفية ، والالتزام ودوائره ، والوقف وتفاتيشه ، كانت الجنود المرتزقة ، وبقايا فوضى الجيوش الاقطاعية العثمانية ، هى التى تزخر بها البلاد .. « ترك » .. « ارنئود » .. « الباذ » .. « اكراد » الى آخر هذا الأخطبوط و « الكرنقال » .

وعندما أخذت القوى الجديدة تحس بحاجتها الماســة الى جيش وطنى لحما ودما ، يحمى البناء الوطنى الذى أخذت ملامحه فى الظهور ، لم تستطع منذ البداية أن تنفذ ما تريد .. لأن « القيادة الاقطاعية المستنيرة » لم تكن ترضى بقيام جيش وطنى ، لأنهــا كانت ترى فى ذلك فصما لعرى العلاقات والروابط مع الدولة العلية ، ولأنها كانت ترى ذلك « الكرنقال » العسكرى ، الذى يصيب به الأتراك البلاد ، رغم سلبه ونهبه ، ورغم اعتراض العلماء على هذا السلب والنهب .. كانت ترى فيه جيش السلطان ، وقوة الاسلام الضاربة ، وقبضة صاحب الأمر والنهى والحل والعقد فى البلاد .

كما كانت ترى « القيــادة الاقطاعية المستنيرة » فى أمراء المماليك ، وأجنادهم قوة حربية لا يحق لحاكم أن يستبدل بها جيشا وطنيا منظما من أهل البلاد .

أمام هذا العداء من قبل هذه « القيادة » لتجنيد أبناء الشعب المصرى فى الجيش [1] لجأ محمد على الى تجربة ثبت فشلها فى التطبيق ، تجربة تجنيد جيش من أبناء السودان .

ولكن .. بعد أن زالت من طريق القوى الاجتماعية الجديدة ، هذه العقبات ، وعندما أخذت التحولات الجديدة تعرف طريقها الى النور ، وبدأت احتياجاتها تبرز ، والقيم التى أنتجتها تسود وعندما زالت من طريق التقدم عقبة « القيادة الاقطاعية المستنيرة » وعقبة المماليك ، وقضى عليهم القضاء المبرم فى مذبحة القلعة الشهيرة والأيام التى أعقبتها ، عند ذلك استطاعت كل القوى الجديدة أن تضع لتحولاتها ومصالحها مرآة جديدة ، وحصنا جديدا ، وذلك فى شكل جيش وطنى قوى ، ذى قدرة على أن يلعب دورا فذا فى معارك كثيرة ..

وعملية اقامة جيش وطنى مصرى ، فى هذه الفترة من العمل والبناء مسألة ذات دلالة كبيرة ومغزى عميق ..

فنحن لا نغالى اذا قلنا أنه كان أول جيش وطنى بمعنى الكلمة ،

---

(١) كما أن جماهير الشعب هى الأخرى لم تكن ترحب بعملية التجنيد هذه ، لبعد العهد بين العنصر الوطنى وبين تجنيده فى الجيش .

تشهده بلادنا منذ أيام الفراعنة ، بل ومنذ العصر الذى سبق اضمحلال الأسرات الفرعونية فى عهدها الأخير ..

ونحن لا نتحدث عن عهد الرومان ، والفرس ، والبطالسة ، التى شهدتها وشهدت سيطرتها مصر ، وانما فقط نريد التذكير بالوضع الذى كانت عليه قضية الدفاع والجيش منذ الفتح العربى لمصر حتى عصر التحولات التى نسوق لها الحديث .

ففى البداية .. كانت الحاميـــة العســـكرية التى تعسكر فى « الفسطاط » أو « القطـائع » أو « القاهرة » أو غـيرها من المعسكرات والثغور ، حاميات عربية ، بمعنى أنها قبائل عربية ، أو أجزاء من هذه القبائل الوافدة من خارج هذه البلاد ..

ولم يكن العنصر الوطنى غير المسلم « الذمى » بمنضو تحت هذه الرايات العسكرية ، ولا داخل فى هذه المجالات .

وعندما أخذت عملية « التعريب » تؤتى ثمارها ، وشرعت مصر تأخذ مكانها كجزء من الجماعة العربية الواحدة ، وتلفها مع باقى هذه الجماعة نفس السمات والقسمات والقيم والمشاعر .. عندئذ أصيبت مصر بنظام للحكم ، رغم اختلافه ، وتعدد دوله ، وتعاقب حكامه ، الا أنه قد اصطنع لها جيشا من غير أهلها وخاضت هذه « الدول » معارك مصر بجند غير مصريين ..

ودعم من استمرارية هذا النظام طول عهـد المماليك بحكم البلاد ، والاحتلال العثمانى الذى أعقب حكم المماليك ، بل شارك حكم المماليك .

ومن هنا كان الجيش الوطنى الذى تتحدث عن عملية انشائه، وتجييشه ، أول جيش وطنى منذ عهد الفراعنة .. أى منذ عـدة آلاف من السنين .

وهذه الحقيقة هى التى تفسر لنا ذلك المضض الذى تقبل به الأهالى ، وفئات المجتمع وطبقاته عملية التجنيد .. وأيضا تلك الروح المعنوية التى كانت لهذا الجيش ، والانتصارات التى أحرزها وقاوم بها التحـديات التى واجهت البنـاء الجديد .. ثم قاوم الاستعمار الانجليزى ، والشراكسة ، والخديو خلف بطله الوطنى أحمد عرابى .

وهو الجيش الذى حمل الى القرى والعزب والأحياء الشعبية ، بعد أن سرحته سلطات الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ م ، أغانى وأساطير ومواويل تحكى قصة الشعب الذى سار خلف عرابى ، والذى يبحث عن « عرابى جديد » لينفض عنه ذل وعار الاحتلال .

هذا الجيش الوطنى كان أحـد انعكاسات القـاعدة المادية الجديدة ، وثمرة من ثمار المجتمع الجديد ، وهو لم يكن مجرد

جيش رمزى ، ولا جيش صغير ، فلقد بلغ تعداده فى سنة ١٨٣٧ م « القوات البرية والبحرية معا » ٢٥١٫٩١٨ جنديا وضابطا وبحارا وطبيبا وممرضا .

وليس رقم هذا الجيش وحده ، هو مبعث المغزى والدلالة ، وانما أيضا كان الأسطول الذى ملكته بلادنا يومها ، نموذجا للدرع الذى تبنيه هــذه الدولة الجديدة ، ذات الشواطىء الطويلة ، والمصالح النامية ، والأعداء الكثيرين .. ذلك الأسطول الذى بلغت عدته سنة ١٨٣٧ م [1] :

٦٨ سفينة .. عليها ٩٥٠ مدفعا ، و ٤ طرادات و ١٤٤ نقالة (كانت بعضها تدور بالبخار) .

بل اننا نجد فى الأسماء العربية ، والوطنية ، التى أطلقت على معظم سفن هذا الأسطول قسمة من قسمات هذا البناء الذى كان يقام يومئذ ، وسمة تعكس طبيعة التجربة ، ودلالة التحولات .. هذه السفن التى كان من بينها :

---

(١) انظر (عصر محمد على) للرافعى .

رقم	السفينة	رقم	السفينة	رقم	السفينة
١	مصر	١٥	واشنطن	٢٩	وابور الجوكا
٢	عكا	١٦	شاهين دريا	٣٠	الوابور الجديد
٣	المحلة الكبرى	١٧	الصاعقة	٣١	وابور بولاق
٤	المنصورة	١٨	التمساح	٣٢	قوطره نمرة ١
٥	الإسكندرية	١٩	شهباز جهاد	٣٣	قوطره نمرة ٤
٦	أبوقير	٢٠	بلنك جهاد	٣٤	كفر الشيخ
٧	رشيد	٢١	حمص	٣٥	فوه
٨	البحيرة	٢٢	بيلان	٣٦	أبريق نمرة ٢
٩	شير جهاد	٢٣	حلب	٣٧	بومية
١٠	دمياط	٢٤	الفيوم	٣٨	الجعفرية
١١	سمندجهاد	٢٥	بنى سويف	٣٩	النيل
١٢	طنطا	٢٦	المنوفية	٤٠	منوف
١٣	جناح بحرى	٢٧	وابور النيل	٤١	زهير جهاد
١٤	جهار بكير	٢٨	دمنهور		

ولم تكن الأسماء العربية التى أطلقت على معظم سفن هذا الأسطول هى فقط ، التى تضفى طابعا وطنيا ، وقوميا على هـذا الأسطول ، وذلك الجيش ، وانما كانت « الترسانة » الوطنية التى أقيمت فى الاسكندرية ، كمنشأة وطنية ، شـهدت من نشاطات العمال الوطنيين ، ومبارياتهم واختراعاتهم ، ما جعلهم يبرزون على غيرهم من عمال الدول الأجنبية ، وجعلهم موضع اعجاب واكبار عدد كبير من الكتاب والباحثين الذين وضعوا هـذه التجربة وتلك التحولات ..

ونحن اذا شئنا أن نقدم المزيد من الأدلة على الدلالة القومية لقيام وتكوين هذا الجيش وذلك الأسطول ، استطعنا ، حتى دون أن نتحدث عن المعارك التى خاضها ، ودلالتها ، أن نقدم الكثير ..

ولكننا لن نفعل ذلك ، لأن هذا الجانب من جوانب بنـاء التجربة الفوقى ، لا يحتاج الى مزيد من التأكيد والايضـاح .. فقط ، نريد أن نشير الى أمر له دلالة عميقة فى هذا الباب ، وهو أن هذا الجيش ، كان أول جيش يجند فيه المواطنون ، جنـودا وضباطا ، بوصفهم مواطنين بالمعنى الجديد للمواطنة وبصرف النظر عن الطبقات والمعتقدات ، واذا نحن وضعنا فى اعتبارنا الزمان الذى كانت تتم فيه هذه التجربة ، والوقت الذى كانت تحدث فيه هذه التحولات .. أدركنا عمق دلالة هذا المستوى من التقـدم الذى كانت عليه هذه العملية ، وأدركنا كذلك كيف أن جيشا كهذا ، انما هو مرآة صادقة لجهاز دولة مدنى ، وبناء دولة حديثة .. ومستوى من الفكر والتنظيم ، وتبلور لتجربة متقدمة على أنقاض عصر الاقطاع .

* * *

وهذا التقويم لدلالة قيام هذا الجيش الوطنى ، لا نعتقد أنه ينفى أو يقلل من البواعث الأخرى التى دفعت محمد على الى انشائه ، واعطائه كل الأهمية التى منحها له ، وهى بواعث وثيقة

الصلة بأحلام الرجل فى بناء امبراطورية مترامية الأطراف يحكمها هو ومن يليه من أبنائه وأحفاده ، وآمال راودت هذا الحاكم الفرد فى بسط نفوذه على كل صغيرة وكبيرة فى البناء المدنى الحديث الذى شهدته بلادنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

٣

وفى الميدان الثقافى ، والحقل الفكرى ، كقطاع من أهم قطاعات البناء الفوقى للمجتمع .. ماذا صنعت هذه التجربة ؟؟.. وما هى آثار هذه التحولات ؟؟ ..

لقد صنعت هذه التحولات فى هذا الميدان ، أبرز ما صنعت من آثار .. ويكفى أن نعلم أن هذه التحولات قد طرقت أبواب المجتمع المصرى وليست به من دور العلم سوى الجامع الأزهر ، الذى أوصله الاقطاع واحتــلال الأتراك الى درجة من التخلف والجمود ليس لها نظير .

ونحن طبعا لن نسمى « الكتاتيب » دور علم ، ولن نلقى بالا لمواعظ المشعوذين ، فلقد بعدت بعدا شديدا وشاسعا عن حلقات الدرس والتعليم التى أغنت وخدمت الحضارة العربية والتراث العربى عدة قرون .

ولقد سبق أن أشرنا الى أن القيادة الفكرية التى جاء القرن التاسع عشر الى مصر وهى تحتل مكان الصدارة من حركة الفكر والتوعية ، والتوجيه ، انما كانت بيد المشايخ العلماء .

ولقد أحدثت التطورات والهزات التى شهدتها حياة المجتمع المصرى انقساما واضحا فى هذه القيادة ، وبالذات منذ أن وطئت أقدام نابليون وحملته الفرنسية أرض البلاد .

فالجناح الأكثر رجعية واستسلاما ، قد ركن الى قوى الحملة الفرنسية ، أو هو قد انصاع اليها ، وخضع لتوجيهاتها خضوعا تاما ، فأصدروا البيانات الداعية لتأييد نابليون ، ومسالمة جيشه ، والتعاون معه ، وكتبوا اليه فى عيد ميلاده ، جاعلين من مصر وفرنسا « أمة واحدة » وسايروا خدعة اعتناق نابليون الدين الاسلامى ، واحتفلوا واياه بالمولد النبوى ، ووفاء النيل ، بالمراكب وحلقات الذكر ، ومختلف المراسيم والحفلات .

وعندما جلت الجيوش الفرنسية عن البلاد ، دفنت هذه القيادة الرجعية فى خضم الأحداث ، ووادى النسيان ، وذمة التاريخ ، مع أحلام نابليون وأمانيه وآماله .

أما الجناح الثانى من هذه القيادة الفكرية ، فهو ذلك الذى تمثل فى رجال الدين والتصوف وعلماء الأزهر الذين ناصبوا

الجيش الفرنسى والحكم الفرنسى العداء .. وقادوا الثورات فى القاهرة والأقاليم ضد الاحتلال الفرنسى ، وضربوا أمثلة من البطولة والشجاعة تستحق الاكبار والتقدير والاعجاب ، وكان فى مقدمة هذا الجناح السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف ، وهذا الجناح هو الذى سبق أن أشرنا اليه ، وفضلنا على تسميته « بالقيـادة الشعبية » تسمية « القيادة الاقطاعية المستنيرة » .

فأما انها قيـادة حقة وفعلية ، فهذا أمـر قد أثبتته وأكدته نضالاتها العديدة ضد ولاة آل عثمان ، وضد الجيش الفرنسى ، وضد ظلم المماليك وجورهم .

وهذه الفترة التى خاضت فيها هذه القيادة هذه المعارك كانت عصرها الذهبى ، لأنها كانت أكثر قيادات العصر تقدما ووعيا ، وقدرة على قيادة هذا النوع من أنواع النضال .

وأما أن هذه القيادة ، كانت مستنيرة ، فلأنها قد أبصرت خطأ الموقف الذى وقفه الجناح الأكثر رجعية من العـلماء والمشايخ عندما راهنوا على حصان نابليون ، ووقفوا تحت العلم الفرنسى ، وساروا فى ركاب الفرنسيين .. وعندما أبصرت أن حركة التاريخ انما تكمن فى نمو الظاهرة المعادية للفرنسيين ، والمتعارضة مع مظالم الأتراك والمماليك ..

وأما أن هذه القيادة اقطاعية .. فان على ذلك أكثر من دليل ..

فمعظم رجال هذه القيادة كانوا من الذين يديرون ويشرفون على دوائر الالتزام ، ويتنظرون على عديد من تفاتيش الأوقاف ، بل ويتنافسون ويتحاسدون على النظارة على هذه التفاتيش .. وفى ذلك يقول مؤرخ غير متهم فى ولائه لهذه القيادة هو «الجبرتى» يقول فى أحداث سنة ١٨٠٥ م : « فى هذه الأيام وقعت بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها ، وتحزبوا حزبين : حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وحزب مع الشيخ الأمير ، وهم الأكثر ، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع الأزهر .. فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوى » .

ثم يعود « الجبرتى » فيقول فى أحداث سنة ١٨٠٦ م : « وفى هذه الأيام كان بين مشايخ العلم منافسات ومناورات ومحاسدات .. وتعصبات ، بسبب مشيخة الأزهر ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا ، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجينى عمل وليمة ودعاهم اليها ، فلجتمعوا فى ذلك اليوم ، وتصالحوا فى الظاهر » .

ثم عاد « الجبرتى » ليقول عن هذه القيادة ما يؤكد انخراطها فى سلك طبقة الاقطاعيين : « وافتتنوا بالدنيا ، وهجروا مذاكرة

المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد أمراء المماليك ، واتخذوا الخدمة والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية ، والحصص ، والالتزام ، وحساب الميرى ، والفائض ، والمضاف ، والرماية والمرافعات والمراسلات .. زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية » .

ان هذا الحديث الذى ساقه « الجبرتى » وصفا لهذه القيادة ، قد جاء ، كما قدمنا ، من مؤرخ غير متهم بالتحيز ضدها ، كما أنه قد كتب قبل أن تسوء العلاقات بين هذه القيادة وبين النظام الجديد .. فلم يكن اذن محمد على هو الذى خلق الفرقة والتحزب والانقسام فى صفوف العلماء ، وان يكن قد استفاد فى معركته ضدهم من هذا الانقسام الذى أحدثته المصالح الطبقية الاقطاعية التى كان قد تعلق بأهدابها كثير من هؤلاء العلماء ، وعمل جهده كذلك لزيادة حدة هذا الانقسام .

وليست أحاديث « الجبرتى » وحدها هى كل ما يمكن تقديمه فى هذا المقام للتدليل على اقطاعية هذه القيادة .. بل ان المواقف

العملية لها من التحولات البرجوازية التى أخـذت طريقها الى المجتمع المصرى ، قد قدمت أكثر من دليل على هذا التقويم ..

فلم يبدأ الخلاف بين هذه القيادة وبين محمد على ، فقط ، لأنها « شعبية » وهو « مستبد » .. وانما كان اعفاؤه أرضها من الضرائب ، واستمرارها فى جمع هـذه الضرائب من الفلاحين لحسابها الخاص ، وتركها تمـرح فى نظارات الأوقاف ، عربون مهادنتها ، بل وتأييدها لحكمة الجديد والوليد .. ويشهد لذلك أن الخلافات بينهما انما ثارت عقب فرض الضرائب على أطيانهم فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٠٧ م .. وبالتحديد ..

- عندما وقفت هذه القيادة الى جانب الملتزمين فى نزاعهم مع الحـكومة ، يوم أرادت اقتطـاع ثلث « الفائض » الذى يحصلون عليه من الفلاحين سنة ١٨٠٥ م .
- وعندما وقفت هذه القيادة الى جانب بعض كبار تجار رشيد فى تذمرهم ضد الحكومة لفرضـها عليهم ضرائب قيمتها ٤٠٫٠٠٠ ريال فى سنة ١٨٠٥ م .
- وعنـدما وقفت هـذه القيـادة الى جانب « الملتزمين » فى معارضتهم تغطية القرض الذى طلبته منهم الحكومة فى مايو سنة ١٨٠٦ م .

- وعندما أرادت هذه القيادة أن يعفو محمد على عن المماليك ويعطيهم الأمان ويقطعهم بعض النواحى يستغلونها ويستقرون فيها ، بعد أن طلب « الألفى بك » ذلك من السيد عمر مكرم .

- وعندما وقفت هذه القيادة فى سنة ١٨٠٩ م ضد اقدام الحكومة على فرض ضريبة الميرى على أرض الأوقاف .. والغاء الوقف الذى لا تقدم « حجته » .. وفرض الضرائب على أراضى « الوسية » ، وأخذ نصف الفائض الذى يحصل عليه الملتزمون من كدح الفلاح .

- وعندما اجتمع هؤلاء العلماء « وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد ، وترك المنافرة » « كما قال الجبرتى » فى سنة ١٨٠٩ م ، رغم ما بينهم من خلافات وتنافر وتحاسد ، ليعلنوا التمرد على محمد على وسلطته الجديدة ، وليضعوا لاجتماعهم هذا « جدول أعمال » ، كانت مطالبهم تتسم بالرجعية ، وتعبر عن انخراطهم فى موكب الاقطاع الذى توجه اليه الضربات .. وكان جدول الأعمال هذا يطلب من محمد على :

١ ـــ الغاء الضريبة على أراضى الأوقاف التى هم نظارها ..

٢ ـــ الغاء الضريبة على أرض « الوسية » .

٣ ـــ الغاء مقاسمة « الملتزمين » فى « فائضهم » .

٤ـــ الغاء ضريبة « التمغة » على المنسوجات والمصوغات والأوانى ..

٥ ـــ طلب الافراج عن أحـــد طلبة الأزهـــر الذى اعتقل بالقلعة ؟؟!!

وهذه القيادة التى اجتمعت على هذه المطالب ، التى كانت يومها مطالب أعداء النمو الجديد للمجتمع الجديد .. والتى قاد اجتماعاتها هـــذه وتحـــركاتها ، وما قامت به من تصرفات نقيب الأشراف السيد عمر مكرم ، هذه القيادة هى التى عادت فاختلفت بعد أن اتفقت ، وتآمر بعضها ضد البعض الآخر ، وقادتها مصالحها الأنانية ، بعضها ضد البعض ، أكثر من قيادتها لها ضد محمد على وجهاز حكمه ، فاستطاع محمد على فى حربه ضدها أن يستفيد من هذه الخلافات والانقسامات ، القديمة الجديدة ، فى صفوفها .. ولعب المشايخ « المهدى » و « الدواخلى » ، و « الشرقاوى » دورا كبيرا ضد السيد عمر مكرم ..

وفى صبيحة اليوم الذى نفى فيه السيد عمر مكرم الى دمياط ذهب الشيخ محمد المهدى الى محمد على باشا ليتقاضى ثمن الدور الذى لعبه ، والنشاط الذى قام به ضد نقيب الأشراف ، وكانت أجرته :

- النظارة على أوقاف الامام الشافعى ..
- النظارة على وقف « سنان باشا » ببولاق ..
- قبض متأخر راتبه من الغــلال لمدة أربع ســنوات مضت ، فأخذها نقدا ، (ومقدارها خمس وعشرون كيسا) [1] .

وهكذا نجد الحقائق والوقائع تضع هذه القيادة فى مكانها الصحيح ، وكما قيل : « ان الزعامة الشعبية هى التى هدمت سلطتها بيدها » [2] .. فاننا نقول : ان هــذه القيادة الاقطاعية المستنيرة ، قد تحطمت عــلى صخرة التطور الجديد للمجتمع ، والتحولات البرجوازية التى لم تكن تتفق مع مصالحها ، ولا مع الطبقة التى تتبنى مصــالحها .. وانه عنــدما أصبح للقــوى الاجتماعية الجديدة تمايزها الواضح فى مجتمعها الجديد ، تخطت هذه القوى الاجتماعية مواقع هؤلاء « العلماء » ..

وانه بمقدار البطولة والشجاعة والاقدام الذى قادت به هذه القيادة الشعب ضد الحملة الفرنسية حتى حققت النصر عــلى جيشها المستبد ، فانها لم تسر فى الحرب ضد الأتراك والمماليك

(١) قيمة الكيس خمسة جنيهات .

(٢) عبد الرحمن الرافعى (عصر محمد على) ص ٨٠ .

(وهما سلطتان اقطاعيتان) أبعد من الوضع الذى لا يعرض النظام الاقطاعى للانهيار ، فهم لم يطلبوا الاستقلال عن تركيا استقلالا تاما وناجزا ، كما فعلت ذلك القوى الاجتماعية الجديدة ، وهم لم يعملوا لاجتثاث جذور المماليك من المجتمع كطبقة اقطاعية مستغلة ، وهو ما فعله المجتمع المصرى فى مرحلته الجديدة .. — وانما وقفت هذه القيادة من هاتين القوتين الاقطاعيتين موقفا وسطا ، هو موقف « المعارضة » لا موقف « العداء » .. وهى قد « عارضت » لأنها ، رغم اقطاعيتها ، الا أنها « وطنية قومية » بعكس الأتراك والمماليك .. ولأنها « مستنيرة » لا تذهب فى العداء للمصالح الشعبية مذهب « الأتراك » و « المماليك » ..

فماذا كان باستطاعة المجتمع الجديد ، والقوى الاجتماعية الجديدة ، أن تصنع بعد أن أسقطت هذه القيادة الفكرية من مركز التوجيه والتأثير ؟؟..

اننا لا نغالى اذا قلنا ان هذه التجربة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، قد خلقت وأثمرت بناءا فكريا كاملا أو منسجما ومتمشيا مع القاعدة المادية الجديدة .

وكان باستطاعة محمد على أن يبدأ من نقطة بدء جاهزة ،

وذات أهمية وامكانيات ، وهى الجامع الأزهر ، ولو حوله الى جامعة علمية مدنية حديثة ، واحتفظ بأحد أقسامها ميدان تخصص لدراسة أصول الدين الاسلامى ، والأديان المقارنة ، وبقسم آخر للدراسات العربية واللغوية ، لو فعل محمد على ذلك ، لكانت لنا اليوم حركة ثقافية حديثة أكثر مما لنا ، وتراث علمى حديث أكثر مما عندنا ، ولسبقنا فى انشاء الجامعات العلمية الحديثة معظم بلاد العالم ذات الجامعات الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ ..

وأيضا لو حـدث ذلك لاختصرنا أكثر من قرن ونصف من التخلف الذى فرضته الرجعية على معهد « الأزهر الشريف » .. ولما احتجنا فى النصف الثانى من القرن العشرين الى هذا الانقلاب الشامل فى دراسات الأزهر وتنظيمه ، ودراسات المعاهد الدينية التابعة له ..

وأيضا لو حدث ذلك ، لأعطت نقطة البدء هذه ، قوة عارمة للحركة الفكرية والثقافية التى شهدتها مصر فى عهـد التحولات البرجوازية الأولى .

ولكن ذلك لم يحدث .. لأن هذه القوى التى أسقطت سلطتها من على كراسى الحكم ، وحيل بينها وبين السلطة الزمنية ، وأزيحت من ميدان القيادة السياسية والفكرية ، بذبول سلطان الاقطاع..

قد سحبت فلولها الى حصن الأزهر و « صحنه » ، وعسكرت بأروقته وحلقاته ، واحتمت ببقايا نفوذها ، وبما لها من هيبة وسلطان فى نفوس الجماهير ، وتأثير على عقول كثير من الناس .

وفكر محمد على ، وقدر .. ثم قرر العدول عن الهجوم عليها داخل حصنها العتيد . .لأنه لم يجد ذلك فى استطاعته ، ولا قدرة لديه على ما ينتج عنه من مخاطر وآثار ..

ولكنه قرر أن يسحب من تحت أقدامها بعض الأرض التى تقف عليها ، وأن يحرمها بعض « الكوادر » التى تعدها لحياة التخلف ، وتشحن عقليتها بفكر يمجد الاقطاع ..

فبدأت حركة واسعة لانشاء المدارس المتوسطة والعليا ، واختير للتلمذة فيها نجباء طلبة الأزهر ؛ والأذكياء من خريجيه ، وشرعت الدولة ترسل البعثات العلمية الى الخارج ، واختير هؤلاء المبعوثون الأوائل ، والرواد الجدد للثقافة الجديدة من خريجى الأزهر ونجباء طلابه .

وان نقطة الانطلاق هذه فى البناء الثقافى والفكرى لتستحق التأمل والتقويم ، فهؤلاء « الكوادر » الجدد ، فى الثقافة ، والزراعة ، والصناعة والعلوم ، قد حملوا معهم من الأزهر الثقافة والحضارة والتراث العربى ، ومجد العروبة التى كانت مصر

منارته وقلعته منـذ أن أسست بها امبراطورية عربية يقـودها الفاطميون ..

وهم فى ذات الوقت قد اكتسبوا وأضافوا اليها ثقافة عصر النهضة الأوربية ، وفكر الثورة الصناعية ، وبالذات فكر الثورة البرجوازية ــ الديمقراطية بفرنسا ، والمجد الأول والنقى لشعارات (الحرية والاخاء ، والمساواة) .

ومن هذا المزيج الثقافى والحضارى ، كانت الثمرة التى تمثلت فى بنائنا الثقافى الجديد .. كان البناء الفوقى الفكرى للقاعدة المادية للتحولات البرجوازية فى بلادنا ، وهذا التزاوج بين فكر العروبة وثقافتها ، وفكر الثقافة البرجوازية الديمقراطية ، هو الذى نريد أن نبرزه كطابع لهذا البناء الفكرى ، المعبر عن شكل المجتمع الذى كانت تبنيه مصر فى ذلك الحين ومضمونه .

فالمدرسة الأولى التى قامت للهندسة بمصر سنة ١٨١٦ م ، بسبب الاحتياجات التى أخذت تفرضها الحياة الجديدة ، وبمناسبة اختراع أحد « أبناء البلد » (حسين شلبى عجوه) لآلة ضرب الأرز وتبييضه ، هذه المدرسة كانت حلقة من سلسلة طويلة من دور العلم والمدارس والمعاهد التى أخذت طريقها الى المدن والأحياء ..

فالى جانب الهندســة ، أقيمت المدارس العليا والمتوســطة للزراعة والتجارة ، والصناعة والصيدلة ، والطب ، والألسن ، وغيرها من مختلف فروع العلوم والفنون والآداب والصناعات ..

ولقد بلغ عـدد طلبة هــذه المدارس فى احــدى السنوات ٩٫٠٠٠ طالب ينالون العلم مجانا ، بل ويحصلون بالمجان كذلك على الغذاء ، والملبس ، والسكن .. وعلاوة على ذلك تعطى لهم بعض المرتبات !!!

واذا كان تعداد السكان فى مصر قد كان :

- فى سنة ١٨٠٠ م ٢٫٤٦٠٫٢٠٠ نسمة
- وفى سنة ١٨٢٠ م ٢٫٥٣٢٫٠٠٠ نسمة
- وفى سنة ١٨٢١ م ٢٫٥٣٦٫٤٠٠ نسمة
- وفى سنة ١٨٤٧ م ٤٫٤٧٦٫٤٤٠ نسمة

واذا كان رقم ٩٫٠٠٠ طالب يتلقون العلم فى المدارس ، يبدو رقما متواضعا بالنسبة لتعداد السكان (طبعا بمقاييسنا اليوم .. فلم يكن متواضعا بمقاييس تلك الأيام) .. الا أننا يجب الا نأخذ هذا الرقم كرقم كلى واجمالى لعدد الطلاب فى مصر فى ذلك الحين ، فلقد كانت تعتبر « الكتاتيب » .. و « الأزهر » و «معاهده »

مراحل أولية ، ينتقل طلابها الأذكياء والنبهاء الى هذه المدارس المتوسطة والعالية ..

فسواء فى تعداد الطلبة ، أو الخدمات المكفولة لهم ، أو فى نوع المدارس التى أنشئت ، وماهية برامجها ، وما خلف انشائها من أهداف .. نجد هذا الوزن الكبير لهذا اللون الجديد من ألوان الثقافة ، والذى كان يمثل حجر الزاوية فى البنـــاء الفـــوقى ، الفكرى ، الجديد ..

وهذه البعثات العلمية التى قدمت نموذجا يجسد نوعية الثقافة التى بناها شعبنا فى ذلك التاريخ ، هذه البعثات توالى ارسالها الى الخارج منذ سنة ١٨١٣ م ، وكانت ايطاليا وفرنسا وانجلترا ، أهم الممالك التى ذهبت اليها .. ولقد بلغ عدد مبعوثيها ما بين سنة ١٨١٣ م و سنة ١٨٤٧ م ٣١٩ مبعوثا ، أنفقت عليها الدولة ٣٠٣٫٣٦٠ جنيه مصرى .

وهى البعثات التى أرسلت لتتعلم الكثير من الفنون والعلوم السلمية .. وأيضا الحربية .. والتى كان من أهمها [1] :

---

(١) راجع (عصر محمد على) للرافعى .

رقم	الغرض العلمى	رقم	الغرض العلمى	رقم	الغرض العلمى
١	الحقوق	١٢	الكيمياء	٢١	صناعة السفن
٢	الفنون الحربية	١٣	صناعة الآلات	٢٢	صناعة الجوخ
٣	العلوم السياسية		الجراحية	٢٣	صناعة الصباغة
٤	الملاحة	١٤	صناعة الساعات	٢٤	صناعة السيوف
٥	الهندسة الحربية	١٥	صناعة شمع العسل	٢٥	صناعة الأقمشة
٦	الطب والجراحة	١٦	صناعة النقش		الحريرية
٧	الزراعة		والدهان	٢٦	صناعة الجواهر
٨	التاريخ الطبيعى	١٧	صناعة المروجية	٢٧	التنجيد والفراشة
	والمعادن	١٨	صناعة الأحذية	٢٨	صناعة الصينى
٩	هندسة الرى	١٩	صناعة الشيلان		والفخار
١٠	الميكانيكا	٢٠	صناعة شمع	٢٩	صناعة السجاد
١١	الطباعة		الأختام		

ولم تكن العلاقة بين هذه البعثات العلمية ، أثناء دراستها فى الخارج وبين وطنها مجرد علاقة طلاب بوطن ينفق على تعليمهم ، ويتمنى لهم التوفيق والنجاح .. بل لقد ضرب محمد على نموذجا غريبا ، ومتقدما ، وأقام بينه وبين طلاب هذه البعثات صلات شخصية وأبوية « بالمعنى الشعبى » فكان يراسلهم ، ويتحدث اليهم فى مشاكلهم ويوجههم ، ويطلب اليهم أن يكونوا قدوة حسنة ، ونموذجا طيبا يحتذى به الناس .

وان اتساع الجيل الجديد من المفكرين والمثقفين العصريين ، والغنى والدسامة التى بلغتها الحركة الفكرية ، والتى عبر عنها ،

كنموذج طيب وتجسيد أمين ، عملاق فذ كرفاعة رافع الطهطاوى : لتقدم دليلا ملموسا لا على نجاح البعثات العلمية فقط ، وانما على متانة القاعدة المادية التى ارتفع عليها ذلك البناء .

ولقد كان ضروريا لحركة علمية وفكرية كهذه ، أن يكون لها جهازان لا غنى لها عنهما .. أحدهما المطبعة التى تغنى عن النسخ البطىء .. وثانيهما الصحيفة التى تسرع بنقل الخبرات والأفكار .

ولقد كان هذان الجهازان أيضا ضمن انجازات هذا البناء ..

واذا كانت الحروف العربية قد عرفت طريقها الى المطبعة ، بادىء ذى بدء ، فى مطبعة أقامها قديما أحد المستنيرين فى « استانبول » فانها لم تطبع سوى الكتاب المقدس ، وبعض الرسائل الدينية ذات التداول المحدود .

واذا كانت بداية القرن الثامن عشر قد شهدت قيام مطبعتين عربيتين فى ديرين من أديرة لبنان ، فان الحركة الثقافية العربية لم تشهد أى أثر لانتاج هاتين المطبعتين القابعتين فى حصون الكهنوت ..

والمطبعة العربية التى عرفت آثارها الطريق الى الانسان العربى ، والى الشارع ، والمدن ، والتجمعات ، كانت هى التى أحضرها « نابليون بونابرت » ، وأصدر بها منشوراته ، ونشرته

المسماه بـ « التنبيه » .. ولكن آثار هذه المطبعة كانت من النوع الذى يريد له المستعمر أن يسود ، وأن يلف بشباكه وحبـاله القلوب والعقول ..

أما سنة ١٨٢٠ م ، فانها السنة الجديرة بأن تتخذ تاريخا لبدء حركة الطباعة العربية ، لأنها السنة التى أقام فيها البناء الجديد فى مصر ، مطبعته الأميرية ، بعد أن أوفد الى أوروبا بعثة علمية لتعلم هذا الفن واتقانه ، حتى لا يكون انشاؤها سحابة صيف ، وحتى تستطيع القيام بعبء النظام الجديد .

وبعد هذه المطبعة ، عرفت المطابع طريقها الى مختلف البلاد العربية .. بل وفى ظل السلطة الواحدة التى حكمت الشام ومصر ، تحت قيادة محمد علی ، أنشأت « البعثة الأمريكية البرسباتيرية » سنة ١٨٣٤ م ببيروت مطبعتها التى طبعت ونشرت العديد من الآثار العربية ، والتى تتلمذ على منشوراتها عدد كبير من مفكرى المشرق العربى فى ذلك الحين .

والصحافة العربية التى تستحق شرف هذا الاسم ، انها لا يمكن أن تؤرخ بدايتها بنشرة « التنبيه » النابليونية .. وانما بجريدتنا العتيقة « الوقائع المصرية » ، التى صدرت فى البداية بالعربية والتركية ثم اختفت صفحاتها التركية بنمو « الكادر » الثقافى

الجديد ، الكادر القومى ، وذبول الحاشية التركية ، التى كانت تحيط بمحمد على .. والتى وان لم تكن تحلم بالتتريك ، الا أنها كانت تريد الاحتفاظ لنفسها بموقع قدم لا يسحبه من تحتها الرواد الذين قادوا عملية الاحياء القومى على انقاض الاقطاع ، والمماليك والأتراك ..

وكما كانت المطبعة ميدانا تشيد به وفيه آثار الحياة الجديدة فى مصر .. فلقد كانت « الوقائع المصرية » مدرسة فكرية لعبت دورا كبيرا فى البعث اللغوى ، والبلورة الفكرية ، والبناء الثقافى ، سواء فى الشكل أو المضمون [1] .

٤

وكما كان « الجاحظ » (٧٧٥ — ٨٦٨ م) ، علامة عصره ، وتجسيدا لما أحرزته الامبراطورية العربية ، والحضارة العربية من تقدم وتطور فى ذلك التاريخ ..

كذلك كان رائدنا الثقافى العملاق « رفاعه رافع الطهطاوى »

---

(١) ومن هنا كان تاريخ قيام « الوقائع المصرية » ذا دلالة فى عملية التاريخ لنشأة الصحافة المصرية ، على عكس وجهة النظر التى تسقط هذا الجهد الصحفى الكبير من الحسبان بصدد هذا التاريخ .

(١٨٠١ ـــ ١٨٧٣ م) ، أصدق تعبير ، وأبرز تجسيد لذلك البناء الفكرى والثقافى ، المعبر بأمانة ودقة عن البناء المادى الذى شهدته بلادنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ..

فهذا الشيخ المعمم ، الذى اختير ليسافر الى فرنسا سنة ١٨٢٦ م ، « اماما » يؤم البعثة المصرية فى الصلاة ، ويلقى بالمواعظ الحسنة الى طلابها وأعضائها ، والذى عاد من فرنسا سنة ١٨٣١ م ..

هذا الشيخ المعمم قد خلد سجل الحركة الفكرية والثقافية اسمه ، أكثر مما خلد اسم أحد من أعضاء البعثة التى سافر معها ، بل أكثر مما خلد أسماء كل أعضاء البعثات العلمية مجتمعين ..

ويكفى أن نعلم ، أنه وهو الذى سافر لمهمة دينية ، قد أمضى سنواته الخمس فى فرنسا فى الدرس والمثابرة والتحصيل بل والانتاج ..

فشرع فى دراسة اللغة الفرنسية منذ اللحظة التى وطئت فيها قدمه أرض الباخرة التى أقلته وأفراد البعثة الى فرنسا ، ثم درس هناك التاريخ والجغرافيا ، والفلسفة ، والآداب ، والمسألة الدستورية ، دراسة عالم متخصص ، وأضاف الى معلوماته وفكره أشياء جديدة عن : المعادن والعسكرية ، والرياضيات ..

وعرف طريقه الى حلقات الدرس التى كان يعقدها جهابذة العلم والفكر فى فرنسا ، بل وثابر عليها ، وكانت هـذه الحلقات العلمية ، تمثل أرقى ما عرفته الانسـانية يومهـا من فكر وفن وتقدم ، واستشراف لأبعد الآفاق .

وهو فى جولاته العلمية هذه ، كان يدرك دائما أهمية المزج بين هذا التقدم الحضارى والفكرى الذى خاض غمـاره ، وبين التراث الذى تعلمه ، وحمله على كاهله وفى قلبه وعقله من الأزهر الى باريس . فهو الذى قرأ ودرس « ڤولتير » ، و « چان چاك رسو » و « راسين » و « منتسكيو » ، وغيرهم .. نراه عندما يتحدث عن « منتسكيو » يقول : « .. وقرأت أيضا على مسيو « شوالة » جزءين من كتاب يسمى (روح الشرائع) ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية ، يقال له « منتسكيو » ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقـليين .. ويلقب عنـدهم بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا « منتسكيو » الشرق أى منتسكيو الاسلام » .

وهو المفـكر العـربى الأول الذى أدخل الى اللغة العربية الدراسات الدستورية بمعناها الحديث ، كتشريع معبر عن الثورة

البرجوازية الديمقراطية ، لا تشريع للمجتمع الاقطاعى ، كالذى عرفه العرب قبل ذلك التاريخ .

ففى كتابه (تخليص الأبريز فى تلخيص باريز) ، والذى يعد بحق أحد الكنوز الفكرية الثمينة للانسان العربى فى القرن التاسع عشر .. والذى لخص فيه رحلته الغنية الى فرنسا .. فى هذا الكتاب ترجم رفاعه الطهطاوى الدستور الفرنسى ، وعلق على مواده تعليقات عبقرية ونابهة ، وذات دلالة لا تخفى علينا ، ولا على قراء ذلك الجيل [1] .

فيقول مثلا : « .. ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك ، بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) وأن ديوان « البير » (مجلس الشيوخ) يمانع عن الملك ، وديوان « رسل العمالات » (مجلس النواب) يحامى عن الرعية » .

ثم تراه يعلق على المادة الأولى من الدستور فيقول : « .. قوله

---

(١) يتحدث عبد الرحمن الكواكبى فى مقدمة كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) عن الطهطاوى كواحد من القلائل الذين كتبوا حديثا فى فن السياسة ، كفن متميز عن غيره من العلوم والفنـــون .

فى المادة الأولى ان سائر الفرنسيين متساوون أمام الشريعة ، معناه : سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر الى هذه المادة ، فان لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم ، نظرا الى اجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصـــول العدل عندهم الى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية » .

وتعليقا على المادة الثانية الخاصة بحرية الرأى ، يكتب رفاعه الطهطاوى : « .. انها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه ، وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الناس سائر ما فى نفس صاحبه » .

ان هذا الجهد الذى بذله رفاعه الطهطاوى فى هذا المجال ، لا يمكن أن يكون مجرد ترجمة ، ولا مجرد تعليقات ذكية وعبقرية متقدمة .. ولكنه أمر أهم من ذلك وأخطر اذا أدركنا المجتمع الذى كان يبنى فى مصر فى ذلك الحين ، والقيم والتقـاليد ، بل الثورة الفكرية التى كان يمثلها مفكر كرفاعه الطهطاوى ،

والقواعد التى كان يريد ارساءها فى هذه البيئة الجديدة ليقوم عليها هذا البناء الجديد ..

ولعل هذا القصد ، وذلك الغرض ، هو الذى دعاه الى أن يصف فى كتابه هذا ثورة الشعب الفرنسى التى شهدها وعاشها فى باريس سنة ١٨٣٠ م ، وأن يتحدث باعجاب عن قواتها وقوادها .. ويصف أعلامها وبيارق الحرية التى ارتفعت على أحياء باريس باسمها .. فيقول فى سياق حديثه عن « لافاييت » أحد قادة هذه الثورة : « .. وفى اليوم التاسع والعشرين ، فى الصباح ، ملك « أهل البلد » ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى أيديهم قصر « طويلرى » و « لوور » ، فملكوهما ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر «قائد الجند» المأمور بادخال أهل باريس فى طاعة السلطان « الملك شارل العاشر » رجع ، فكان هذا اتمام نصرة « أهل البلد » حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى ، وديوان مؤقت ، لتنظيم البلاد ، حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس الحكم المؤقت سرعسكر « قائد الجند » المسمى «لاڤيتيه» ، وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا « الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م » وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويدافع عنها ، ويعظم مثل الملوك ، بسبب اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى (البوليتيقة) » .

انه ليس حديث مفكر يحكى أحداث ثورة شعب ، وانما هو خلق وابداع لعاشق للثورة والحرية ، موقد لمصباحها بين ربوع وادى النيل .

وغير (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) ، قدم الطهطاوى كثيرا من الأعمال الفكرية الهامة ، تعريبا ، وتأليفا ، .. فعرب نحوا من ١٢ رسالة ، كما عرب نشيد « المارسليز » .. ونقل الى العربية القسط الأكبر من القانون الفرنسى .. وألف كتابه الهام جـدا (المرشد الأمين للبنات والبنين) .

واذا كان لنا أن نتخذ من بعض ما ورد فى كتابه هذا ، (المرشد الأمين) ، دليلا على عبقريته ، وتجسيدا للروح الجديدة التى كان يمثلها ، والمنسجمة تماما مع قيم البرجوازية والمجتمع البرجوازى ، والمعادية تماما لقيم الاقطاع وفكره ، فاننا نجد فى حديثه عن تعليم المرأة وعملها ، ما يقدم لنا هذا الروح الجديدة .. فلنقرأ له هذه السطور : « .. ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب، ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش ،

مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ، وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال ، أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، .. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل .. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال ، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء » .

فهو لا يدعو فقط الى تعليم المـرأة ، بل والى « التعليم المشترك » ، ويربط بين ذلك وبين النجاح فى الزواج .. وهو يقدس عمـل المرأة ، ويراه شرفا وتطهـيرا من أمراض البطالة والفراغ ..

وهو بذلك انما يخط بعبقريته قيم مجتمع جديد ، قد خلف وراءه قيم الاقطاع .

وان الآثار الفكرية التى خلفها الطهطاوى ، رغم ضخامتها . الا أنها لم تكن كل شىء خلف هذا العملاق .. ففى « الوقائع المصرية » أضـاء فكره ، وأنشأ مدرسة حديثة ، عندما رأس تحريرها ، ودفع بها شكلا ومضمونا ، الى الأمام .

وفى مدرسة الألسن ، التى أنشأها ورعاها سنة ١٨٣٦ ، فتح نوافذ الفكر العربى على كل التيارات الفكرية العالمية ، ولقد كان الطهطاوى يحس بأهمية ذلك التبادل الثقافى ، والاختلاط الحضارى ، وأثره الكبير فى تطور الانسان ، وهو الذى يقول : « .. لو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن الا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية ، بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة لكفاه ذلك ، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد » .

بل ان كتابه (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) لم يكن مجرد كتاب مقصور على القلة والنخبة الخاصة .. فبعد طبعه ، قدمت طبعته الأولى الى محمد على باشا ، « فسر لها سرورا كبيرا ، وأمر بقراءتها فى قصوره ، وتوزيعها على الدواوين ، والوجوه ، والأعيان ، وقراءتها فى المدارس المصرية » [1] .

فلقد كان هذا الكتاب التعبير الأمين عن التجربة التى كانت تعيشها البلاد ، والصياغة الدقيقة لآمال مصر فى ذلك الحين .

ومن هنا كان رفاعه الطهطاوى كما قدمنا ، أصدق معبر ، وأبرز مجسد لما شهدت بلادنا من تحولات وتغيرات .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى (عصر محمد على) ص ٥٤١ .

وكما صعد نجم مفكرنا العملاق مع البناء الذى كان يرتفع فى مصر فى ذلك الحين ، فلقد حورب واضطهد كذلك عندما أصاب الاستعمار والرجعية هذا البناء بالسهام والطعنات ..

وعندما سيطرت الرجعية الاقطاعية ، وعاد ظلام الجهل يخيم على البلاد فى عصر الردة التى حكم تحت أعلامها «عباس الأول» ، وأغلقت المدارس ، واوقفت البعثات .. نفى رفاعه الطهطاوى ، وخيرة العلمـاء والمفكرين الى السـودان ليعمل ناظرا لمدرسة ابتدائية !!.. ويعملون مدرسين فى هذه المدرسة الابتدائية !!! وكان ذلك سنة ١٨٥١ م .

وفى الخـرطوم ، غالب الطهطـاوى مرارة النفى وآلامه ، واستطاع أن يقهر عوامل الخمول والذبول ، فترجم هناك كتاب « تلماك » (مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك) .. وبهذا استطاع أن يحافظ ــ رغم قسوة الظروف ــ على شعلته مضيئة متقدة ، وأن يصل حياته بتيار التقدم ، حتى عاد الى مصر ، وعادت اليها الحياة العلمية مرة أخرى ، وعاد هو ربانها وقائدها من جديد .. حتى وافته المنية سنة ١٨٧٣ م .

وما على الذين يريدون التأكد من الحقيقة التى قدمناها ، والتى تقول ان الطهطاوى كان صياغة فكرية جديدة لمجتمع جديد ،

وانه مفكر البرجوازية التى استهدفت أن تبنى فى ظروف خاصة ، وبطريقة خاصــة ، مجتمعها وقيمها فى مصر فى ذلك الوقت ..
ما عليهم الا أن يقارنوا مقارنة ولو بسيطة بين « الطهطاوى » و « الجبرتى » .. سواء فى الأسلوب أو المضمون .. سواء فى القضايا التى عالجها كل منهما ، أو فى الآفاق التى استشرفها ..
وأن يتذكروا موقف « الجبرتى » أمام المختبرات العلمية فى مقر البعثة العلمية الفرنسية ، واعتقاده أن هذه التغيرات الكيميائية البسيطة التى يراها سحر من عمل الشيطان ، .. وان « العربة الكارو » انما تمثل معجزة « الناس الفرنساوية » .. وبين الطهطاوى الذى قدمنا بعض جوانب فكره ، والذى يقول : « ليكن الوطن محلا للسعادة المشتركة فيما بيننا ، نبنيه بالحـرية ، والفكر ، والمصنع » .. فسيعلمون أنهما مفكران عملاقان ، ولكن لكل واحد منهما من الخصائص والسمات ما يؤكد تمثيل كل منهما لعصر ، ونظام اجتماعى ، وبنـاء فكرى يختلف عما يمثله الآخـر تمام الاختلاف .

٥

ولكن .. ترى لماذا سقنا كل هذا الحديث ؟؟.. وعقدنا هذه الأبواب الأربعة ، التى بدأت مع بدء هذا الكتاب ؟؟ ..

ان هذا الحديث عن أولى الثورات البرجوازية العربية ، عن تجربة البرجوازية المصرية فى اقامة مجتمعها ، وبناء حضارتها ، هو حديث ممتع وشيق ، وضرورى فى نفس الوقت ، .. غير أن كتابنا هذا انما هو مكرس للحديث عن القومية العربية ، فما مكان هذا الحديث الذى سقناه عن البرجوازية المصرية ، ومجتمعها الذى آقامته ، من حديث العرب والعروبة الذى عقدنا له هذا الكتاب ؟؟..

لقد سبق أن قلنا ان القرن التاسع عشر قد عرف ألوانا من مقاومة الاحتلال العثمانى ، وشهد ثورات عربية ، قامت فى الولايات العربية التى احتلها الأتراك ، ذات مضمون جديد وشكل جديد .. وذات أهداف جديدة أيضا .

وان هذه الثورات والانتفاضات العربية على السلطان العثمانى ، انما كانت لونا جديدا غير ألوان المقاومة التى قادتها قوى اقطاعية ، سواء فى مصر ، أو السودان ، أو الحجاز ، أو العراق أو لبنان ..

وان العصر الاقطاعى العربى الذى شهد بلورة السمات العامة والخصائص والقسمات التى جمعت الجماعة العربية الواحدة فى قومية واحدة ، قد أخذ مع بداية القرن التاسع عشر يسلم زمام الحركة ، وقيادة الأحداث فى قلب المجتمع العربى للقوى

البرجوازية ، لتخوض المعركة ، ولتواصل النضال من أجل اغناء سمات القومية العربية ، واضافة سمات جديدة اليها تناضل لكسبها وامتلاكها ، وهى ظاهرة « الأمة العربية » ، كما ناضلت قديما ، وخلال العصر الاقطاعى ، حتى كسبت وامتلكت ظاهرة « القومية العربية » .

ولقد قلنا كذلك ان مصر ، كانت فى طليعة أجزاء الوطن العربى التى شـــهدت قيام برجـــوازية قومية نشطة ، وشـــهدت ثورة البرجوازية ضد الاقطاع ، وتمردها ضد الأتراك ، وبناءها لأول مجتمع عربى ذى طابع برجوازى ، كان قيامه هو بدء تاريخ سعى الجماعة العربية لامتلاك ظاهرة « الأمة العربية » .. وبدء العصر الذى أخذت فيه « حركة القومية العربية » تجاهد وتتقدم لتصبح « حركة للأمة العربية » .. وأيضا بدء عصرنا الحديث ..

لأن الكفاح البرجوازى ، قد أعطى لحركة العروبة ، وللتعريب مضمونا جديدا وشكلا جديدا .

* * *

ولكن .. أهذا كل ما دعانا لأن نقدم هذا الحديث المفصل لاثبات أن ما قام بمصر فى النصف الأول من القرن الماضى ، حركة برجوازية ومجتمع برجوازى وتحولات برجوازية ؟؟..

الحق أن هذا لم يكن كل ما خلف حديثنا هذا من أهداف ..
وانما كان ذلك نصف الحقيقة فقط .. أما النصف الآخر ، فهو أننا
نرى أن لهذه الثورة البرجوازية المصرية التى تحدثنا عنها ، وللبناء
البرجوازى الذى تحدثنا عنه ، قسمة عربية ، ووجها عربيا كذلك ..

وانتا لم تتحدث حتى الآن عن هذا الجانب من جوانب هذه
الحركة البرجوازية .. لأننا سنفرد له أبوابا ستلى هذه السطور ..

فنحن نرى أن القـوى الاجتماعية التى بنت المجتمع الذى
تحدثنا عنه .. لم تكن تفكر تفكيرا مصريا فقط ، وانما فكرت
أيضا تفكيرا عربيا ..

وأنها لم تكن تنظـر فقط فى حدود مصر ، وداخل أبعادها
الجغرافية .. وانما كانت تنظر عبر العالم العربى ، وتمد أبصارها
وآمالها الى كل الجماعة الناطقة بلغة الضاد ..

وحول الأحداث التى نرى فيها عروبة الثورة البرجوازية
المصرية فى مطلع القرن التاسع عشر ونصفه الأول .. وحول تقويم
هذه الأحداث من جانب كل القوى المعاصرة لها .. والحديثة ..
وتقويمنا نحن لها ، سيكون لنا حديث فيما سيلى من صفحات ..

الباب الخامس

القسمة العربية لحركة البرجوازية المصرية

١

هل كان غريبا أن يكون لحركة البرجوازية المصرية ، التى تحدثنا عنها طابع عربى ؟؟

وأن تكون القسمة العربية احدى القسمات التى اشتملت عليها هذه الثورة ؟؟..

وأن تكون العروبة احدى خصائصها التى تركت بصماتها وآثارها على عديد من المعارك والتطورات والأحداث ؟؟..

اننا نعتقد أن ذلك لم يكن غريبا .. بل لقد كانت هذه هى طبيعة الأمور ، والمجرى الطبيعى لحركة الأحداث ..

فمنذ أن تمت حركة التعريب للامبراطورية العربية الكبيرة ، وتكونت الجماعة الواحدة على هذه الرقعة العربية ، وجمعت هذه الجماعة الواحدة ، خصائص وسمات واحدة ، هى خصائص

القومية العربية التى اكتملت فى العصر الاقطاعى العربى .. منـذ ذلك الوقت ومصر تلعب دورا متزايد التأثير والفعالية ، وقياديا ، ان لم يكن دور القائد الحقيقى فى العالم العربى بأجمعه .. وخاصة منـذ قيام الدولة الفاطمية .. فلقد كانت تمتلك من المقـومات الاقتصادية والبشرية والحضارية والثقافية ، مالم يتوافر لغيرها من الأمارات والولايات ..

وعندما أطل الخطر الصليبى ، ثم المغولى ، على العالم العربى ، وتصدت مصر لدحره ، وبلغت من ذلك ما تريد ويريد العـرب أجمعون ، عقد الزمان لواء القيادة لمصر ، وأصبحت القـاهرة أكثر القلوب العربية نبضا بالمشاعر المشتركة ، والسمات العامة ، وأكثر الضمائر العربية احساسا بكل ما هو قومى وعام . وغدت القاهرة أكثر من عاصـمة اقليم .. ورأيناها فى سجل التكوين النفسى المشـترك للعرب (ألف ليلة وليلة) تقـدم عـلى أنها « أم العالم » ..

وعندما جاءت ظروف النكسة التي أصابت العالم العربى ما بين عامى ١٣٠٠ م و ١٨٠٥ م [١] كانت مصر أكثر الأماكن التى وجه

(١) وهى النكسة القومية التى أصابت العالم العربى وقـواه الاجتمـاعية غير الاقطاعية ، نتيجة للحروب الصليبية ، وحكم المماليك ، واحتلال الأتراك ، والآثار التى ترتبت على ذلك فى اعاقة التطور القومى للجماعة العربية .

لها العدو ضرباته ، ولكنها ، لامكانياتها الكبيرة والغنية ، كانت أكثر الأماكن تحملا للطعنات ومقاومة للسهام .. وظلت ، حتى خلال عصر النكسة ، أكثر القلوب نبضا ، وأكثر الضمائر العربية رهافة واحساسا ، وأكثر الأقاليم غنى بامكانيات التقدم ، وتخطى مرحلة النكسة القومية ، وأحفلها بالقوى الاجتماعية الجديدة التى تنمو فى أحشاء المجتمع الاقطاعى ، والتى تنتظر الفرصة المناسبة ، لتنفض هذا الليل عن كاهلها ، وتعاود المسيرة العربية من جديد .

وعندما أتيحت لها هذه الفرصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فنفضت عن كاهلها عبء الأتراك والمماليك ، وتخففت من آثار الاقطاع ، وأطلقت العنان بعض الشيء للقوى الجديدة ، لتبنى تجربتها البرجوازية الجديدة ، عندما فعلت مصر ذلك ، لم تخطىء قدماها الطريق العربى .. ولم تتحرك بعيدا عن الدائرة العربية .. لأنها كانت مشدودة الى هذا الطريق ، وتلك الدائرة ، بعوامل التاريخ والحضارة والمصير .. بالعوامل والسمات والخصائص القومية العربية ، التى كانت مصر قلبها النابض ، وقاعدتها الأولى ، فى المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج .

وعلى هذه الأرض العربية .. ومن نقطة البدء هذه .. لا نجد غضاضة ، بل ولا غرابة فى أن نقول : ان للحركة البرجوازية

المصرية ، وثورتها ، أبعادا عربية ، ووجها عربيا ، وطابعا عربيا ، ليس الى نكرانه من سبيل .

ونحن لا نريد أن نغالى فنزعم أن سنة ١٨٠٥ م التى شهدت بداية التغيرات السياسية ثم الاجتماعية فى مصر ، قد شهدت عودة التيار العربى فيها الى الجريان ، وأن الوجه العربى لهذه الحركة قد ظهر منذ ذلك التاريخ ، ولا أن نقول ان هذه العروبة كانت فى « مصر القيـادة » كما هى فى « مصر الشعب والحضـارة والتراث » ..

وذلك لأن الرجل الذى قاد هذه التجربة ، وتم على عينه صنع هذا البناء ، وهو محمد على ، كانت لديه أفكار تركية ، وأحلام عن بناء امبراطورية تركية ، وكانت له حاشية تركية ، تفكر وتحلم وتتمنى ، فى محيط من « التتريك » ، كما تفكر وتحلم بامبراطورية تريد أن تبنيها تحت أى شعار .

ولأن التيـار العربى ، والطابع العربى ، والوجه العربى ، انما عرف طريقه وأخذ مكانه ، شيئا فشيئا مع نمو « الكادر » المحلى الذى تربى فى المدارس الحـديثة والبعثـات العلمية ، والمصانع ، والمزارع ، والجيش الوطنى ، وجهاز الدولة الجديد ..

وأن هــذا التيار البرجوازى الوطنى قد كسب الى صفه قائدا كبيرا ، دعــاه الغــرب وباحثــوه « نابليــون مصر » ، هــو « ابراهيم باشا » ابن محمد على ، وأيضا عددا كبيرا من أصدقائه ومريديه من الذين أتوا معه الى مصر صغارا أو شبانا يافعين ، فانصهروا بمصر ، وتربوا فيها ، وكانوا ثمرة لحضارتها وثقافتها ، ولم تصبهم نزعة التتريك والتركية بما أصابت به محمد على وبعض رجاله وأصدقائه ومريديه .

ان هــذه الحقيقة تؤكد وجود هذين النمطين من القــادة والمفكرين خلال تطور الأحداث وسيرها [1] .

أما الحقيقة الثــانية التى نريد أن نقدمها بين يدى هــذا الحديث ، فهى أن الأفكار العربية لدى هذا التيار العربى انما

---

(١) ونحن نريد أن ننبه الى حقيقة نرى التنبيه عليها ضروريا هنا ، وهى أن ابراهيم باشا وحاشيته وان يكونوا قد تحدثوا عن العروبة والعرب ، وان يكن كثير من المؤرخين قد سجلوا تمايزه عن أبيه وحاشيته فى هذا الصدد ، الا أننا لا نقطع بايمانه بالفكرة العربية ، وانخراطه فى سلك دعاتها كواحد من الذين أثمرتهم الحضارة العربية المصرية وجرت فى دمائهم حرارتها وتياراتها . . وانما الذى نقطع به هو أنه لم يكن داعية « تركية » و « تتريك » ، وانه قد « التقى » مع التيار الوطنى الجديد حول شعارات العــروبة فى ذلك الحين .

نضجت من خلال عدد من المعارك والأحداث ، وأن من أهم هذه المعارك معركتى « الحجاز » بين مصر والوهابيين .. ومعركة فتح « السودان » .

* * *

ففى السنوات التى مرت ما بين عامى ١٨١١ و ١٨١٦ م عاشت مصر فترة من الاهتمام بالعرب والعروبة ، خلال الحرب التى كان يخوضها جيشها فى الحجاز ضد الوهابيين ..

ولم تكن هذه الحرب عملا تقدميا ، ولا كانت بالحرب العادلة من جانب مصر ، لأن الحركة الوهابية ، رغم رجعيتها ، ورغم تعصبها الا أنها كانت احدى حركات الاصلاح الدينى المعادية لاحتلال الأتراك للحجاز ، وهى من هذه الزاوية كانت عملا متقدما ، وجه اليه محمد على أقسى الضربات .

ولكن هذا ليس موضوع الحديث .. فالذى نريد أن نقوله هنا ، هو أن الحرب ضد الوهابيين قد جعلت « المسألة العربية » تحتل مكانا متزايد الأهمية فى أذهان النظام الجديد بالقاهرة .

وأن اشتراك عدد من القادة والموجهين المصريين فى هذه الحرب ، ثم انتصارهم على الوهابيين وحكمهم للحجاز ، وتمبين

السلطان لابراهيم باشا حاكما عليه .. ان ذلك قد رفع من أسهم النظام الجديد فى مصر ، فى نظر العالم العربى والاسلامى ، وجعل رجالات النظام الجـديد يدركون أكثر فأكثر أهمية العروبة ، ويهتمون أكثر فأكثر بالدائرة العربية .

وذلك علاوة على أن الحـركة البرجوازية ، وعملية البعث البرجوازى التى كانت تفتح ذراعيها على ضفاف النيل ، ما كان لها الا أن تفكر خارج حدود مصر كاقليم .

ومن هنا كانت « الحرب الوهابية » بمثابة الخطوة الأولى للحركة البرجوازية المصرية نحو سياسة عربية .. وفكر عربى قائم على قاعدتين أساسيتين احداهما المصالح المادية . وثانيتهما : سمات القومية العربية التى كانت تجمع بين العرب أجمعين .

* * *

أما الخطوة الثانية فى هذا السبيل فكانت « فتح السودان » .. ففى السنوات ما بين عامى ١٨٢٠ ، ١٨٢٢ م ، تمكنت مصر من فتح السودان ، ولم تكن مناجم الذهب هى سبب فتح السودان ، وان كانت فى بال محمد على فى ذلك الحين ..

ولم تكن التجارة مع السودان هى السبب الأساسى ، وان تكن أحد الأسباب ..

ولم يكن تجييش جيش من أبناء السودان هو أهم أغراض الحملة ، وان كانت هذه الفكرة قد راودت أحلام محمد على باشا ، وحاول تنفيذها .

وانما السبب الأساسى الذى كان خلف هذه الحملة والفتوحات فى السودان كان متعلقا بمياه النيل .

فبعد أن فشلت الحملة الانجليزية ، حملة « فريزر » على مصر سنة ١٨٠٧ م أخذت انجلترا تبحث عن « مقتل » جديد تطعن فيه مصر ، وباب جديد تصل منه الى خنق الحركة الجديدة ، التى تبنى وطنا جديدا ونظاما جديدا ، لن يكون باستطاعة الاستعمار فيما بعد أن يوجه اليه قاتل الطعنات . ولن يستطيع بالتالى أن ينفذ فى ظل وجوده الأحلام والآمال التى راودته منـــذ حملات الصليبيين ..

وكان قلب افريقيا واحدا من هذه الأبواب التى تريد انجلترا الوصول الى مصر عن طريقه ، ومياه النيل هى ذلك المطعن الذى تريد أن توجه منه الينا السهام .

ومن هنا كان قلق محمد على .. وكان اهتمامه بازالة ما بين مصر والسودان من حدود ..

وفى كتاب (ضبط النيل والسودان الحديث) يقول مؤلفه

« سيدنى بيل » أحد النبلاء الانجليز [١] : « كانت العوامل التى حملت محمد على ، على أن يفتح السودان كثيرة ، ولكنه كان من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه ، فيرجح كثيرا أن الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى ، أحد أغراضه » .

وفى كتاب (السـودان بين يدى غوردون وكتشنر) يقول مؤلفه « ابراهيم باشا فوزى » : « قضى ساكن الجنان ، محمد على باشا ، فى الديار المصرية لباتتين من فتح السودان ، بل تخلص من ورطتين كبيرتين ، فقد علمت من شيخ ذى منصب ، معاصر لمحمد على باشا ، أن دولة أوربية كبيرة كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل ، فاهتم لهذا الخبر أكبر اهتمام واستشار كثيرا من المهندسين الأوربيين الذين جاء بهم من بلادهم الى القطر ، فأقروا بالاجماع : أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد مغبته ، حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة الى السودان » [٢] .

ولقد أحست مصر فى هذه الظروف ، بمكانها كقلب للعالم العربى ، .. يمد جناحا بالحجاز ، وآخر بالسودان .

---

(١) انظر (عصر محمد على) للرافعى .
(٢) المرجع السابق .

أى انه اذا كانت قيادة النظام الجديد فى مصر يومئذ ، قد ذهبت الى الحجاز ارضاء لطلب السلطان واستجابة لرغبته فى كسر شوكة الوهابيين .. وفتحت السودان لتجعل مفاتيح مياه النيل فى يد مصر .. فان هذين العملين قد أثمرت الأحداث التى أنجزتهما وصاحبت انجازهما لقاء مع الروح العربية المستكنة فى ضمير مصر وشعبها وحضارتها ، وخلقا الظروف الملائمة التى ساعدت على بروز القضايا العامة والمشتركة بين كل العرب ، وولادة الطابع القومى الذى لون الكثير من الأحداث التى أعقبت حملة الحجاز وفتح السودان . تلك الأحداث التى بدأت تطل على العالم العربى فى سنة ١٨٣١ م .

٢

فلم تكد تأتى سنة ١٨٣١ م ، حتى كانت القوى الجديدة فى مصر ، والتى وصلت الى السلطة سنة ١٨٠٥ م وانفردت بها سنة ١٨١١ ، بعد مذبحة القلعة ، قد اكتسبت مرانا ومراسا فى السياسة العربية ، ووصلت بعد « حرب الوهابيين » و « فتح السودان » الى قدرة كبيرة على الحركة فوق الدائرة العربية لم تتحصل لها قبل هذا التاريخ ..

وهذا التطور الذى حـدث لهذه القوى ، هو الذى أبرز خلافاتها مع السلطان التركى ونفوذ آل عثمان ، تلك الخلافات التى دعمتها عملية انسحاب الجيش المصرى من حرب اليونان دون اذن السلطان .

وعلى نفس الدرب قادت المصالح الجديدة ، هذه القـوى الاجتماعية المصرية الى صدام حتمى وحاد مع السلطان التركى ، واحتلال العثمانيين ، لا فى مصر فحسب ، بل وفى كل الولايات .

وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٣١ م تحرك الجيش المصرى لفتـح بلاد الشام ، وبناء امبراطورية كبرى ، وتحقيق دولة مدنية واحدة فى هذا الوقت المبكر من تاريخ حركات التوحيد [١] .

* * *

ولعله من المفيد هنا — بل ومن الضرورى — أن نتذكر أن ذلك العصر الذى تحرك فيه الجيش ليفتح بلاد المشرق العربى ، ويبنى الدولة المتحدة ، لم يشهد أساليب أخرى فى التوحيـد القومى ، أرقى من هذا الأسلوب ، ولا أكثر « ديمقراطية » من أسلوب الفتح ، بل والقهر فى معظم الأحايين .

---

(١) وهكذا تم اللقاء بين الأمانى الطبيعية للقـوى الاجتماعية المصرية فى التحرر والتوحيد ، وبين آمال محمـد على فى بنـاء امبراطورية كبرى يرث فيها نفوذ العثمانيين .

فالحرب التى دخلها وقادها وحضر لها وأشعلها « بسمارك » فى ألمانيا ، بين بروسـيا وباقى الامـارات والولايات والممالك والمقاطعات ، من أجل الوحدة الألمانية ، وبناء الأمة الألمانية ، وتطوير القومية والمشاعر القومية الى مستوى أرقى يتجسد فى الوحدة والاندماج .. هذه الحرب ، وما صحبها من آلام ، نموذج للأسلوب التوحيدى الذى عرفه القرن التاسع عشر ، والذى كان طبيعيا ومألوفا فى ذلك الحين ..

وتاريخ الفكر القومى للأمة الايطالية .. انه زاخر بحروب عديدة ، واصطدامات كثيرة ، ودماء وجراح وآلام ، خلفتها الحرب والمنازعات بين الممالك والأمارات والمقاطعات والجمهوريات التى كانت تتصارع من أجل أن يولد من هـذه الأجـزاء الكثيرة ، والأشلاء المتناثرة ، شىء جديد ، وكيان واحـد ، هو الأمـة الايطالية ..

ولم ينف أحد أن هذه الأساليب المتخلفة والعنيفة والدامية ، كانت جزءا من حركة التوحيد القومى ، ولم ينف أحد عنها طابع التقدم الذى مثلته فى حركة التاريخ .

بل حتى ذلك الدور الذى قام به نابليون فى ايطاليا ، وهو المستعمر الغازى ، الفاتح لبلد آخر غير بلده ، والذى أقام بسبب

فتوحاته هذه دولة كبيرة ، من ولايات ايطالية عدة ، ووحـد أجزاء كثيرة منها فى مملكة واحدة توج عليها أخاه .. حتى هـذا الدور الذى لعبه هذا الغازى ، قد عده المفكرون الطليان عملا قوميا كبيرا ، وقدموا نابليون بسببه كآحد الرواد الأوائل لحركة الأمة الايطالية ، وأحد بناة صرح التوحيد الايطالى فى التاريخ الحديث ..

ونحن فى تتبعنا لهذه المسيرة التى سارها الجيش المصرى فى المشرق العربى من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٤١ م وفى دراستنا لعمليات الفتح والبنـاء والاصلاح التى شهدها المشرق فى ظل السلطة التوحيدية الواحدة ، سنهتم ونبرز مكان هـذه الحركة التوحيدية والفتوحات ، من المصلحة الحقيقية للجماهير العربية فى هذه البلاد ، وسنجد أنها كانت متمشية مع مصلحة الجماهير العربية ، وفى خدمة هذه الجماهير .

ولكننا نريد أن نبرز هنا ، وقبل الاسترسال فى ثنايا الموضوع ، أن هذه الحركة المسلحة التى خاض الجيش المصرى معاركها ، لم تدخل معركة واحدة أثناء عمليات الفتح ضد قوات عربية .. لأنه لم يكن هناك جيش عربى ، ولا ضـد حامية عربية ، لأنه لم تكن هناك حاميات عربية ، ولا ضد الأهالى العرب ، لأنهم قد

استقبلوا الجيش المصرى استقبالا حسنا ووديا .. وانما كانت المعارك التى خاضها الجيش المصرى ضد الحاميات التركية المحتلة والمعسكرة فى المدن الكبرى ، وضد الجيش العثمانى ، والأسطول العثمانى اللذين جاءا من تركيا لصد الزحف ، ووقف حركة الفتوحات .

ولقد كان الاستقبال الودى من قبل الأهالى العرب ، والذى تمثل فى الوفود التى كانت تأتى الى معسكر ابراهيم باشا من أهالى البلاد المفتوحة ، بل والتى لم يصل جيشه بعد اليها ، والتعاون الوثيق الذى قام بين الجيش والشعب فى البناء الجديد ، وتدعيمه وحمايته ..

كان مرجع ذلك الى السمعة التى يتمتع بها الجيش والنظام الذى يمثله ، والقوى التى بعثت به ليبنى الدولة الجديدة .. والأفكار العربية التى كانت تحيط بحركة الفتح .. والتى كانت تسبق جيشه ، فتعمل عمل الجيش المستقل كما قيل عنها فى ذلك الحين .

وهذه الأفكار العربية التى كان يعلنها ابراهيم باشا ورجاله ، والتى كانت منتشرة فى جيشه ، انما كانت نموذجا للنظرة العربية التى طبعت ولونت فتوحاته ، وللبعد العربى للحركة البرجوازية

المصرية .. ومن هنا كان القاء الضوء عليها أمرا هاما وضروريا .

فابراهيم باشـا هو الذى تحدث ، راسـما أبعاد الحـركة ومضمونها ، ومحددا اطارها ، عندما أجاب على سؤال حـول الحدود التى سيقف عندها فى حركة الفتوحات ، فقال : « الى مدى ما يتكلم الناس وأتفاهم واياهم باللسان العربى »[1] .

فهو توحيد تحدد نطاقه اللغـة ، أبرز سمات « القومية » و « الأمة » .

وهو الذى عبـر عن ذلك التضامن والامتزاج بين جيشه ومصالحه ، وبين أعمق المشاعر والمصالح للجماهير العربية ، فى كلمته ذات المغزى التى تقول : « ما دامت نساء العرب مخلصات لجيشى ، فانى لا أخشى هزيمة فى الميدان » .

وها هو كاتب ومؤرخ عاش فترة فتوحات ابراهيم باشـا ، وشهد حركة التوحيد العربى التى قادها ، وألم بالأفكار التى كانت تعيش وتتحرك مع الفاتحين فى سـاحات المعارك .. والقـرى .. والدواوين .. وقابل ابراهيم باشا أكثر من مرة ، وأجرى معه الأحاديث والمناقشات حول أهداف حركة الفتح والتوحيد يتحدث فى نفس الاتجـاه .. فعندما قابل « البـارون لـو الكونت »

(١) انظر (عصر محمد على) للرافعى .

ابراهيم باشا بالقرب من « طرسوس » سنة ١٨٣٣ م كتب يقول « ان ابراهيم باشا يجاهر علنا بأنه ينوى احياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء فى الادارة أم فى الجيش ، وأن يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى ادارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه .. وتتجلى فكرته هذه فى منشوراته وفى مخاطباته لجنوده فى الحرب الأخيرة بسورية ، فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد ، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه . وقد قال لى : ان أباه يحكم مصر والسودان وسورية ومن الواجب أن يضم العراق الى حكمه ، وجزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن لاتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد ، يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربيا ، ولذلك لا ينفك يطعن الأتراك .. وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده ، وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها ، وسأله كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ؟؟.. فأجابه ابراهيم باشا على الفور : أنا لست تركيا ، فانى جئت مصر صبيا ، ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها ، وغيرت من دمى ، وجعلته دما عربيا » [1] .

---

(١) المرجع السابق .

وياور ابراهيم باشا فى حروب الشام ، وأحد كبار مستشاريه « مصطفى مختار بك » الذى تولى بعد ذلك نظارة المعارف العمومية ، يتحدث عن « الكوادر » التى صحبت ابراهيم باشا ، والتى تمصرت ، وتعربت ، فيقول : « اننا وان كنا فى الغالب مولودين فى تركيا ، لكننا قد اكتسبنا الجنسية المصرية بحكم التوطن .. فقد جئنا مصر قبل أن تتجاوز سن الصبا ، فلسنا الآن أتراكا ، ولم يبق فينا ما يربطنا بهذا الشعب الذى لا يترك فى طريقه أينما سار سوى دلائل الخراب .. ولقد اندمجنا فى أمة أخرى أرقى وأنبل وأذكى من الأمـة التركية ، اندمجنا فى تلك الأمة العربية التى سبقت أوربا الى الحضارة ، وازدانت أيام عزها وسؤددها بذلك العمران الذى يتجلى للناظرين فى المدن الزاهرة التى أنشأتها ، والعمائر الجميلة التى أقامتها » [1] .

وحول هذا الفرق الجوهرى الذى أشرنا اليه ، حول وجود تيارين فى الحركة الجديدة ، تيار يرى قيام امبراطورية عثمانية ، يمثله محمد على وحاشيته التركية .. وتيار يرى قيام امبراطورية عربية ، يقوده ابراهيم باشا ورجال جيشه ، و « الكوادر » الجديدة التى أثمرتها الاصلاحات الجديدة .. حول هـذه الحقيقة كتب

(١) المرجع السابق .

« البارون لبو الكونت » يقول « ان محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق ، أما ابراهيم فانه أقرب الى المبادىء الحرة ، وقد خالف أباه فى مسألتين جوهريتين ، فالمسألة الأولى أنه لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذى اتبعه فى مصر وسورية ، ولو أنه نفذ فى هذا الصدد أوامر أبيه . والمسألة الأخرى ، أنه يجاهر برأيه فى احياء القومية العربية .. ان حاشية ابراهيم كانت مشبعة بهذه الأفكار ، بعكس بطانة محمد على المشبعة بالفكرة التركية .. ان فكرة ابراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التى أسسها أبوه دولة عربيــة بحتة ، أى أن يكون حكامها ورعيتها وجنــودها وضباطها من جنس واحد ، وأمة واحدة ، وأن يعيد الى القومية العربية وجودها واستقلالها ، أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها »[1].

وهكذا تشير هذه الاقتباسات الى وجود الأفكار العربية لدى بناة هذه التجربة ، وانتشارها فى الجيش ، كانعكاس لوجودها فى الحركة التى كان يمثلها هذا الجيش ، وهؤلاء الرجال .

(١) واذا كان من حقنا أن ننظــر بحــذر الى فكرة ايمان ابراهيم باشا ورجاله بقضية العروبة وقيمها ، فان بوسعنا أن نبصر فى رفعه شعار العروبة موقفا أذكى من موقف أبيه وحاشيته ، فهو شعار ذو أرضية أخصب وجماهير أعرض وحجة أقوى فى المعركة التى دارت بين مصر وبين العثمانيين .

٣

والى جانب هذه الأفكار العربية التى كانت لدى بناة هــذه التجربة والتى كانت قسمة من قسمات الحركة البرجوازية المصرية اذ ذاك .. والتى حملوها معهم الى الشام والمشرق العربى .

الى جانب هذه الأفكار ، كانت هناك باقى قسمات الحركة البرجوازية المصرية . أى مسائلها الجوهرية ، والتى حملها هذا الجيش معه الى بلاد المشرق ، ووضعها موضع التنفيذ لعــدة سنوات .

أى أن النظام والدولة التى بنيت وأقيمت فى المشرق ، والتى كانت جزءا من الدولة التى أقيمت فى مصر ، انما حملت طابع البناء الذى أقيم فى مصر ، وشهدت أهم التغيرات التى تحدثنا عنها عندما عرضنا للتحولات التى أقامتها القــوى الاجتماعية المصرية الجديدة ..

أى أن حدود التجربة التى أقيمت فى مصر ، قد امتدت لتشمل المشرق العربى ، ولتكون معه دولة واحدة ، يحكمها نفس النظام . وتطبق فيها ذات التحولات والتغيرات .

ففى ميدان جهاز الدولة ، أقيم للمرة الأولى جهاز واحــد يحكم أنحاء البلاد ، وقضى عــلى نظام التجزئة التى كانت قد

فرضتها السلطات الاقطاعية التركية ، وحولت بها بلاد المشرق العربى الى مجرد ولايات وامارات تحكمها حاميات تركية وولاة عثمانيون ، الى جانب عدد من أمراء الاقطاع ..

وبدأ البريد يربط أنحاء البلاد ، ويشعر الناس بوحدة السلطة المباشرة التى ترعى شئونهم وتحفظ أمنهم وتوجه مصائر البلاد..

وعسكرت الحاميات العسكرية خارج المدن ، حتى لا تكون هناك آثار للحكم العسكرى ، فى ظروف قد تبرر الحكم الاستثنائى والعرفى ، وتجعل للعسكريين فوق ما يجب أن يكون لهم من نفوذ .

وأخذ العنصر المحلى يعرف طريقه الى جهاز الدولة الجديدة ، فالجهاز المالى والضرائبى الذى أنشىء حديثا ، قد تم انشاؤه وملء وظائفه وادارة عجلته من قبل السكان المحليين .

وعرفت تجربة المجالس المنتخبة من سكان المدن الكبرى والهامه طريقها لادارة شئون هذه المدن وحل مشاكل الأهليين .. ففى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة ، كان ينتخب من بين أهلها ونبهاء رجالها مجلس يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه ما بين ١٢ و ٢١ عضوا وذلك للنظر فى مصالح المدينة ، ومطلوبات الميرى ، والفصل فى أهم الدعاوى .

وكانت القسمات العصرية ، والطابع الحديث لجهاز الدولة هذا تلعب دورا كبيرا فى اتاحة الفرصة لقوى الشعب الخلاقة ، فى اتجاه تحقيق مصالحه وتقدم أحواله ورفع مستواه .

ونفس الضربات التى وجهت الى أمراء الاقطاع فى مصر ، عرفت طريقها الى بلاد المشرق العربى ،بعد الفتحوالتوحيد .. فلقد أزاحت السلطة المدنية العصرية الجديدة ، من على مسرح الحكم ومراكز النفوذ ، طبقة أمــراء الاقطاع .. لتحل محلها القــوى الاجتماعية الجديدة ، رغم حالة الضعف التى كانت عليها ، والتى لا يمكن أن تقارن قوتها بقوة مثيلتها فى مصر .. هذا الضعف الذى كان أحد الأسباب الهامة فى عجز هذه القوى عن الحفاظ على استمرار حكمها وسلطتها فتمكن الاقطاع من العودة الى الحكم ثانية بمعاونة الاستعمارين الأوربى والتركى فيما بعــد سنة ١٨٤٠ م كما سنتحدث بعد حين .

ولم يفلت من أمراء الاقطاع ، ولم ينج من المصــير الذى لاقوه سوى الأمير « بشير الشهابى » الذى كان فيما مضى معاديا للدولة العثمانية ، وعلى علاقة وثيقة بمحمد على ، والذى سبق للحكومة العثمانية أن أقالته من منصبه ، فتوسط له محمد على لدى هذه الدولة ، وأعاده الى الحكم فى امارته بلبنان سنة ١٨٢٤م،

أى قبل الفتح وحركته بسبع سنوات .. أما باقى الأمراء الاقطاعيين فلقد أزيحوا من الطريق [1] .

واذا كانت هذه الحقائق تبدو اليوم غريبة واذا كان هـذا التقويم للحكم العربى الذى شهده المشرق من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٤١ م يبدو مبالغا فيه ، فاننا نستطيع أن نحتكم الى بعض المؤرخين والباحثين المعاصرين لهذه الأحداث ، وغير المعاصرين ، من هم من أبناء المشرق العربى ، ومن هم من غير أبنائه ، لنرى الحكم الذى حكموه ، والتقويم الذى خطته أقلامهم منذ سنين .

ولنبـدأ بجزء من تقرير كتبـه دبلوماسى انجليزى ، وهو لا يمكن أن يتهم بالتحيز لهذه التجربة ونظامها ، وهو المسـتر « برانت » قنصل بريطانيا فى دمشق : كتبه الى سـفير دولته بالآستانة سنة ١٨٥٨ م ، يقول مستر « برانت » :

« فأصحاب المقامات العالية ، والأفندية والأغوات « رؤساء الجند » امتعضوا كثيرا من ذلك « أى من النظام الجديد » لأنهم

---

(١) يقول د . محمد أنيس فى كتابه (الدولة العثمانية والشرق العربى) ص ٢٦٠ « ولا شك أن المجتمعات فى الشرق العربى قد شاهدت كثيرا خلال القرن التاسع عشر نقلها من أوضاع اقطاعية متخلفة الى مرحلة جديدة فى اتجاه العلاقات الراسمالية ساهم فى ذلك محمد على وحكمه فى بلاد الشام الى حد كبير » .

كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة ، والحرف ، وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيرا لخلاصهم من الظلم الذى أتوا تحت عبئه طويلا ، واغتبط المسيحيون خاصة ، وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم الى درجة من الذل لا تطاق . ولم يكن الفلاحون أقل سرورا منهم ، لأنه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة ، فلم يكن يستوفى منهم « بارة » زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شىء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل . وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ، وهذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية .

والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة ، أسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها ، وأعفوا من الضرائب لمدة ثلاث سنين » [1] .

---

(1) راجع فى كل ذلك (الشرق والعرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) لمحمد على الغتيت ، و (عصر محمد على) للرافعى ، و (التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث) للدكتور خلاف ، و (تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة) للدكتور لهيطة .

فالمستر « برانت » يحدد بجلاء ووضوح ، أن الطبقات الاجتماعية التى وجهت اليها الضربات انما كانت هى : « أصحاب المقامات العالية » و « الأفندية » و « الأغوات » وأن سبب حقدهم على هذا النظام ، وتآمرهم ضده انما هو قضاؤه على الابتزاز الذى كانوا يمارسونه ضد « أصحاب التجارة » و « أصحاب الحرف » و « سائر الطبقات العاملة » ..

وهو يضيف الى الطبقات التى أصبحت صاحبة مصلحة حقيقية فى النظام الجديد .. يضيف الى « التجار » و « أصحاب الحرف » و « سائر الطبقات العاملة » يضيف « الفلاحين » الذين أعطوا السلف ، وأعفوا من الضرائب على الأرض الحديثة لمدة ثلاث سنين .

وغير المستر « برانت » نجد الدكتور « مشاقة » يتحدث عن هذا النظام الجديد فى كتابه (مشهد العيان ، بحوادث سوريا ولبنان) فيقول : « هذا النظام ، وان يكن عادلا وشريفا ، فقد كان باعثا قويا على كره الأمراء والمشايخ للمصريين ، حيث كف يدهم ، وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكن اجتيازه ، وأمات استبدادهم بالشعب ، وجعلهم أمام الشريعة سواء ، لا امتياز ولا تفرقة بينهم وبين أفراد الرعية ..

فحنقوا على الدولة المصرية ، وودوا ازالتها وارجاع الحكومة ـ التركية » .

فالنظام « العادل الشريف » كان موجها ضد « الأمراء والمشايخ » « وهم الاقطاعيون » ، وهو قد كف يدهم ، وأمات استبدادهم ، وألغى امتيازاتهم ، وجعلهم هم والرعية سواء أمام الشريعة والقانون .

وبعد الدكتور « مشاقة » ، يأتى الأستاذ محمد كرد على ليقول عن هذا النظام فى كتابه (خطط الشام) .. « كان من أول أعمال ابراهيم باشا الجليلة فى الشام ، ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، واقامة مجالس الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، فجعل نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لا تفاوت فى طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استثقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين ، ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء ، وينالهم من ذلك مصة الوشل [1] ، مع أن البلاد رأت فى أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات ، وتقرير

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلب من صخر او جبل ، والمراد هنا قلة العائد على الضعفاء من ثروات الطفيليين ونهبهم .

حق التملك ، وتوطيد الأمن فى ربوعها ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعممت تربية دود القز (الحرير) واستخرجت بعض المعادن ، ولا سيما معدن الفحم الحجرى فى قرنابل (لبنان) » .

فالطبقات التى كانت تعيش كالحلمة الطفيلية ، والتى وجهت لها الضربات ، والتى تآمرت ضد النظام الجديد ، وتمنت عودة الأتراك ، هى طبقات الأمراء ، والمشايخ ، وأرباب النفوذ .. أما الذين أبطلت بالنسبة لهم المصادرات ، واكتسبوا لأنفسهم « تقرير حق التملك » فهم أصحاب البناء المادى والاقتصادى الذى دبت فيه الحياة . وهو الزراعة والتجارة والصناعة والتعدين .

كما يعود الأستاذ محمد كرد على ليقول فى نفس كتابه هذا ، عن الحكومة الجديدة فى الشام : « انها وضعت أصـول الادارة والجباية ، ورفعت أيدى أرباب الاقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية » [1] .

ونحن لو وضعنا جانبا اسم الكتاب ـــ (خطط الشام) ـــ وتناسينا المناسبة والسبب الذى قال من أجله محمد كرد على هذه

(1) ولعله أمر لا يحتاج الى اشارة أن نقول ان الحديث عن عدالة النظام والحكم الذى أقامته هذه التجربة انما يجب أن يقاس بمقاييس العصر الذى تم فيه ، وبالنسبة للمظالم التى تجل عن الوصف ، والتى عاناها العرب تحت حكم الأتراك العثمانيين .

السطور ، فسنجد أنفسنا حيال وصف وتقويم يمكن أن ينطبق على ما تم فى مصر فى سنى التحولات البرجوازية فى موضـوع الأرض والفلاح ، وأمراء الاقطاع .

وهكذا تجتمع لبلاد المشرق العربى فى عهد وحدتها مع مصر تحت قيادة واحدة ، قسمة التحولات البرجوازية ، والتطـور الديمقراطى الأولى ، الى جانب قسمة العروبة التى أشرنا اليها فى الفصل السابق ، فى حديثنا عن الوجه العربى لهذه الفتوحات .

* * *

وما كان للبناء الفوقى لهذه التجـربة أن يتخلف عن طبيعة قاعدتها المادية أو يشذ ويتعارض مع هذا البناء ..

ورغم أن قصر مدة هذه التجربة البرجوازية العربية ، واتساع نطاق التآمر ضدها قد حالت دون تعمق الأثر الذى خلفته لنا فى ميدان البناء الفوقى ، وعدم بروز الطابع الفكرى الذى يعكس هذا البناء الاقتصادى والاجتماعى ، الا أننا نجد جذور الأفكار العربية والقومية التى أخذت تزدهر فى المشرق العربى خلال القرن التاسع عشر ، بل وأوائل القرن العشرين ، انما تمتد الى حيث المدارس المدنية التى أنشئت بالمشرق خلال عملية التوحيد .. فلقد كانت هذه المدارس ، مع الانطلاقة التى أتيحت للقوى الاجتماعية

الجديدة ، التى هى بطبيعتها ، صاحبة مصلحة حقيقية فى التوحيد العربى ، كان هذان العاملان هما بذرة ازدهار الحركة العربية التى أخذت تقاوم سرا وعلانية ، بتنظيم ومن غير تنظيم ، ردة الاقطاع ، والنكسة التى جاءت الى المشرق ثانية بسلطان الأتراك ومظالمهم .

والآن .. أفبعد هذه الاشارات الناطقة بالحقائق الموضوعية عن طبيعة السلطة التى أظلت بظلها بلاد المشرق العربى فى ثلاثينات القرن الماضى ، وطبيعة القــوى والمصالح التى ضربت وأضيرت وصفيت ، وطبيعة القوى والمصالح التى كان يمثلها ويدعمها ويحميها هذا النظام .. أفبعد ذلك شك فى انسحاب التجربة التى تحدثنا عنها فى مصر على بلاد المشرق العربى ، رغم الاختلاف فى بعض التفاصيل والجزئيات ؟؟..

اننا لا نشك فى ذلك .. بل ونؤكد أن الاختلافات الطفيفة التى كانت لنظام المشرق ، انما دعمت من الطابع البرجوازى والعربى لهذا النظام ، لأننا سبق أن أوردنا قول « البارون لبو الكونت » عن « أن محمد على يمثل فكرة الحكم المطلق ، أما ابراهيم فانه أقرب الى المبادىء الحرة وقد خالف أباه فى مسألتين جوهريتين : فالمسألة الأولى ، أنه لم يكن يوافقه على نظام الاحتكار الذى اتبعه فى مصر وسورية ، ولو أنه نفذ فى هذا الصدد أوامر أبيه ،

والمسألة الأخرى ، أنه يجاهر برأيه فى احياء القومية العربية ، ان حاشية ابراهيم كانت مشبعة بهذه الأفكار ، بعكس بطانة محمد على المشبعة بالفكرة التركية . ان فكرة ابراهيم باشا أن يجعل من الامبراطورية التى أسسها أبوه ، دولة عربية بحتة ، أى أن يكون حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأمة واحدة ، وأن يعيد الى القومية العربية وجودها واستقلالها . أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها » .

وليس ينقص من الجدية والموضوعية لهـذا التقويم قصر عمر التجربة ، وانتهاؤها بعودة الاستعمار التركى وأمراء الاقطاع فى ركاب القوات الانجليزية ، لأن الأمر الذى نريد ابرازه هو أن هذه التجربة التوحيدية قد أثارت فى ذهن الجماهير قضية العروبة والوحدة ، وقدمت نموذجا رغم سلبياته ونواقصه ، الا أنه استقر فى سلسلة الأحـداث علامة على الطريق ، وكانت « خميرة » لتفاعلات عربية وقومية آتت ثمارا هامة فيما بعد ذلك من التاريخ.

٤

وبعد هذا الذى قدمناه عن الأفكار العربية لدى بناة التجربة التى تحدثنا عنها ، والقسمة العربية لهذه الانجازات المـادية

للاقطاع والأتراك ، والتى وحدت مصر والسودان مع المشرق العربى فى دولة واحدة .

وبعـد هـذا الذى قدمناه عن الطبيعة البرجوازية للحكم والنظام الذى أقامته هذه الانجازات بالمشرق ، بعد أن أقامته بمصر ..

بعد هذا الذى قدمناه فى هذا الصدد ، نجد أنفسنا ازاء تقويمات مختلفة ومتباينة للجذر الذى أنبت هذا الوجه العربى الذى تحدثنا عنه ، والقاعدة التى ارتكز عليها الطابع العربى لهذا النظام .

فهناك من يقول : « ان ثورة محمد على (يقصـد الفتح والتوحيد بالمشرق العربى) لم تستمد قوتها من نزعة قومية ، ولهذا السبب لم تؤثر فى نشوء فكرة القومية العربية تأثيرا مباشرا ، ولكنها خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ، ولو بصـورة غير مباشرة ، لأنها أوجدت دولة عصرية قائمة فى بلاد عربية ، وفسحت بذلك ميدانا واسعا لقيام نهضة فكرية وأدبية عربية » [1] .

فينكر أن يكون لهذا البناء الذى أقيم ، أى جذر قومى ، ومن ثم أى وجه عربى مرتبط بفكرة العروبة والقومية العربية .

---

(١) ساطع الحصرى (محاضرات فى نشوء الفكرة القومية) ص ١٧٨ .

ونحن لا نرفض فقط مثل هذا الحكم ، ولا نجده فقط منافيا للحقائق التى ألمعنا اليها فيما سبق ، ولا نجد فيه فحسب مناخا صالحا لاقليمية ، تعكس انكار دور القلب النابض لحركة القومية العربية والأمة العربية ، وتقليل الدور القيادى الذى لعبه هـذا القلب ، ولا يزال يلعبه حتى الآن .. بل نرى فيه منافاة لتقويمات أخرى أكثر عمقا منه . وأكثر اقترابا من حقيقة هذا الموضوع .. تقويمات صدرت من قوى مختلفة لا يمكن أن تتهم بالتحيز ، أو الاتفاق على المحاباة [١] .

فالذين يقولون عن هذا النظام انه « قد حاول أن يبعث الأمة العربيـة بوصفها وحـدة سـياسية مستقلة عن الأتراك » [٢] انما يضعون تقويمهم هذا فى توافق وانسجام مع حقائق الواقع الذى عاشته هذه التجربة ، وحقائق التاريخ ..

واذا كان تقويم هذا الوجه العربى لهذه الأحداث ، لم يحظ باهتمام الكتاب والباحثين والمؤرخين المصريين بالدرجة الكافية ، لذلك الحـين من الدهـر الذى أتى علينا فأدرنا فيه ظهـورنا

---

(١) وذلك على الرغم من ان الاستاذ ساطع الحصرى هو من اشد أعداء الاقليمية ، ومن أبرز ، ان لم يكن أبرز الذين خدموا الفكر القومى العربى وأوقفوا حياتهم لحسـابه .

(٢) د . نجلاء عز الدين (العالم العربى) ص ٤٣٦ .

« الرسمية » للعروبة والعرب فى السياسة والاقتصاد والفكر ، فانه قد حظى بتقويم دقيق وناضج من كثير من الأصدقاء . .وأيضا من كثير من الأعداء ..

ونحن معذورون هنا ، اذا نحن أعطينا اهتماما كبيرا لتقويم الأعداء لهذه الأحداث ، لأنه بمقدار النضج الذى أدرك به الأعداء حقيقة هذه الأحداث ، كانت قوة اهتمامهم بها ، وحربهم لها ..

وبمقدار وعيهم بأهداف هذه الأحداث ومراميها ، كان وقوفهم لها بالمرصاد ..

واذا كان كاتب عربى ، وشاهد عيان معاصر للأحداث التى تحدث عنها ، هو الدكتور مشاقة ، قد قال فى كتابه (مشـــهد العيان ، بحوادث سورية ولبنان) وبعد حديثه عن مؤامرات انجلترا ضـــد هـــذه الوحدة العربية : « ولا مشاحة أن دولة الانجليز ، أكثر الدول اســـتعمارا ، وكأنها أوجســـت خيفة من الدولة المصرية ، التى مع حداثة نشأتها أصبحت فى مصاف الدول المرتقية ، كأنها لحظت أن محمد على بات يطمع بعد ضم البلاد فى احياء الدولة العربية القديمة ، وارجاع دولة اسلامية عربية ، هذا شأنها فى تنظيم أحوال الرعية ، قامت على أساس العدل ، وجارت الدول المتمدينة . ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا ـــ نابليون مصر ـــ

بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار ، فرامت مقاومتها » .

اذا كان هذا هو تقـدير كاتب عربى كبير ، للتقويم الذى أعطته احدى القوى الاستعمارية لهذه الأحداث ودلالتها ، والذى بسببه ، وعلى أساسه ، أخذت تقاوم صانعى هذه الأحداث .. فاننا لا شك واجدون الحقيقة فى هذا الأمر عنـد هـذه القوى الاستعمارية نفسها ..

ماذا كانت ترى فى الانتفاضة التى قادتها مصر ضد تركيا ؟؟.. والانجازات التى صنعها الجيش المصرى فى الشام ضد الاقطاع والأتراك ؟؟.. وفى أى اطار أبصرت هذه الثورة ؟؟..

* * *

لنبدأ بقوة استعمارية كانت ذات شـأن فى ذلك العصر ، وصاحبة دور هام فى السياسة الاسـتعمارية العـالمية ، وان لم يرتبط اسمها مباشرة بأكثر الأحداث التى دارت فى بلادنا فى ذلك التـاريخ .. ألا وهى النمسـا .. النمسـا تحت قيـادة « مترنيخ » [1] .

فلقد أرسل « مترنيخ » فى ذلك الحين بعثة الى بلاد الشرق

(١) لقد كانت للنمسا محاولات توسعية فى العالم العربى ، لم تنجح ، قبل أن يحاول ذلك نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م .

لدراسة الوضع فيه على الطبيعة ، وتقديم تقرير عن التطورات التى تشهدها هذه البلاد ، ولقد عادت هذه البعثة الى النمسا بعد رحلتها هــذه ، وكتب رئيسها « بروكيسن » المنــدوب الخاص « لمترنيخ » ، كتب يقول : « يبدو أن الاتجاه الأكيد هو نحو تكوين امبراطورية عربية ، تشمل مصر والنوبة وسنار ودافور وكردفان فى أفريقيا ، وشبه الجزيرة العربية فى آسيا حتى الخليج الفارسى ، وتمتد على الشاطىء الأيمن للفرات لتشمل ســوريا بأسرها .. وهكذا يستطيع محمد على أن يمجد من جانب العرب والمسلمين كمنتقم لما أصاب خلفاء العرب من تنكيل . وهو أنه باعتباره الرجل الذى اختاره الله لاحيــاء مجد الاسلام ، يراه العربى كرمز لجنسه النبيل . لقد بلغ التحمس السياسى والدينى فى الشرق الذروة ، وتحولت الأنظار عن آل عثمان . فالرأى العام فى الشرق يتابع محمــد على ويؤيده تأييــدا مقرونا بأوســع الآمال » [1] .

(١) ونعتقد انه لا يقلل من موضوعية هذا التقويم تلك المبالغات التى تضفى على محمد على صفات لم تكن له ، لأن الذى يهمنا الاشارة اليه هو دلالة الاحداث وجوهرها لا صفات محمد على ونواياه . راجع فى ذلك (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حــرب السويس) لمحمد على الغتيت .

فالذى يبنى هو « امبراطورية عربية » ، والعرب لا يرون فى هذا البناء دولة تركية ، ولا عثمانية ، وانما عربية ، كما يرون فى محمد على « المنتقم لما أصاب خلفاء العرب من تنكيل » ..

وباستثناء « المغرب العربى » تحدد بعثة « مترنيخ » الحدود الطبيعية والقومية للوطن الذى كانت تناضل لبعثه وتوحيده القوى الاجتماعية الجديدة التى صنعت هذه الأحداث .

* * *

وفرنسا .. ذات التاريخ فى محاولات استعمار هذه المنطقة ، منذ الحروب الصليبية ، وذات الحملة النابليونية الشهيرة ، وذات الاهتمام بأحداث هـذه البـلاد ، اهتماما عمليا تارة ، وفكريا ودراسيا فى كل الأحيان .. فرنسا هذه ، يكتب منها نابليون فى مذكراته ، محـددا طبيعة الأحـداث التى كانت تتم يومئذ ، ودلالتها ، حتى قبل وقوعها ، لانه كان يدرك طبيعة « العوامل الكامنة » فيها ، واستطاع أن يحدد بعبقرية ، دلالة الحركات التوحيدية التى يمكن أن تتم فى هذه البلاد ..

نابليون هذا يكتب فى مذكراته فيقول : « اذا عنينا بقراءة تاريخ الأحداث التى مرت بها مصر منذ مائتى عام ، فسيظهر لنا بوضوح أن السلطة كلما عهد بها الى « باشا » بمفرده بدلا من

المماليك ، وكان هذا « الباشا » تابعا من أبناء هذا البلد نفسه ، فان الامبراطورية العربية التى تشمل مصر وشـــبه الجزيرة العربية وجزءا من أفريقيا وآسيا ، وهى امبراطورية تضم أمة لها مميزاتها الخاصـــة ، وعقائدها ، ولغتها وتاريخها ، كانت ستحصل عـــلى استقلالها لا محالة كما كانت هـــذه الامبراطورية ، التى تضم سورية ، وهى الجزء الطبيعى المكمل لها ، جزيرة عظيمة تقع بين المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى والفرات » [1] .

فوحدة قسمات الجماعة البشرية التى تقطن هذه « الجــزيرة العظيمة » الواقعة بين المحيط والخليج ، أمر أدركه نابليون تمام الادراك .. واستقلال مصر انما هو الشرط الضرورى ، والبداية الحتمية ، لوحدة هـــذه الامبراطورية وبعثها عـــلى أساس من « مميزاتها الخاصة ، وعقائدها ، ولغتها ، وتاريخها » .

وبعد نابليون .. وفى الوقت الذى دارت فيه المعركة ضـــد الأتراك ، من أجل الاستقلال العربى والتوحيد .. وفى أثنـــاء اشتداد النضال بين الحركة التوحيدية وبين الرجعية والاقطاع ، ألقى السياسى الفرنسى « لامارتين » فى الجمعية الوطنية الفرنسية

(١) المرجع السابق .

بتعليق نارى حول موقف فرنسا « العاطف » على موقف محمد على .. فقال : « ماذا نريد .. ؟؟ .. ماذا نجد .. ؟؟ .. ما الذى نقـوم به الآن ؟؟.. أنريد تشتيت وتفتيت الأجـزاء الرئيسية للامبراطورية العثمانية ؟؟!!.. أنريد تقسيم الشرق قسمين ، نمنح أحدهما « الباشا » المتمرد بالاسكندرية ؟؟!!.. أجـل ، فلنلق القناع .. ولنعترف اذن بالقومية العربية ، ولنقل اننا سـوف نؤيدها بحذر .. ثم يتطور أمرنا فيما بعد الى المجاهرة بتأييدنا لقيام امبراطورية ثانية من الخلفاء الراشدين »[1] .

* * *

أما التقويم الذى ارتأته انجلترا لهذه الأحداث ، فلقد اتخذ شكلا جديدا ، وفريدا ، .. شكل المقاومة لهذا البناء التوحيدى ، والعمل ضـد هذه الانجازات العربية التى قامت فى الولايات والامارات العربية ضد الأتراك ..

لقد تجلى عمق فهم الانجليز ، شأن الأعداء الألداء ، لمجريات الأمور ، وخط سير الأحداث ، فى شكل المؤامرات والمناورات ،

---

(١) المرجع السابق وليس يعنينا كثيرا هنـا ، أيضا ، تلك الأوصاف المبالغ فيها ، التى يضفيها « لامارتين » على هذه الدولة التى كانت تقوم على أنقاض العثمانيين ، مثل « الخلفاء الراشدين » لأن الأهم ، والمطلوب هو ادراك جوهر تقويمهم لهذه الأحداث دون اهتمام بالأوصاف والنعوت .

والصبر والاستماتة التى تبدت من جانبهم ضد هذا البناء الجديد الذى قام فى المشرق ..

فهى لم تكن تجهل الطابع العربى لهذه الحركة ، ولذلك فانها لما رأت السياسة العربية الجامعة التى يطبقها هذا البناء نراها قد عملت على هزيمته ، وأعلنت أنها تفضل أن تكون اليد الطولى فى المنطقة ، والسلطان والنفوذ للأتراك ، لا لهذا الحكم العربى الجديد .. فصرح وزير خارجيتها « بالمرستون » سنة ١٨٣٣ م : « ان تركيا تستطيع المحافظة على الطريق الى الهند ، كأى حاكم عربى كبير الهمة »[1] .

وفى سنة ١٨٣٥ — ١٨٣٦ م ، عندما أرادت انجلترا تجربة الملاحة بالبواخر فى نهر الفرات .. وقف الجيش المصرى ضد هذا المشروع ، لأن تنفيذه سيحول دون امتداد حدود الدولة الجديدة التى أقامها الى النهاية الطبيعية لحدودها فى الجنوب الشرقى .. وكانت معركة ، وأزمة ، رأت فيها انجلترا خطورة العمل الذى يقوم به هذا الجيش على مصالحها الاستعمارية التى تعمل على تثبيتها وارساء قواعدها فى هذه البلاد .

وفى سنة ١٨٣٧ م ، كانت حدود الامبراطورية الجديدة ، قد

(١) راجع (موجز تاريخ الشرق الاوسط) لجورج كيرك .

امتدت الى أقصى الشرق وأقصى الجنوب .. وحدثت الاتصالات ، وقامت العلاقات العسكرية والسياسية بين الامبراطورية الجديدة وبين الشيلخات العربية على شواطىء الخليج العربى والأصقاع الجنوبية من بلاد العرب .

فشرعت انجلترا تتحرش بهذه الدولة الجديدة ، وأصدر الوزير الانجليزى « بلمرستون » تحذيره الى محمد على « من أى اعتداء على حدود « بشالك » (لواء) « بغداد » (التركى) » وصرح بأن « الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين ازاء أى زحف من جانب محمد على تجاه بغداد والخليج الفارسى » .

وفى سنة ١٨٣٨ م اعتبرت انجلترا نفسها « وصية » على منطقة الخليج العربى ، ظنا منها أن ذلك هو السبيل الوحيد لمنع انضمام هذه المنطقة الى الامبراطورية العربية ، وصرح « بلمرستون » : « ان مهمتنا فى الخليج الفارسى ، هى وضعه تحت سيطرتنا البحرية ، بعيدا عن نفوذ أية دولة أخرى تستطيع منازعتنا هذه السيطرة ، ولكن بشرط ألا تكلفنا هذه السياسة نفقات باهظة » [1] .

---

(١) راجع فى ذلك المرجع السابق ، و (الدولة العربية الكبرى) لمحمود كامل .

ولكن هذه الوصاية الانجليزية ، وما أصدر وزير خارجيتها من تحذيرات وتصريحات وانذارات ، لم تجد فتيلا فى صد الزحف العربى المنبثق من الدولة العربية الجديدة والمتجه نحو منطقة الخليج العربى .

فلم يأت عام ١٨٣٩ م . حتى كانت الاتصالات العسكرية والسياسية بين مشيخات الخليج والدولة العربية الفتية قد أخذت تتحول الى تحالفات واتفاقات ، وأسرعت مشيخات (أبو ظبى — ودبى — والشارقة — وعمان — وأم القوين — ورأس الخيمة — وكلبه) بعقد هذه المحالفات .. ولم تجد انجلترا أجدى فى محاربة هذه الحركة من التآمر والرشوة واثارة الانقسامات فى صفوف سلاطين هذه المشيخات ، وعندما أبلغ « صالح بن صقر » القائد البريطانى عما تم بين حكام المشيخات ومحمد على من مراسلات واتفاقات ، طلب منهم القائد عدم التحالف مع محمد على ، فاستجاب معظمهم لضغط بريطانيا .. وتعهد « صالح ابن صقر » هذا بشرط جديد ، أضافه من عنده الى مطالب القائد الانجليزى ، وهو عدم تراسله مع محمد على ، دون علم بريطانيا [1] !!! .

---

(١) محمد على الغتيت (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) .

وفى نفس العام احتلت بريطانيا « عدن » حتى تقف للنفوذ العربى التوحيدى فى اليمن بالمرصاد ، وحتى تتمكن من تنفيذ المؤامرة الواسعة التى أخذت تعد لها العدة ، مؤامرة « ضرب » هذه القوى الجديدة .. و « حصرها » داخل الحدود المصرية ، ليجد التفكك والتحلل ، والاقطاع والأتراك ، فى العالم العربى ، بيئة صالحة لمساعدة النفوذ الانجليزى على النمو والازدهار .

* * *

على أن الحديث عن الطابع البرجوازى للحركة التوحيدية العربية ، والطابع العربى لما تم فى المشرق فى ثلاثينيات القرن الماضى من أحداث ، انما يثير سؤالا ، وسؤالا وجيها ، وهاما .. وهو قد أثاره بعض الباحثين والمفكرين ، وهذا السؤال هو : ألم يكن هذا الفتح المصرى للمشرق العربى استعمارا مصريا لهذه البلاد ؟؟..

وألم يكن محمد على مستعمرا للشام ؟؟.. وما هو الفرق بين هـذا « التوسـع » و « الضم » و « الالحاق » الذى قام به ابراهيم باشا ، وبين ما قام به الأتراك أو الانجليز أو الفرنسيون .. فيما يختص بجوهر النظام الاستعمارى ، بصرف النظر عن نسبية درجة الاستغلال ، والشكل الذى اتخذه الضم ، والروابط التى تجمع بين الفاتح وسكان الوطن المفتوح ؟؟..

وألم يقل الدكتور مشاقة فى كتابه (مشهد العيان ، بحوادث سورية ولبنان) عن خوف انجلترا من مصر ، كيف أنها خافت « منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار » .. ؟؟ ..

واذا كان الأمر كذلك .. فكيف نسمى هذا الاستعمار توحيدا ذا طابع عربى ؟؟..

واذا جاز أن يكون عملا من أعمال التوسع للبرجوازية المصرية الناشئة ، فانه لايجوز أن يكون عمـــلا توحيديا عربيا بالمعنى المفهوم من هذا التعبير ..

ونحن نقـــول ان هؤلاء الذين يتحـــدثون اليوم عن تأثيرنا الثـــورى ، وتأييدنا المادى للقوى العربية التى تناضل ضـــد الاستعمار والاستغلال فى أجزاء أخرى من الوطن العربى ، الذين يسمون ذلك التأثير ، وهذا التأييد ، تدخلا فى الشئون الداخلية للغير ، هم وحدهم الذين تسعفهم مقاييسهم وموازينهم بتسمية ما حدث فى النصف الأول من القرن الماضى بين مصر والشرق استعمارا واحتلالا .

والذين ينكرون الروابط القومية التى تكونت منذ العصر الاقطاعى ، وقبل قرون عدة من القرن الماضى ، هم الذين لا يرون فى اتصالنا بباقى أجزاء العالم العربى سوى لون من الوان الاستعمار .

والذين لا يرون للعالم العربي مستقبلا ، الا عـلى نحو من النمو الذاتى المستقل لكل جزء من أجزائه ، وفى اتجاه متباعد عن الأجزاء الأخرى ، هم الذين يرون فى صلات من هذا النوع ، وخاصة عندما يستخدم فيها السلاح ، فتحا وقهرا واستعمارا ..

والذين لم يبصروا ، ولم يتدبروا ، تجارب الحركات القومية ومشاكلها ، وسير الأمور فى القوميات والأمم التى تناضل من أجل الوحدة .. والحروب التى خاضها الألمان فيما بينهم ، وفيما بين ولاياتهم واماراتهم التى أربت يوما على الأربعمائة .. والحروب التى قامت بين الممالك والجمهوريات والامارات الايطالية فى عصر التوحيد والبلورة للأمة الايطالية .. هم الذين سيرون كذلك فى هذا العمل استعمارا ولا شيء غير الاستعمار .

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بما سبق أن ذكرناه من أن الحرب التى خاضها الجيش المصرى فى الشام لم تكن ضد العرب ، وانما كانت ضد الأتراك ، وأن الجيش المصرى لم يدخل معركة واحدة ضد السكان المحليين وانما كانت معاركه ضد العثمانيين وحلفائهم وضد « التتريك » والعنجهية التى صبها على العرب استغلال الأتراك واستعلاؤهم .

ومن ثم فنحن بازاء حالة خاصة ليس فيها فتح بالمعنى الشائع ، ولا استعمار ..

وبدون هذه التفرقة ، ودون عمق فى فهم هذه المسألة ، سنظل نخلط بين ما هو عادل وغير عادل .. بين ما هو ضرورى وما هو ممنوع .. بين ما هو ثورى وما هو رجعى .. بين الحق والباطل .. بين التوحيد القومى وبلورة كيان الأمة الواحدة وبين ما يصنعه المستعمرون وما تصنعه الامبريالية بالشعوب المقهورة ، والأوطان التى نكبت بهـــذا اللون من ألوان القهـر والذل والاستعمار .

فاذا أضفنا الى ذلك ، أن القاعدة المادية للتحولات البرجوازية التى كانت تتم فى مصر على ذلك العهد ، انما كانت فى بداياتها ، ولم تصل بعد الى مراحل النضج أو الاكتمال ، فضلا عن الاحتكار والتركز والتمركز فى اقتصادياتها ومؤسساتها المالية والصناعية ، وهو الطور الممثل للقاعدة المادية الرأســمالية التى تثمر وتفرز الاستعمار بمعناه العلمى المعروف ، اذا أدركنا ذلك استطعنا أن ننفى عن هذا البناء الذى أقامه الجيش المصرى فى المشرق صـفة الاستعمار ، وأن يكون العلم بالحقيقة الموضوعية لماهية الاستعمار (الامبريالية) هو سندنا فى هذا التقويم ..

* * *

على أن نفينا لصفة الاستعمار عن هـذا العمل التوحيدى ، لا يعنى أننا نلقى عليه من الأوصاف ما نلقيه عـلى الأعمال

التوحيدية التى تنجزها ، أو تتوق لانجازها فى عصرنا هذا ، لأن الأمـور يجب أن تقاس بمقاييس عصرها ، واذا كانت حركتنا القومية اليوم ، وأهدافنا التوحيدية انما تحمل مضمونا اجتماعيا تقدميا ، ومحتوى اشتراكيا ، فلقد كانت المحاولات التى تمت فى هذا السبيل فى القرن التاسع عشر انما تحمل مضمونا برجوازيا مشوبا ومطبوعا بطابع الحكم الفردى غير الديمقراطى الذى طبع به محمد على كل البناء الذى أقامه سواء فى مصر أو فى الشام .

فاذا أضفنا الى ذلك تلك الأحلام الامبراطورية التى كانت تطبع فتوحات محمد على وانجازاته وتوسعاته ، وآمال الرجل فى بناء دولة واسعة مترامية الأطراف على أنقاض دولة آل عثمان ، أدركنا أن شعارات العروبة التى كانت تعبيرا عن القيم العربية ، والنزوع القومى الذى كانت تضطرب به أحشاء المجتمع يومئذ ، قد كانت الشعارات التى يستطيع بها النظام الجديد فى مصر ، وقيادته ، أن تعارض تحت أعلامه وألويته شعار « العثمانية » و « التتريك » .. ومن هنا كان اللقاء بين قيادة هـذا المجتمع يومئذ وبين ما فى أحشاء هذا المجتمع من قيم وآمال ..

الباب السادس

الثورة المضادة للحركة التوحيدية

١

على أن التحديات التى قامت فى وجهها هــذه التحــولات البرجوازية فى مصر ، والتى تمثلت كما تقدم فى :

- الاستعمار الأوربى ..
- والاحتلال التركى ..
- والنفوذ الرجعى لقوى الاقطاع ..

هذه التحديات العظيمة القوة والخطر ، ما كان لها أن تنام عن المخاطر التى تنبعث من هذه التحولات ، والمستقبل الذى ينتظر القوى الجـديدة التى صنعتها ، وخاصة عندما خرجت هــذه التحولات من الحيز المصرى ، وامتدت الى النطاق العربى ، وامتد نطاق تهديدها للمصالح الاستعمارية والرجعية حتى الخليج العربى

والمحيط الهندى ، ولم يبق الا أن تمد بصرها ونشاطها الى المغرب العربى لتشمل كل المنطقة العربية .

ما كان لهذه القوى المعادية ، أن تنام عن هذا الخطر ، أو يهنأ لها بال ، حتى تسوى معه الحساب .. ولقد كان ميزان القوى فى يد هؤلاء الأعداء .

فالاقطاع الذى اتجهت لتصفيته التحولات الجديدة ، لم تكن ضرباتها فى الشام والمشرق العربى بنفس الحسم والقسوة التى ضرب بها فى مصر ، ولم يكن قد مر الوقت الذى يسمح للذبول باصابة نفوذه وتأثيراته العميقة الجذور .. ولم تكن العلاقات بينه وبين الأتراك مفقودة ، ولا الشرايين التى تربطه بالاستعمار التركى قد توقفت عن امداده بمقومات الحياة ..

ولقد كان هذا الثالوث الرجعى يعمل فى وحدة وانسجام ، مبعثها وحده مصالحه ، ووحدة مصيره ، والرعب الذى يمثله له النظام الجديد .

وفى الوقت الذى أخذت فيه الرجعية الفكرية الاقطاعية ممثلة فى عتاة المشايخ والمشعوذين الأتراك فى الآستانة ، تعمل بكل قواها ضد الانتفاضة المصرية العربية .

وأخذ فيه السلطان ينسق جهوده وامكانياته لمحاربة هـذه

التحولات ، فى ذلك الوقت أخذ الاستعمار الأوربى ، وعلى رأسه انجلترا ، تعد للأمر عدته .. فعقدت المحالفات مع شيوخ امارات الخليج العربى ، والجنوب العربى .. واحتلت « عدن » سنة ١٨٣٩ م كقاعدة هامة وضرورية ، لتهديد مصر ، وأخذت تقيم لنفوذها الركائز فى النظام العشائرى فى الشام ، ولدى رؤساء القبائل ، والاقطاعيين الذين أضيروا من النظام الجديد ، وأخذ أسطولها يتخذ لقطعه الأماكن والمواقع فى البحرين المتوسط والأحمر ، وفى المحيط الهندى والخليج العربى ، استعدادا للانقضاض على النظام الجديد .

على أن حديثنا عن أن ميزان القوى كان فى صالح التحديات التى بنيت فى مواجهتها التحولات الجديدة ، لا يعنى أننا نؤمن بأن انهيار هذه التجربة كان أمرا حتميا ، وأن النجاح الذى أصاب الثورة المضادة كان قدرا لا يمكن دفعه أو تلافيه .. كما لا يعنى ذلك أننا نعتقد بتلك الدورات التى يقال تلخيصا لنظامها ان « التاريخ يعيد نفسه » .. وكما جاء الصليبيون فأصابوا القوى الاجتماعية العربية الجديدة بسهام وجراح نزفت أزكى دمائها ، وفتحت أمامها باب عصر النكسة ، فان مجىء الاستعمار الأوربى ثانية بغير صليب ، وتحت أعلام التجارة والمال والاقتصاد العارية ، لابد أن يصيب

القوى العربية الجديدة بنفس السهام والجراح التي تسبب لها نزف أزكى دمائها ، والتي تفتح أمامها أبواب عصر انتكاســة حركة الأمة العربية كما انتكست من قبل حركة القومية العربية .

اننا لا نعني ذلك .. ولا نريد أن نقول ان التاريخ يعيد نفسه ، لأنه ، في الحقيقة لا يعيد نفسه ، وذلك على الرغم من أن النكسة قد حدثت بالفعل لهذه القوى العربية الجديدة .

وانما نريد أن نقول ، انه في الوقت الذى كانت فيه القوى الاستعمارية تجمع قواها وتحاصر التجـربة الجـديدة من كل الاتجاهات .

والاستعمار التركى يجمع خيوط نشاطه وعملائه وما خلف في الأذهان والعقول والقلوب خلال عدة قرون من خرافات وأوهام .

والاقطاع المضروب يلم فلوله ويجمع قواه ..

في الوقت الذى بنيت فيه قواعد هــذه الجبهة الرجعية ، ووزعت فيما بينها الأدوار ، في ذلك الوقت ، كانت قوى التحولات البرجوازية لا تقف على الأرض الصلبة التي تتيح لهـا امكانية الاستمرار والنجاح والانتصار .

فالبناء الصناعي والزراعي والتجارى الذى أقيم كقاعدة مادية لهذه التحولات كان أكبر من أن ترعاه وتحافظ عليه الدولة ..

الدولة كجهاز حكم ، بالصورة الذى أقيم بها فى ذلك الحين .. لقد أقيمت على أرض مصر والمشرق العربى « كمية » من التحولات والتغيرات ، ومجموعة من الأبنية الاقتصادية والاجتماعية الحديثة ، كان لابد وأن يقام لحمايتها جهاز شعبى ، وحركة شعبية عارمة ، تحميها ، وتثبت أركانها ، وتضمن لها التطور الى الأمام .

لقد كان النظام الذى أقيم فى ذلك الوقت أكبر من الجهاز الذى بنى ليحميه ويطوره ويرعاه .. ولم يكن هـذا النظام ، ولا هذه التحولات بأكبر من الشعب ، ولكنها كانت أكبر من الحركة المنظمة لهذا الشعب ، اذا جاز لنا أن نقول انه كانت يومها للشعب حركة منظمة . وما كان باستطاعة الحكم الفردي الذى سلك محمد على طريقه أن يضمن استمرار حياة هذا البناء .

كما أن هذا البناء ، وهذه التحولات ، ما كان لها أن تقف عند الحدود التى وصلت اليها ، فاما أن تتطور الى الأمام ، واما أن تنتكس الى الوراء بالتقهقر أو بالجمود الذى يحمل معنى الانتكاس .. وما كان لها أن تتطور الى الأمام بلا وعى بالتجربة وأبعادها ومستقبلها ، أى بلا نظرية ، أو ما يشبه النظرية ، وما كان لهذه النظرية ، أو شبه النظرية ، سواء فى التحول البرجوازى ،

أو فى العروبة وآفاقها ، أن تؤثر وتتطور ، الا بوجود التنظيم الذى يحملها ويملكها ويخوض بها معركة التطبيق [1] .

وهكذا نحس أن التجربة ، والبناء الذى أقيم فى مصر والمشرق العربى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، انما قام بلا قواعد تضمن له الرسوخ والاستمرار ، ومقاومة التحديات العاصفة التى كانت تقف له بالمرصاد ، لقد قامت هذه التجربة ، وهى مفتقدة الى الجناحين اللازمين ، واللذين لا غناء عنهما لأية تجربة متقدمة .. جناح التنظيم ، وجناح الوعى والنظرية .

أضف الى ذلك تلك الآثار التى ترتبت على المظالم الاجتماعية التى ألقى بها محمد على وحاشيته التركية ، على كاهل الشعب ..

(١) واذا كنا قد اشرنا الى انعدام الوعى بعملية التحول هذه لدى القيادة التى قادت عملية انجازها ، وعجز هذه القيادة بظروفها وملابسات وجودها وحكمها عن أن تبلغ مستوى هذا الوعى ، فاننا نعتقد ان الظروف الدولية يومئذ ، بما حملت الى شرقنا العربى من زحف استعمارى ، وما استعانت به من نفوذ للأتراك العثمانيين ، وما استندت اليه من سلطان للاقطاع والعشائر فى بلاد المشرق ، كل ذلك قد جعل من الظروف الدولية ، وميزان القوى فى السياسة العالمية يومئذ رياحا معاكسة لتجربتنا الجديدة ، سرعان ما تحولت الى اعصـــار أورد هذه التجربة حتفها وابلغها عصر نكستها فى سنة ١٨٤١ م .

وتلك المثالب والنقائص المتعددة ، وأعمال القسوة التى صاحبت قيام هذه التجربة ، وهذا النظام .. وما خلفت كل هذه الثغرات من ضعف وتفكك فى امكانيات التقدم والتطور بالنسبة لهذا النظام .

وهكذا وجدت التحديات المعادية لتجربة شعبنا البرجوازية ، وحركته العربية التوحيدية ، وجدت حركة الريح فى صالحها ، واتجاه الأحداث ، يقدم لها فرصة ذهبية لتضرب ضربتها ، وتبدأ ، مجتمعة ، فى تنفيذ المخطط الذى أحكمت رسم حلقاته ، وأجادت اعطاءه أغلب ضمانات النجاح .

٢

وكما كانت عين الحملات الصليبية ، ومن خلفها كل المدن والجمهوريات الأوربية التجارية ، لا تفارق القوى الاجتماعية العربية الجديدة ، تستهدف ضرب التجارة والتجار ، وطرق القوافل ، وتقيم لنفسها القلاع والحصون لمحاصرتها ، والامساك بزمامها وخيوطها ، حتى تحول دون نمو هذه القوى واشتداد ساعدها ، وبلوغها المستوى الذى لا يمكن القضاء عليها فيه ..

كذلك كانت أعين القوى الاستعمارية الأوربية فى أواخر

ثلاثينيات القرن الماضى ، على نفس القوى العربية التى بقيت من سالفتها أيام الحروب الصليبية ، والتى استمرت فى الوجـود والنمو حتى صلب عودها ، فاستطاعت أن تصنع هذه التحولات البرجوازية ، وأن تقيم هذا البناء .

واذا كانت هذه القوى الاستعمارية قد تركت فى أوطانها ذلك الصليب الذى أتت به وتحت ظله فى جـولتها الأولى ضـدنا ، ورفعت ، وهى قادمـة فى جولتها الثانية أعـلام التجارة والمال والاقتصاد ، فلقد أعان ذلك الوضع الجديد ، عـلى سـهولة اكتشاف الأهداف ، وتبين مواقع السـهام ، ونوع الدم الذى أرادت نزفه من الجراح .

فلقد كان فى مقدمة القيود التى أرادت هذه القوى أن تكبل بها القوى الجديدة ، قيد المعاهدة التجارية ، معاهدة « باليتمان » الانجليزية التركية المعقودة سنة ١٨٣٨ م .

لقد كانت الامتيازات الأربعة عشر التى أعطيت من قبـل السلطان العثمانى للدول الأوربية ، هى الصياغة الدقيقة لعلاقات القوى بين هذه الدول والامبراطورية العثمانية ، والاطار الذى استغلت من خلاله هذه الدول الاستعمارية امبراطورية التخلف والاقطاع ، الذى كان يجلس على قمته سلطان العثمانيين ، ولقد

كان لانجلترا امتيازها الذى حصلت عليه من السلطان سنة ١٥٧٩ م .

غير أن معاهدة « باليتمان » التى عقدت سنة ١٨٣٨ م ، انما كانت الاطار الاستغلالى الجديد ، الذى صيغ خصيصا لتحطيم النموذج المصرى الجديد ، واستقلاله ، والقضاء على التحولات التى أقامها ، والتجربة التى بدأت فى مصر والشام ..

لقد كانت هذه المعاهدة هى أولى حلقات الطبيق العملى للثورة المضادة ، لأنها كانت السهم السام الموجه ضد البناء المادى الذى كانت الحركة الجديدة احدى ثماره ونتائجه ..

فلقد نصت هذه المعاهدة على :

١ — السماح لرعايا بريطانيا بمزاولة مهنة التجارة ، فى سائر المنتجات الزراعية والصناعية ، بأنفسهم ، وبشكل مباشر ، فى جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك مصر والمناطق المتحدة معها فى الشام أو السودان ، وذلك دون قيد أو شرط .

٢ — الغاء الحظر المفروض على تصدير بعض السلع بمقتضى نظام التأميم والاحتكار الحكومى (وكان المقصود بذلك النص هو النموذج الجديد والتجربة الجديدة أيضا) .

٣ ـــ تمتع رعايا بريطانيا بامتياز الدولة الأولى بالرعاية ، بحيث تسرى عليهم فى الحال ، وبدون مقابل ، ومباشرة ، أية امتيازات تجارية أو جمركية ، تمنح لرعايا أية دولة أخرى .

٤ ـــ تحديد ضرائب الواردات على أساس ٣٪ ، بالاضافة الى ضريبة قدرها ٢٪ على تجارة التجزئة ، والغاء الضرائب الاضافية على الواردات .

٥ ـــ تحديد الضرائب على الصادرات بواقع ١٢٪ ، منها ٣٪ يدفعها المصدرون الأجانب .

* * *

فالى جانب فتح كل الأبواب أمام رعـايا بريطانيا وأفاقيها وتجارها ومغامريها ، بمقتضى هذه المعاهدة ، للاثراء ، والتجول والتجسس فى الوطن العربى ، وتكوين جالية بريطانية ، أو فى حماية بريطانيا ـــ حتى أن عدد السكان الأجانب الذين أتوا الى مصر وحدها قد تضاعف بتأثير هذه المعاهدة خمسة أضعاف حتى سنة ١٨٧٠ م .

الى جانب هذا الهدف الذى حققته المعاهدة ، فلقد وجهت سهامها أساسا ، وبالدرجة الأولى ، لتحطيم النظام الاقتصادى الجديد ، الذى أقيم بمصر والشام ، والقضاء على التحولات التى أقامتها القوى الاجتماعية الجديدة .

كما استهدفت هـذه المعـاهدة أيضـا فتح أوسـع أبواب الامتيازات ، وأكثرها ادرارا للربح ، وضمانا للكسب والاستغلال أمام الرعايا البريطانيين ، وأيضا تعبيد الطريق ، وفتح السوق العربى للسلع البريطانية ، فى ظل ضرائب تجعل هذه السلع فى مركز قوى لا تقاومها فيه سلع أية دولة أخرى ، ومن باب أولى السلع المصنوعة محليا .

ففى الوقت الذى تؤخذ فيه على الصادرات ضريبة قدرها ١٢٪ ، لا تؤخذ على الواردات عندما تباع جملة الا ضريبة ٣٪ فقط لاغير ، وذلك مع الغاء كافة الضرائب الأخرى الاضافية التى كانت تفرض على الواردات .

وهكذا نجد أن هـذه المعاهـدة ، قد استهدفت الصناعة الوطنية ، والتجارة الوطنية ، والتجربة الجديدة بشكل عـام . وأحكمت تدبير أسلحة النصر الاستعمارى فى هذه المعركة التى لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انها كانت بمثابة الجولة الثانية للحروب الصليبية التى داهمنا بها الغرب منذ قرون .

وبعد أن وقعت المعاهدة من قبل السلطان ، وصدرت بتنفيذها الأوامر والفـرمانات ، أخـذت انجلترا ، ومن خلفهـا الدول الاستعمارية الأخرى ، تدخل مرحلة جديدة .. هى مرحلة التنفيذ .. تنفيذ المؤامرة .. مؤامرة الثورة المضادة .

٣

وعلى الطريق الى تحقيق النصر الاستعماري ، كان لابد من المرور بمحطات عدة ، وخوض معارك فرعية ، ومحاولة خلق ركائز وقواعد تساعد الاستعمار على تحقيق الأهداف .

والذين يدهشون اليوم لبشاعة المخطط الاستعماري فى تحالفه مع الحركة الصهيونية ، وتلك الشركة بينه وبين قاعدته العدوانية ، اسرائيل ، وعدائها لحركة التحرر والتقدم والتوحيد العربية ، وعرقلتهما وتآمرهما ضد حركة الأمة العربية .. سيدهشون أكثر عندما يعرفون الجذور التاريخية لهـذه المحاولات الاستعمارية لاستخدام اليهود فى المعركة ضد الكيان العربى الواحد ، وضد التوحيد القومى العربى ، وضد أن تكون للعرب دولتهم الواحدة المجسدة لأمتهم الواحدة ، من المحيط الى الخليج .

والذين يعتقدون أن التآمر الانجليزى ــ الصهيونى ضد العروبة ، والوحــدة العربية ، قد بدأ بمحادثات « سايكس » البريطانى ، و « بيكو » الفرنسى ، أثناء الحرب العالمية الأولى ، واعدادهما مشروعا يرسم مستقبل فلسطين ، وأن هذا التآمر قد عرف طريقه الى التنفيذ بوعد « بلفور » فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م . سيجدون أن بداية هذا التآمر فى يوم أكثر عمقا وايغالا فى التاريخ .

وحتى تعى الأهداف الانجليزية ، التى تحدث عنها الكاتب البريطانى ، والنائب المحافظ « ايان جلمور » ، صاحب جريدة « الاسبكتاتور » البريطانية ، فى الدراسة التى أعدها لجريدته عن أسباب اعطاء بريطانيا « وعد بلفور » فى سنة ١٩١٧ م والتى لخصها بقوله : « ان قادة حزب المحافظين — ومعظمهم من الجيل الاستعمارى — قد رأوا فى ذلك الوقت (١٩١٧ م) أنه لابد أن يكون لبريطانيا قاعدة وسط الأرض العربية ، تحقق ثلاثة أهداف :

- تحول دون وحدتها بقطع امتدادها .
- وتصلح لضرب أى بقعة تتمرد منها على النفوذ البريطانى .
- وتقوم بدور « الأسفنجة » فى امتصاص كل الجهد العربى » .

حتى هذه الأهداف — علينا أن نبحث عن جذورها فى فترة أبعد من هذا التاريخ .

ففى سنة ١٧٩٩ م ، وعندما غزا نابليون بونابرت فلسطين ، بجيشه الذى خرج من مصر ، أصدر بيانا الى يهود العالم ليقفوا معه فى أهـدافه الاستعمارية ، ومحـاولا شراء تعاونهم معه ، وتحالفهم وايـاه ، فى نظير وعـــده اياهم ، « بأن يرثوا ملك بنى اسرائيل » (١) .

(١) محمود كامل (الدولة العربية الكبرى) ، وعبد المنعم الغزالى (اسرائيل قاعدة للاستعمار وليست أمة) .

وفى سنة ١٨٣٨ م ، أخذت بريطانيا تهتم اهتماما خاصا بالحركة اليهودية ، وتحاول أن تقيم معها من العلاقات ما يضمن لها استغلال هذه الحركة فى مصلحة الاستعمار البريطانى ، وفى عرقلة امكانية قيام الكيان العربى الواحد .

ففى هذا العام عينت بريطانيا أول قنصل لها فى مدينة « القدس » وطلب منه وزير الخارجية البريطانية « بلمرستون » الاهتمام بالمسألة اليهودية ، وقال له : « .. وعليك أن تنتهز أول فرصة لتقدم لى أول تقرير عن الحالة الحاضرة لليهود من سكان فلسطين » [1] .

وكانت انجلترا تلمح فى ذلك الوقت ، فى الحركة اليهودية ، وحتى قبل قيام الحركة الصهيونية العنصرية الرجعية الحديثة ، خميرة التفكير الرجعى العنصرى .. لأن وهم اليهود عن أنهم « شعب الله المختار » يفتح الطريق واسعا لسيرهم فى هذا الاتجاه .

ولقد أخذت هذه الاهتمامات والتقارير ، تنمى العلاقات بين الاستعمار البريطانى والحركة اليهودية ، حتى أن عام ١٨٤٠ م ، وهو العام الذى شهد عددا من الخطوات التنفيذية التى اتخذتها بريطانيا ضد التحولات العربية البرجوازية والحركة العربية

---

(١) جورج كيرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط) ..

التوحيدية ، لم يكد يحل حتى كتب وزير الخارجية البريطانى « بلمرستون » رسالته الخطيرة الى السفير البريطانى فى الآستانة والتى قال له فيها هذه العبارة : « ويكون من مصلحة السلطان الواضحة ، أن يشجع اليهود على العودة الى فلسطين ، والاقامة فيها ، لأن ما سيحملونه معهم الى البلاد من الثروة يزيد من موارد دولته ، وأن الشعب اليهودى بعودته الى البلاد ، باذن السلطان وفى حمايته ، وبدعوة منه ، يكون حجر عثرة فى سبيل أى أهداف سيئة تخطر فى المستقبل بباب محمد على أو من يخلفه .. فضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية ، بصفة سرية ، وأبذلُ وسعك فى اقناعها بأن تقدم كل تشجيع عادل ليهود أوربا لأن يعودوا الى فلسطين » [1] .

فالوزير البريطانى يرى فى هجرة اليهود الى فلسطين ، وابراز كيانهم ، مصلحة السلطان ، ومن ثم مصلحة الأهداف المشتركة ، أهداف الحلف الرجعى الاستعمارى التركى . كما يرى فى ذلك حجر العثرة الأساسى فى سبيل أهداف محمد على أو من يخلفه فى تنفيذ سياسته .

وفى هذه الكلمات القليلة تتركز بداية السياسة البريطانية فى

(١) المرجع السابق .

استخدام الحركة اليهودية ، فالصهيونية ، فاسرائيل ، لضرب الكيان العربى الواحد ، واعاقة حركة الأمة العربية التوحيدية ..

ومنها يتضـح لنا ذلك الوضــوح فى الرؤية لذلك الداهية البريطانى « بلمرستون » ، فى هذه المشكلة منذ سنة ١٨٤٠ م .

وهكذا كانت الحركة اليهودية احدى القواعد الاستعمارية الرجعية ، فى معركة التخلف الرجعى ضد تحولاتنا الجـديدة ، وما أثمرت من حركة ذات طابع عربى توحيدى ، ونموذج جديد شهده وطننا العربى فى ذلك التاريخ [1] .

٤

أما القاعدة الثانية التى أخذ الاستعمار البريطانى فى اقامتها فى قلب العالم العربى ، لضرب التجربة الجـديدة ، فكانت تلك التجمعات الرجعية الاقطاعية ، والركائز التى أخذ فى اقامتها من رؤساء العشائر ، والمشايخ والاقطاعيين ، وكل العناصر والفئات والطبقات التى أضيرت من النظام الجديد .

---

(١) لتقويم دور الحركة اليهـــودية الرجعيـــة ، والمنظمات الصهيونية ، ثم اسرائيل فى معركة الأمة العربية ضد اعقائها فى سبيل التحرر والتقدم والتوحيد ، مكان آخر فى دراسة مستقلة عن (اسرائيل .. هل هى سامية) ؟!..

ووصولا الى هــذه الغاية غير النبيلة ، أرســل الاستعمار بجواسيسه المدربين ، ورجاله الأكفاء ..

واذا كان التاريخ الاستعمارى قد قدم فى فتراته المختلفة ، وسنيه المليئة بالأحداث والمواقف الحرجة ، والتحولات الهامة ، قد قدم لنا نماذج من رجال التجسس الذين لعبوا أدوارا خارقة ، وقاموا بمهام معجزة فى هذه الأحداث ، قدم فى فترة الحــرب العالمية الأولى ، والثورة العربية التي عاصرتها : « لورنس » .. وقدم فى أحداث ثورة أكتوبر الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩١٧ م « سيدنى رايلى » .. فانه قد قدم فى أحداثنا التى نتحدث عنها فى بلاد المشرق التى كان يحضر فيها معركته الكبرى ضد الدولة العربية الموحدة ، قدم جاسوسه الأول « المستر وود ».

والدكتور مشاقة يتحدث عنه فى كتابه : (مشــهد العيان ، بحوادث سورية ولبنان) فيقول : « .. دخلت سنة ١٨٣٩ م ، والأمور فى سوريا على ما رويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال ، شاء ربك تغييرا فى البلاد ، فجاءها جاسوس من قبــل الدولة الانكليزية ، ونزل فى « كسروان » ، واتخذ من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد » .. دخل الرجل الذى سميناه جاسوسا ، واسمه الحقيقى « وود » وكان ترجمانا لقنصل دولته فى الآستانة ،

وأظهر فى بادىء الأمر ميلا غريبا لتعلم اللغة العربية ، وتغلب على أمياله لدرس أحوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحا أعماها عن معرفة غرضه الرئيسى ، .. ولا مشاحة أن دولة الانجليز أكثر الدول استعمارا ، وكأنها أوجست خيفة من الدولة المصرية ، التى مع حداثة نشأتها ، أصبحت فى مصاف الدول المرتقية ، كأنها لحظت أن محمد على باشا يطمع بعد ضم البلاد ، فى أحياء الدولة العربية القديمة ، وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها فى تنظيم أحوال الرعية ، قامت على أساس العدل ، وجارت الدول المتمدينة ، ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا — نابليون مصر — بل ذكرته ، وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها فى الاستعمار ، فرامت مقاومتها ، ولذلك أرسلت رجلها الذى ذكرناه ، فأخذ يلقى بذور الشقاق فى قلوب الأهالى ، ويوعز صدورهم على الحكومة الحالية ، وجعل مركزه جبل « كسروان » [1] .

---

(١) راجع (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) لمحمد على الفتيت ، و (عصر محمد على) للرافعى ، كما أن حديث الدكتور مشاقة عن عدالة النظام الجديد لا ينفى مظالمه ، لان الرجل انما يقارن هنا بين هذا النظام وبين حكم الأتراك العثمانيين .

وهكذا استطاع الدكتور مشاقة أن يحدد لنا بوضوح نوع المهام التى أخـذ يقـوم بها كبير الجواسيس الانجليز ، المستر « وود » فى بذر بذور الشقاق فى قلوب الأهالى ، كما أخذ يوغر صدورهم ضد الحكومة .. وأخذ فى الانتقال من مكان الى مكان آخر ، ومن عشيرة الى أخرى ، وان كان قد جعل وكر نشاطه جبل « كسروان » .

ونحن نلاحظ من خط سير هذا الجاسوس وغيره من أعـداء النظام الجديد ، أن البلاد التى استطاعوا أن يخلقوا فيها ركائز لأفكارهم ونشاطهم ، انما كانت خارج المدن الكبرى والمتوسطة ، وبالذات كانت هذه المراكز فى القرى والريف .. لا عند الفلاحين ، وانما لدى العشائر ورؤسائها ، ولدى طبقة الاقطاعيين ، الذين وجه اليهم النظام الجديد العديد من الضربات ..

ومن هذه المراكز كانت الأحداث والاضطرابات التى أخذت توجه ضد النظام الجديد .

وحتى نلقى ضوءا على نوعية العناصر والقوات التى تعاونت مع الاستعمار الانجليزى والأتراك فى الثورة المضادة فاننا نقدم [illegible] أنها هامة ، وتلقى ضوءا على القوى التى وقفت ضد [illegible] .. نقدمها كمجرد نموذج فقط لاغير ..

فالشيخ « صالح الخازن » أحد الاقطاعيين الذين أضيروا من الاصلاح الذى أصاب الأرض والفلاح فى الشام ..

وبعد أن تعاون مع المستر « وود » ووضع جهده وامكانياته فى خدمة الجيوش المتحدة (الانجليزية والتركية) عندما غزت الشـام لتحارب الجيش المصرى ، وتجبر مصر على الخضـوع لاتفاقية يوليه سنة ١٨٤٠ م .

وعندما وضعت هذه الحرب أوزارها ، ووصلت الثورة المضادة الى ما تريد ، بعث الشيخ « صالح الخازن » هذا الى المسـتر « وود » بخطاب يذكره فيه « بخياناته » التى سماها « خدمات » للجيوش المتحدة وطلب منه شهادة بهذه « الخيانات » حتى يقبض الثمن ، ويحصل على « المعلوم » !!!.. ورد عليه المستر « وود » بهذا الخطاب .. بل بهذه الوثيقة .. قال .. « .. أتشرف بانبائك أنى حظيت بكتابك ، وبه تطلب الى أن أعدد الخدمات التى أديتها لقوات الدول المتحدة فى عامى ١٨٤٠ و ١٨٤١ م ، وسأجيبك بسرور الى رغبتك ، شاهدا أنه فور وصول قوات الدول المتحدة الى سوريا سـنة ١٨٤٠ م ، أسرعت الى التقيد بأوامر السيد « روبرت ستوبفورد » القائد العام ، والشيخ « أحمد باشا » .

وكان مثلك لحصن قلعة ، فاتبعك الكثيرون من أبناء وطنك ، مما حمل قوات الدول المتحدة على تسليمهم مطاردة العدو فى

لبنان . وبعد أن استظهرتم عليه ، وتم لكم الفوز فى « قضـاء كسروان » وافيتنى الى « قب الياس » فى البقاع ، حيث كنت مع جيش الأهالى مراقبا حركة العدو فى زحفه ، وبعد تقهقره فى الشام رافقتنى الى « طبرية » حيث منعت العدو المتراجع من عبور نهر الأردن والاعتصام بجبال نابلس ، واضطرته الى الانتشار فى الصحراء حيث فقد عددا كبيرا من رجاله .

وفى « طبرية » انحرفت صحتك ، فأذن لك بالرجـوع الى « كسروان » . ولما كان « بشير » قد حجز بعض أملاكك واستولى عليها ، كتب اليه القائد العام موعزا اليه بردها اليك ..

ولا أتذكر ذات العبارات التى استعملها سعادة القائد توفية لقامك حقه ، نظرا لطول المدة ، ولكن يمكننى أن أوضـح بأن اجتهادك لتقديم خدمات نافعة للقوات المتحدة أهلك للحصـول على اعتبار الحكومة لها عظمتها وحمايتها (يقصد بريطانيا) وفى الختام ، أغتنم هذه الفرصة لأجاهر بالغيرة والحمية اللتين أبديتهما أثناء وجودنا فى سوريا . ولى الشرف أن أكون أيها السيد خادمك المطيع والأمين »[1] .

التوقيع « وود »

(١) (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حـرب السويس) لمحمد على الغتيت .

بمثل هؤلاء الناس استعانت بريطانيا وتركيا فى حربهما ضــد النظام الجديد ، لأن مثل هؤلاء الناس هم وحدهم الذين كانوا أصحاب المصلحة الحقيقية فى ازالة هذا النظام .. لأن « صــالح الخازن » هذا ، وغيره من الاقطاعيين انما كانوا هم الطبقة الطفيلية التى تمتص دماء الفلاحين ، وتقوم بالمصادرات ، والذين ضربت مصالحهم بالتغيرات الاجتماعية التى تحدث عنها مؤرخون وباحثون كثيرون فى مؤلفات كثيرة ، والتى كان كتاب (ابراهيم باشا فى سورية) للباحث السورى « سليمان بك أبو عز الدين » أحدها ، ذلك الكتاب الذى جاء فيه : « من التغيرات الاجتماعية التى نشأت عن حكم محمد على فى سوريا ، اطلاق الحرية الدينية ، ونشر روح الديمقراطية بالضرب على أيدى الزعماء والمتغلبين ، ونزع السلطة من أيديهم ، وانشاء العلاقة بين أفراد الشعب وحكامه مباشرة ، وتأليف مجالس مشورة تمثل الشعب بعض التمثيل ، ولها حق النظر فى الشئون المحلية ، بعد أن كان النظر فى جميع الشئون منوطا بحكام مستبدين » [1] .

فهل بعد هذا الحديث شك فى أن ما حدث فى سنة ١٨٤٠ م فى الشــام انما كان ثورة مضــادة قادها الاستعمار والرجعية

---

(١) (عصر محمد على) للرافعى .

والاقطاع والأتراك .. سرا وعلنا ، بالمال والجيش والجاسوسية .. بالشعوذة وقوة العادة ، ضد البناء الجديد وجيشه الوطني ، وضد النظام الاجتماعي والاقتصادى والسياسى والثقافى الوليد ؟ [1] .

لقد كانت ثورة مضادة بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى .. ومقاومة عنيدة « من جانب بريطانيا لمحمد على وابنه ابراهيم فى محاولتهما الرامية الى تحرير العرب من الحكم التركى وتأسيس دولة عربيـــة مستقلة فى الولايات العربيـــة من الامبـــراطورية العثمانيـــة » [2] .

وفى هذه المحادثات التى دارت بين وزيرى خارجية كل من فرنسا وانجلترا ، « جيزو » و « بلمرستون » قبل استخدام القوة المسلحة ضد الجيش المصرى ، أبلغ دليل على دور الاستعمار ، والاستعمار الانجليزى بالذات ، فى هذه الأحداث ..

هذه المحادثات التى جاء فيها :

(« بلمرستون » : ان بيروت أهم ميناء على الساحل السورى ، ولابد من احتلالها ، فمن هذا الميناء نستطيع قطع مواصلات

---

(1) ولعل فى ذلك ابلغ رد على حديث الكاتب اللبنانى « يوسف خطار الحلو » فى كتيبه (العاميات الشعبية فى لبنان)

(2) د . نجلاء عز الدين (العالم العربى) ص ٤٧٦ .

« الباشا » وتقديم العون الفعلى للثورة التى سوف تقوم بها ضده فى سوريا ولبنان .

«جيزو » : نعم ، انك تتحدث عن ثورة تقوم ، وتلقى تأييــدا منكم ، ولكن أين هى هــذه الثورة التى لا أثر لهــا ، ولم نستطع حتى الآن اشعالها ؟؟! .

« بلمرستون » : انها ستشتعل عندما نجد لها نقطة ارتكاز ، ان مستر « وود » مندوبنا هناك يجوب أنحاء لبنان ، وقد التقى بأهم زعماء العشائر ورؤساء العائلات ، وبالأمير « بشير » نفسه ، وصرحوا له جميعا بأنهم حينما يشاهدون العــلم التركى يخفق عــلى بيروت ، تؤيده القــوات الكافية ، فسيحملون أسلحتهم ويشعلون نار الثورة ضد الباشا الذى أصبحوا لا يطيقون حكمه)[1] .

وفى هذه العبارة الأخيرة تلخيص للموقف ، وتحديد لمسير أحداث « الثورة المضادة » فى بلاد الشام ، فمستر « وود » عندما قابل وتآمر ، فانما كانت مقابلاته وتآمره مع رؤساء العشائر

---

(١) محمد على الشنيت (الشرق والغرب من الحروب الصليبية حتى حرب السويس) .

والقبائل والعائلات .. وهـذه القـوى الرجعية عندما وعدت الاستعمار بالخيانة ، فلقد اشترطت أن ترى بأعينها العلم التركى يخفق فوق بيروت ، ومن حوله « القوات الكافية » ، .. وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، سيحملون سلاحهم ويشعلون الثورة ضد الباشا « الذى أصبحوا لا يطيقون حكمه » .

وهكذا نجد « بلمرستون » يحدد ، لا دور الاستعمار فقط ، بل ودور الرجعية العربية فى الحرب ، ذلك الدور الشبيه بدور اليهود الناكصين عن الحرب مع نبيهم موسى ، عندما قالوا له : (اذهب أنت وربك ، فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون) .

وما كان للرجعية العربية فى هذه الردة ، والثورة المضادة ، أكثر من دور الأدلاء ، والجواسيس ، والعيون ، ومشيعى الهزيمة، وكاشفى عورات الجيش المصرى ، ومواقع المقاومة والدفاع .

وخـلال عامى ١٨٤٠ و ١٩٤١ م دارت على أرض الشام معارك عديدة ، واستبسل الجيش المصرى فى الدفاع ..

ولكن .. ما كان لهذا الجيش أن يتحمل كل أعباء المعركة ، ومن حوله كل نواقص النظام الجديد، التى تحدثنا عنها فيما مضى ، فيما يختص باحتـرام الشعب وتنظيمه ، والوعى ، والمظـالم الاجتماعية التى خلقها النظام نتيجة لوجود حاشية تركية أحاطت

بمحمد على ، وشغلت مكانا هاما فى جهاز الدولة بمصر فى ذلك الحين .

ما كان للجيش المصرى وحـده أن يقف فى وجه الجيش الانجليزى والأسطول الانجليزى ، والجيش التركى ، ومن حولهما القواعد البريطانية فى عدن والخليج العربى ، ومن خلفهما امكانيات الدول الاستعمارية جمعاء ، المادية ، والأدبية ، تلك الدول التى عقدت معا اتفاقية يوليو سنة ١٨٤٠ م ، التى أجبرت بمقتضاها محمد على على الانسحاب من الشام .. ولقد كانت هذه الدول هى بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا .. والتى أيدتهم فرنسا فيما بعد .. وهم يمثلون الأغلبية الساحقة من ثقل المعسكر الاستعمارى فى ذلك الحين .

ورغم القوة الساحقة والمخيفة التى كانت تمثلها هذه الدول ، ورغم الطغيان الذى واجهت به مصر وجيشها ، ورغم أن تهديدها لم يكن قاصرا على الشام ، وانما كان موجها ضد مصر ، واستقلالها عن العثمانيين .. رغم ذلك فلقد قاومت مصر مقاومة جادة ، فى ميدان الجيش والحرب العسكرية وفى ميدان السياسة والعمل الدبلوماسى بشكل يدعو الى الاعجاب .

ولكن الموجة الاستعمارية كانت عاتية ، والاعصار الرجعى

كان شديد الاكتساح ، وعتو التحديات المعادية للتجربة الجديدة ، كان أقوى من أن تقف فى طريقه هذه المقاومة التى قام بها الجيش المصرى فى الشام ، رغم البطولات التى أتى بها هذا الجيش فى مواجهة التفوق العددى وفى العدة ، وفى مواجهة الخيانة وتحالف الرجعية العربية مع الغزاة الأتراك والانجليز ، ولا أن تجدى فى صدها تلك الروح العالية التى وزعت السلاح على العمال المصريين وطلبة المدارس الحربية ، ليجابهوا خطر نزول الغزاة الى مصر .

ولا أن تقف فى طريقها ، وتكسب المعركة ضدها ، تلك الوسائل الدبلوماسية التى استخدمها النظام الجديد ، ضد هذا الغزو ، وهذا العدوان .

ونجحت الثورة المضادة .. وعاد الجيش المصرى من الشام .. ورفرف العلم التركى مرة أخرى على المشرق العربى ، وحمل الى مدنه وقراه نفوذ الاقطاع ، واستغلال الأتراك .. وسلطة الامتيازات الأوربية التى كان على رأسها هذه المرة معاهدة « باليتمان » البريطانية .. العثمانية سنة ١٨٣٨ م .

وتحقق للاستعمار هدفان من الأهداف التى رسم لها وأعتزم تحقيقها .. أولها : حصر القوى الاجتماعية المصرية الجديدة داخل حدود مصر .. وثانيها : ضرب القسمة العربية لهذه الانتفاضة التى أعلنتها مصر ضد الأتراك .

٥

ولم يكن للاستعمار الأوربى والتركى ، وللقــوى الرجعية الاقطاعية المتحالفة معه ، أن تقنع بما أحرزت من نصر مؤزر ضد محمد على ، والتجربة التى قاد بناءها ، ولا أن تقف عند هذه الحدود .. حدود ضرب الوجه العربى لهذه التجربة ، وحصار القوى الاجتماعية الجديدة داخل الحدود الضيقة لاقليم مصر ، وعدم السماح لها بتخطى هذه الحدود فيما عدا السودان .

لم يكن لقوى الأعداء هذه أن تقنع من الغنيمة بهذا القدر الكبير .. لأن الاستعمار الأوربى الذى خاض هذه المعركة ، ممثلا بالدرجة الأولى فى الاستعمار البريطانى ، قد أدرك من خلالها خطورة هذه الثورة ، وخطورة هذا البناء العربى العملاق الذى يمكن أن تقيمه وترفعه وتشيده قوى اجتماعية جديدة ، تملك المستقبل ، وتبنى فى عزم ، وتعطى بناءها الشباب ، والحيوية ، وكل امكانيات الحياة .

وكما كانت أعين الحملات الصليبية ، على هــذه القــوى الجديدة ، تبغى تحطيمها واعاقة سيادتها ، وضمان ألا يأتى المجتمع الذى تبنيه ..

فكذلك كان الاستعمار الانجليزى ، والهدف الذى سعى

اليه .. فما كانت تكفيه اتكاسة الأفكار العربية لهذه الحركة ، وتحطيم وجهها العربى ، ولا محاصرة قواها الشابة داخل احدى الولايات العربية ، وهى مصر .. وانما أراد تحطيم هذه القوى نفسها ، واعادة الاقطاع والرجعية الى مقدمة مسرح السياسة والفكر والاقتصاد فى مصر ، كما أعادهم الى هذا المكان البارز على مسرح الأحداث بالشام .

* * *

وكمظهر من مظاهر فاعلية عوامل النكسة ، وبداية استرخاء قبضة النظام الجديد ، بدأ الريف المصرى يشهد شكلا ان لم يكن هو « الالتزام » فهو قريب وشبيه بنظام الالتزام ..

فقبيل الأربعينيات ، أخذت الحكومة تلجأ فى جمع الضرائب وجبايتها الى نظام عرف بنظام « العُهَد » ..

فالقرية الفقيرة تعتبر ضرائبها « عهدة » فى ذمة القرية الغنية المجاورة ، و « الحائز » العاجز عن سداد التزاماته ، تصبح التزاماته « عهدة » فى ذمة جاره وأهل قريته ..

وهكذا أخذ نظام « العُهَد » أو « التضمين » يعرف طريقه الى الانتشار ، كمظهر من مظاهر ضعف جهاز الدولة ، وعجزه عن القيام بالتزاماته ، وأخذت الوحدات القائمة على « العهد »

و « التضمين » تعيد الى الذاكرة ذلك الشـــكل الذى اتخذه الاستغلال الزراعى فى مصر من قبل ، وهو نظام الالتزام ودوائر الالتزام .. وان تكن الفروق الجوهرية والأساسية ظلت تفرق ما بين هذا النظام ونظام الالتزام .. ولكنه على أية حال كان علامة ضعف للتجربة الزراعية الجديدة .

* * *

ومظهر ثان من مظاهر فاعلية عوامل النكسة ، تجلى فى التغيرات التى اعترت نظام الملكية الزراعية فى البلاد ، فبعد أن كانت أشكال الاستغلال الاقطاعى فى الأرض قد انتهت ، وقضى عـلى نظام الالتزام ، والامــارات الاقطاعية للممــاليك ، ونظام تفاتيش الأوقاف .. وحل محل ذلك نظام جديد سبق الحديث عنه ، وبعد أن كانت الدولة قد حرمت أن تقوم فى «الأبعديات» و «الشفالك» علاقات انتاج اقطاعية ، وحرمت على حائزيها ، وعلى « العربان » الذين منحوا أرضا لاستصلاحها والاستقرار عليها ، أن يؤجروها الى الآخرين ، وطلب اليهم سنة ١٨٣٨ م أن يعملوا فيها بأنفسهم ، والا منحت لآخرين يعملون فيها بأنفسهم ..

بعد هذا النظام الزراعى ، عادت الدولة فى السنوات الأولى للنكسة ، سنة ١٨٤٢ م ، الى اطلاق حرية أصحاب « الأبعديات » و « الشفالك » و « الأعراب » ، فى أن يقيموا داخل أملاكهم ،

علاقات الانتاج التى يشاؤون ، وأن يتصرفوا فى هذه الأملاك كما يشاؤون .

وكان فى هذا التغير ، وتلك الاباحة ، بداية ظهور طبقة كبار الملاك العقاريين وأغنياء الريف ، الذين تطور وضعهم سريعا ، وازداد نفوذهم ، وتضخمت ثروتهم ، وعندما أسعفتهم اللائحة السعيدية ، فقننت وشرعت وقعدت هذه المكاسب التى منحتهم اياها سنوات النكسة ، وجدت بمصر طبقة كبار الملاك (الاقطاعيين) .

وهكذا كانت نكسة جديدة فى النظام الزراعى ، وردة فى حل مشكلة الأرض ، جسمت احدى قسمات الردة والنكسة التى أصابت القوى الاجتماعية الجديدة فى البلاد .

* * *

ونفس العام ، سنة ١٨٤٢ م ، الذى شهد هذه التطورات والتغيرات فى ميدان الأرض بمصر ، قد شهد قمة نجاح الاستعمار فى فرض سلطانه المالى والاقتصادى والتجارى على التجربة المصرية ، بأن أرغم البلاد على الخضوع لشروط معاهدة « بالیتمان » التجارية التى عقدتها انجلترا مع السلطان سنة ١٨٣٨ م .

واستطاعت بريطانيا عن طريق هذا الكسب المادى الهام ، أن تضع القيد فى قدمى مصر ، بل وأن تضع الحبل فى عنق هــذه التجربة ، لأنها بهذه الاتفاقية قد سيطرت على القاعدة المادية لهذه التجربة ، وضمنت نزف دمها ، ومن ثم سلبها مقومات الحياة .

واننا نجد فى العديد من الوسائل والأساليب التى لجأ اليها محمد على للتهرب من تنفيذ شروط هذه الاتفاقية ، كأن تتقاضى الحكومة أغلب الضرائب من الفلاحين عينا ، فتحصل بذلك على معظم الحبــوب التى سيجرى عليها البيع والشراء ، حتى تحرم التجار الأجانب معظم حجم التجارة التى أباحت لهم معاهــدة سنة ١٨٣٨ م التعامل فيها مباشرة مع الفلاحين .

ان فى هذه الأساليب ما يبين أن تطبيق هذه المعاهدة كان معركة ضارية بين الاستعمار وأعوانه ، وبين التجربة التى ظلت تقاوم عوامل النكسة وظروفها وقتا غير قصير .

* * *

ولم يكن أثر هذه المعاهدة المدمرة ، قاصرا عــلى التجارة والحاصلات الزراعية فقط ، بل لقد كانت موجهة بوحشية وقسوة الى الصناعة الوطنية التى أقامها النظام الجديد ..

وذلك لأن تخفيض الضرائب على الواردات ، قد جعل البلاد

تجبر على التحول الى سوق للسلع الأجنبية التى زاحمت وسحقت الصناعات الوطنية الناشئة ، والمحتاجة الى حماية جمركية تضمن لها رسوخ القدم ، وصلابة العود .

كما أن زيادة الضرائب على الصادرات ، قد قلل منها ، ومنع سلعنا الوطنية من أن تكون منافسا ذا قيمة للسلع التى يصدرها الاستعمار الى مختلف الأسواق ، كما أدى ذلك الى أن يكون ميزان المدفوعات ، والميزان التجارى ، فى غير صالحنا باستمرار .

وهكذا أدت هذه العوامل مجتمعة ، بالتجربة التى أقيمت بمصر الى الفشل ، لأن سقوط القاعدة المادية للتحولات البرجوازية فى الصناعة والتجارة والزراعة ، قد كان ايذانا ببداية عهد من الانتكاس للبناء الفوقى الذى أقيم على دعائم هذه القاعدة المادية الجديدة .. انتكاس الثقافة الحرة الجديدة .. انتكاس القيادات الفكرية الجديدة .. انتكاس القيم العربية الشابة .. انتكاس السياسة التى كان ينبع تقدمها من تقدم هذا النظام .

وشاءت الأحداث والتطورات ، أن يسجل التاريخ لتطورنا القومى والحضارى والثورى ، انتكاسة كبرى بدأت فى سنة ١٨٤١ م ، كتلك التى شهدتها المنطقة العربية عندما ران عليها من الأحداث والعوامل والظروف ما أصابها بالنكسة التى حلت

بها سنة ١٣٠٠ م ، والتى استمرت حتى بداية عصر البرجوازيات العربية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وفى سنة ١٨٠٥ م على وجه التحديد .

ولقد كان أصدق تعبير عن هذه النكسة فى البناء الفوقى ، فيما يتعلق بالثقافة الجديدة والفكر الجديد ، تلك الردة الرجعية التى شهدتها مصر عندما تولى حكمها عباس الأول ، فأغلقت المدارس ، ودور التعليم ، ونفى الى السودان رفاعة رافع الطهطاوى ، وخيرة العلماء والمفكرين ورجال الثقافة ، والاختراع ، والترجمة .. وران على البلاد جو من الحزن والاكتئاب ، وخيم عليها ما يخيم على الأماكن المهجورة من عوامل الصمت وظروف المأساة .

الباب السابع

السياسة المصرية تدير ظهرها للعروبة

١

ولقد كان طبيعيا أن يؤدى التحلل الذى أصاب القاعدة المادية للتحولات البرجوازية فى مصر ، والاضمحلال الذى أصاب بناءها الفوقى ، واختفاء الوجه العربى لهذه التجربة الجديدة ، أن يؤدى ذلك الى اختفاء الأهداف العربية ، والشعارات العربية من الميدان ، وأن تتقلص مساحة الدائرة العربية التى كانت الأبصار تتحرك فى حدودها ، وأن ينجح الاستعمار فى احاطة مصر بسياج يجعل تطورها غير وثيق الصلة بتطور باقى الولايات العربية العثمانية ، وأن تنجح القوى المعادية فى تفكيك العديد من الوشائج والصلات التى تربطنا بالعرب ، واضعاف الخيوط التى تشد نسيجنا الاقتصادى والاجتماعى والفكرى الى نسيجهم ، وأن تفتح أمام

وطننا باب النمو الذاتى المستقل بعيدا عن الانصهار الكامل مع سائر الجماعة العربية فى الوطن العربى الكبير .

غير أن النجاح الذى أحرزه الاستعمار فى هـذا الصدد ، لم يصل الى المستوى الذى شاءه المستعمرون .

فعودة السيطرة الاقطاعية الى مصر فى شكل كبار الملاك ، وتحطيم الصناعات الوطنية ، وانتكاسة التقدم الفكرى والثقافى ، رغم أنها قد أصابت مصر فى الصميم ، وأفقدت حياتنا السياسية طابع العروبة ، الا أن هذه النكسة لم تفرغ المجتمع المصرى تماما من طاقاته الكبرى ، والنامية .

ورجعية الحكام الجـدد منـذ عباس الأول ، لم تقلل من طموحهم ، وان جعلته طموحا غير موجه فى الاتجاه السليم .

فبدلا من التطلع الى الدائرة العربية ، والسـير على درب التوحيد العربى ، والحياة فى اطار من القيم العربية القومية ، والسعى لبناء مقومات الأمة الواحدة ، نشأ الانحراف العدوانى لحكام مصر الرجعيين نحو أفريقيا .

وخاضت البلاد حروبا فاشلة ، وحملات أتت بأوخم العواقب على البلاد .. فأرهقت الحكومات الرجعية كاهل الشعب فى الاتفاق على حملات حربية وجهتها ضد الحبشة والصومال .

ولم تحرز فى هذا الميدان نصرا ، وانما أضافت الى فشلها جراحا كبرى ، وعوامل كثيرة كونت فى مجموعها مأساة من أسوأ ما شهدته بلادنا فى ذلك التاريخ .

* * *

وعقب هذا الفشل الذى أصيبت به موجة « الغزو الافريقى » التى قامت بها السلطات الحاكمة فى مصر ، وبعد خيبة الأمل التى منيت بها هذه السلطات ، نشأت نظرية جديدة تدير ظهرها لأفريقيا كما أدارت ظهرها للعرب والعروبة من قبل ، تلك هى نظرية حوض البحر المتوسط ، وأن مصر جزء من حوض البحر المتوسط .

ولقد لعب الاستعمار عامة ، والاستعمار الفرنسى بوجه خاص ، دورا أساسيا فى تنمية الاتجاه السياسى والفكرى الذى حمل هذا الشعار .

فليس صحيحا ذلك الوهم الشائع من أن أول من دعا هذه الدعوة فى مصر هو الخديوى اسماعيل ، يوم قال كلمته المشهورة : « ان مصر قطعة من أوربا » .

حقيقة ان اسماعيل يوم أن قال هذه الكلمة ، انما كان يعيش فى اطار من الفكر والنفوذ الفرنسى ، الذى أخذ يتزايد فى مصر منذ حكم سعيد ، ومنـــذ أن حصل المغامر العالمى « فرديناند

ديلسبس » على امتياز حفر قناة السويس ، ولكن هذه النظرية التى تحدد لمصر طريقها الذى يجب أن تسلكه قد سبقت هــذه الفترة التاريخية بزمن طويل .

فلقد كان مفكرو البرجوازية الفرنسية هم أول من جعل من هــذه الفكرة نظرية .. وحاولوا أن يضعوها ، عن طريق جيش الحملة النابلونية ، موضع التطبيق ..

لأن هــذه النظرية تعنى أن فرنسا ، ومعها بلاد الشــمال الافريقى ، ومصر ، ودول الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، انما تعيش جميعها حول البحر المتوسط ، وأنه لو « صنعت » رابطة ما لهذه الأقطار فمن الممكن أن « تتقارب » ، وأن يتحول هذا « التقارب » الى سيطرة فرنسية على هذه الأقطار ، وتبعية من جانب هذه الأقطار لفرنسا .

وهذا المستوى من مستويات التفكير هو الذى دفع بعض علماء الأزهر ، من الجناح الرجعى المستسلم لنابليون ، الى التحدث فى رسالة منهم اليه فى يوم من أيام احتلاله لبلادنا ، عن مصر ، التى تكون مع فرنسا « أمة واحدة » !!

وهو الذى جعل الفرنسيين يتدعون تلك النظرية التى دافعوا عنها كثيرا ، بالفكر والسلاح واراقة دماء الملايين ، والتى أرادوا من ورائها « اثبات » أن شمال أفريقيا ، والجزائر بالذات ،

انما هى قطعة من فرنسا ، وأن سكانها مسلمون فرنسيون ، وأنها الامتداد الفرنسى فى افريقيا .

وهو الذى جعل الفرنسيين يرون ، كما قال أحد مفكريهم : « أن السوريين ليسوا بعرب ، ولو كانت لغتهم عربية ، واللبنانيون يختلفون عن العرب وعن السوريين فى وقت واحد ، انهم فينيقيون ، ولا سيما المسيحيون منهم من أبعد الناس عن العرب والعروبة ، لأنهم من أحفاد الصليبيين الذين أتوا الى سوريا ولبنان من مختلف البلاد الأوربية ، ولا سيما من فرنسا » [1] .

وامتدادا لهذه النظرية التى أذكاها ورعاها مفكرو البرجوازية الفرنسية ، كان الفكر ، والموقف السياسى ، الذى عبر عنه الخديوى اسماعيل ، والذى استمر يتردد فى بلادنا ، عاليا تارة وخافتا أخرى ، حتى ما بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م .

ففى مقدمة كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) للدكتور طه حسين [2] حديث عن « أن العقل المصرى منذ عصوره الأولى ، عقل ان تأثر بشىء فانما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وان تبادل المنافع على اختلافها ، فانما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط » .. ثم يستطرد قائلا : « فاذا لم يكن بد من أن نلتمس

(١) د . عبد الرحمن البزاز (بحوث فى القومية العربية) .
(٢) صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٣٧ م .

أسرة للعقل المصرى تقره فيها ، فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم » .

فاذا جاء الحديث عن الأشياء التى يمكن أن تكون مقومات للقومية ، أو شبيهة بمقومات القومية ، والتى يمكن أن تجعل أسرة الشعب المصرى العقلية ، العروبة لا حوض بحر الروم .. اذا جاء الحديث عن ذلك ، وجدنا الدكتور طه حسين يقول : « ان وحدة الدين ، ووحدة اللغة ، لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ، ولا قواما لتكوين الدول » .

ثم يعرج بنا الدكتور على حديث الخديوى اسماعيل حول نظرية حوض البحر المتوسط فيقول : « لا ينبغى أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها اسماعيل ، وجعل بها مصر جزءا من أوربا ، قد كانت فنا من فنون التمدح ، أو لونا من ألوان المفاخرة ، وانما كانت مصر دائما جزءا من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها » .

ورغم أننا نلاحظ أن حماس الدكتور طه حسين ، كغيره من المفكرين الذين نادوا بهذه النظرية ، انما كان أثرا من آثار الثقافة الفرنسية عليهم ، الا أن ذلك لا يقلل من أثر هـذه النظرية ، فالدكتور طه حسين ، ليس مجرد مفكر كبير ، وانما هو مدرسة فكرية يتتلمذ عليها الكثيرون ، ويدين لها الكثيرون .

والدليل على أن هــذه الفكرة ليست مجرد نزعة فردية ، أو فكر طارئ ، أن هذا النحو من التفكير قد ظل يتردد كما قلنا الى ما بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ..

ففى كتاب (مصر ورسالتها) للدكتور حسين مؤنس [١] ، نجد هذه العبارات :

« ان تاريخ مصر هو تاريخ البحر الأبيض المتوسط عــلى وجه التقريب .. ان تاريخ مصر متأثر بالبحر الأبيض بصــورة دائمة .. ان حياة مصر لا تستقيم الا اذا كانت على صلة بالبحر الأبيض .. ان مصر تنازعت تاريخها ثلاث قوى : افريقيا وآسيا ، والبحر الأبيض .. وان القوة الأولى تلاشت فى منتصف الدولة الحديثة من تاريخ مصر القديم . وأما الثانية فقد فرضت على مصر فرضا ، .. أما القوة الثالثة ، وهى البحر الأبيض فهى العنصر الأساسى فى تاريخ هذا البلد ، ومصر التى ولدت افريقية ، لم تلبث أن صارت بحرية ، مثلها فى ذلك كمثل اليونان والرومان » .

وهكذا كانت تلك النظرية ، التى وان تكن قد قيلت قديما ، ونادى بها المفكرون الفرنسيون الذين وضعوا طاقاتهم فى خــدمة

(١) صــــدر هــذا الكتاب ســـنة ١٩٥٣ م ، فى ســلسلة (اخترنا لك) .

البرجوازية الفرنسية ، ووقف فى صفها بلا وعى ، وبسذاجة ، بعض مشايخ الأزهر ورجال التصوف فى مصر أثنــاء الحمــلة الفرنسية .. الا أنها قد أخذت لنفسها فى الفكر السياسى والثقافى مكان النظرية ، منذ أن خاب أمل « الدولة » المصرية فى الفتوحات الافريقية ، هذه الفتوحات التى كانت رد فعل للنكسة التى أصابت الطابع العربى للبناء المصرى الجديد .

وهكذا كانت نظرية حوض البحر المتوسط ، احدى ردود الفعل التى شهدتها بلادنا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والتى استمرت آثارها وأفكارها الى ما بعد ثورتنا فى يوليــو سنة ١٩٥٢ م .

* * *

وغير رد الفعل الذى اتخذ سبيلا له نظرية حوض البحــر المتوسط ، كان هناك رد فعل آخر ، قد اتخذ لنفسه ســبيلا آخر ، ونظرية أخرى ، تجلت فى نزعة « الفرعونية » التى نادت بأن المصريين فراعنة ، أولا وأخيرا ، وأنهم فراعنة فقط ، وأن حاضرهم ، وماضيهم القريب انما هو امتداد لماضيهم الفرعونى القديم فقط .. وأن العروبة ، وغيرها من الأطوار الحضارية التى مرت بالشعب المصرى ، انما كانت سحابة صيف ، بل وسحابة سوداء فى حياة هذا الشعب ، وأننا لابد وأن نجد فى السير ، ونسرع الخطى نحو

التخلص النهائى من آثار هذه « السحب » ، ونطور كل شىء فى الاتجاه الفرعونى ، ونبنى كل شىء ، فى الأدب والفن ، والثقافة ، والمعمار ، على النمط الذى خلفه لنا الفراعنة القدماء .

ولقد وجدت هذه النزعة الغذاء والقوة والتأييد ، من عديد من المصادر والاتجاهات ..

فبعض الأوساط الرجعية المرتبطة مصالحها بمصالح الاستعمار فى أوســاط المسيحيين المصريين ، كانت للأسف تذكى نار هــذه النزعة ، وتجد فيها شكلا من أشكال مواصلة العداء والحرب لكل ما هو عربى ، على أساس أن العداء للعروبة يتضمن العــداء للاسلام .

والضعف والمهانة والتجزئة التى عليها العالم العربى ، كانت مصدرا لازدراء العروبة وامتهانها ، وترجيح كفة النزعة الفرعونية عند المقارنة بينها وبين الأفكار التى تريد لنا أن نواصل ســيرنا كجزء من العالم العربى ، وقلب لحركته القومية .

والتشويه الذى أصاب الحضارة العربية والتراث العربى ، والطمس المتعمــد لأمجاد قوميتنا وجماعتنا العربية ، من جانب الاستعمار والاقطاع ، ومقلدى حضارة أوربا ، كان أيضا معينا لا ينضب يساعد على اذكاء نار الفرعونية فى أوساط واسعة من الناس .

واتساع حركة الاكتشافات الأثرية ، والثمرة التى نضجت بعد فك رموز اللغات المصرية القديمة ، منذ قراءة وثيقة « حجر رشيد » كانت عالما من المجد القديم لشعبنا ، والمفاخر الغنية التى تدعو الشعب المستضعف والمستعمر لأن يلوذ بدفء هذه الحضارة القديمة ، والمجد التليد .

والاستعمار الانجليزى ، الذى كان يحتل مكان الموجه والمسيطر على مقدرات الأمور فى بلادنا ، كان من خلف كل تلك النزعات والمصادر .. ينفخ فيها من عزمه ونفوذه ، ويمد لها الحبال ، لأنه كان يرى فى الرباط العربى لمصر ، نهاية لمصالحه ، ولأنه كان يقرأ أحداث الماضى ، وعبرة التاريخ ، ويتفهم دروسه ، أكثر من كثير من مفكرينا الذين لم يبصروا قيمة رباط العروبة وسماتها العامة ، ومكان مصر من هذه الحركة العارمة التى تجاهد لبناء الأمة الواحدة « الأمة العربية » .

وهكذا لم يكن غريبا أن نجد ذلك الاتفاق العجيب بين بعض المفكرين المصريين الذى كانوا ينادون بالاستقلال لمصر ، واجلاء الانجليز عنها ، وبين بعض المفكرين الاستعماريين من الانجليز ، اتفاقهما معا فى النداء بفرعونية مصر ، ومن ثم تأييد بعض النزعات والدعوات المطالبة مثلا بكتابة اللغة العربية فى مصر بحروف لاتينية ، رغم ما فى ذلك من قطع لأهم صلات العروبة ، ومحو

لأهم سمة مشتركة وعامة تجمع مصر بالجماعة العربية الواحدة ..

أو الدعوة مثلا الى سيادة اللهجة العامية المصرية ، وجعلها اللغة الرسمية السائدة ، لغة الأدب والصحافة والديوان ، رغم ما فى ذلك من توسيع للهوة التى عمل الاستعمار عـلى خلقها وتوسيعها بين مصر وكل من المشرق العربى والمغرب العربى [1] .

فالاستعمار الذى فرض على مصر أن تقبع داخل حـدودها سنة ١٨٤٠ م ، هو الذى ظل يعمل بدأب ودون كلل ، لتغذية النزعات الفكرية والسياسية التى تخدم خطته ، والتى تحول بين مصر ، قلب العروبة ، وبين أن يسمع نبضه فى أنحاء العالم العربى من المحيط الى الخليج . وهو الذى سلك سبيلا الى هذا الهدف نظرية « حوض البحر المتوسط » تارة و « النزعة الفرعونية » تارة أخرى .

* * *

بل وحتى هذا الشعار الحبيب الى نفس كل مصرى ، شعار (مصر للمصريين) ، نجده قد عنى أحيانا ، وأحيـانا كثيرة ، الوقوف من العروبة ، والقومية العربية ، وحركة الأمة العربية ، موقف المغايرة أو المناقضة أو العداء ..

---

(١) وبعض دعاة هذه الفكرة يرون العامية المصرية لغة غير عربية ، وأنها انما تعود وترجع الى تلك اللغة التى دخلت مصر مع « الهكسوس » .

والبطل الوطنى الذى عرفناه فى طليعة الذين رفعوا هذا الشعار ، أحمد عرابى ، قد كان ينظر الى العروبة ، والدولة العربية ، كتهمة ظالمة يحاول أعداؤه الصاقها به ، وهو حريص على أن يبدو أمام الناس بريئا منها ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب .. فهو القائل فى رسالته الجوابية لجورجى زيدان ، كما جاء فى كتاب زيدان (مشاهير الشرق) بصدد الحديث عن هذا الموضوع : « .. لم يخطر ببالى أصلا الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين ، كما ذكرتم .. ولا تأليف دولة عربية ، كما أرجف المرجفون ، لأنى أرى فى ذلك ضياعا للاسلام عن بكرة أبيه ، وخروجا عن طاعة الله ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله » .

فالعمل الذى استهدفته تجربتنا الجديدة وتحولاتنا البرجوازية فى النصف الأول من القرن الماضى ، يراه عرابى ارجاف مرجفين ، وضياعا للاسلام عن بكرة أبيه ، وخروجا عن طاعة الله ورسوله .

وبعد أحمد عرابى ، وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كان الحزب الذى رفع عاليا شعار (مصر للمصريين) وصدر به واجهة (الجريدة) ، لسان حاله ، وهو (حزب الأمة) ، الذى قاده فكريا وسياسيا المفكر المصرى الكبير أحمد لطفى السيد ..

وعن العلاقة بين هذا الشعار وبين العروبة دارت العديد من المناقشات ، وكتبت الكثير من المقالات ..

ففى (الجريدة) وتحت عنوان (المسألة العربية) كتب لطفى السيد يقول : « العرب أكثرية فى بلاد الدولة العثمانية ، لذلك لا نستطيع أن نفهم وجود « مسألة عربية » تستأهل النظر فى حلها .. ليس هناك مسألة عربية ، ولكن هناك قلقا فى نفوس كثير من العرب ، فنقول : ان كان للمسألة العربية محل من الوجود ، فان وجودها الآن سابق للأوان جدا .. ولئن كان للمسألة العربية ظل من الوجود ، فحلها بيد العثمانيين من غير مضارة أحد »[1] .

وتحت عنوان (مصريتنا) يناقش لطفى السيد الموضوع بصراحة أكثر فيقول : « .. كذلك نحن المصريين نحب بلادنا ، ولا نقبل أن ننتسب الى وطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا ، حجازية ، أو بربرية أو تركية .. أليس اقرار المصرى بانتسابه الى العربية ، أو التركية لا يدل الا على أنه يحتقر وطنه وقومه ، وما الذى يحتقر وطنه وقومه الا محتقر لنفسه »[2] .

فهو هنا يساوى بين دعوة الانتساب الى « العربية » ودعوة الانتساب الى « التركية » ويرفضهما كليهما على قدم المساواة ..

---

(١) (الجريدة) عدد ١٩١١/٨/٣٠ م .
(٢) (الجريدة) عدد ١٩١٣/١/٩ م .

وهو يرى فى مصر « القومية » ولا يرى « القومية » فى العروبة .. بل يعتبر صلتنا بالعروبة صلة عرقية قد استنفذت أغراضها ، مثلها فى ذلك مثل الصلات العرقية التى تربط بعضنا بالبربر ، وبعضنا بالأتراك .

ثم يجىء بعد ذلك فيسوى بين « الاتحاد العربى » وبين « الجامعة الاسلامية » ، ثم يرفضهما معا ، متجاهلا بذلك أن بين العرب كجماعة بشرية من الصلات والقسمات العامة والمشتركة ، ما لا يوجد بين الجماعات المسلمة ، كجماعات قومية ، وأمم تدين بالاسلام .. وهو بذلك ينكر « القومية » التى تؤلف بين الجماعة العربية ، وجزء منها المصريون .. فتحت عنوان (آمالنا) فى كتاب (تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع) كتب لطفى السيد يقول : « .. لدينا وسائل العمل لمصلحتنا ، فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية ، .. ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم اذا كانت تجبن عن الأخذ بمنعتها ، وتتواكل فى ذلك على أوهام يسميها بعضهم « الاتحاد العربى » ويسميها الآخرون « الجامعة الاسلامية » [1] .

لقد اتخذ هـذا الحزب ، هـذا الموقف من « العروبة » ،

---

(١) راجع ساطع الحصرى (ما هى القومية) ، و د . عبد الرحمن البزاز (بحوث فى القومية العربية) .

و « المسألة العربية » بشكل ثابت ودائم .

ورغم المحاولات الفكرية والسياســية ، التى كانت تحاور وتناقش وتعارض هذا الموقف وذلك الاتجاه ، الا أنه لم يغير مواقعه ، يدل على ذلك ما جاء فى كتاب (قصة حياتى) للطفى السيد [1] حيث يقول « نحو سنة ١٩١١ م ظهرت لأول مرة بوادر ما يسمونه « البناريزم » أو « الجامعة العربية » ، وفى هذا الحين وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان .. وكانا نائبين فى مجلس المبعوثان فى استنبول [2] ، وكان الغرض الذى جاءا من أجله السعى لضم سوريا الى مصر .. وقد لقيا مرارا فيما لقيا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأى ، ولم آكن متفقا معهما فى الرأى ، لا لتعذر هذا الطلب فحسب ، بل لأنى لم أره فى مصلحة مصر ، وكنت منــذ زمن طويل أنادى بأن « مصر للمصريين » ، وأن المصرى هو الذى لا يعرف له وطنا آخر غير مصر . أما الذى له وطنان ، يقيم فى مصر ، ويتخذ له وطنا آخر على سبيل الاحتياط فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة ، وقد دعوت السوريين أن يسجلوا أسماءهم فى المحافظة ،

(١) اصدرت دار الهلال هذا الكتاب فى سلسلة (كتاب الهلال) سنة ١٩٦٢ م .

(٢) وهو المجلس الذى انعقد سنة ١٩٠٨ م .

ليكونوا مصريين .. ولم أقصد السوريين فقط ، ولكنى كنت أريد أن يتحمل كل قاطن فى مصر من الواجبات ما يتحمله المصريون لتحقيق القومية المصرية » [1] .

وكما عاشت نظرية « حوض البحر المتوسط » زمنا طويلا بعد عصر الخديو اسماعيل ، فكذلك كان شأن هذا المفهوم الذى يضع شعار « مصر للمصريين » فى مواجهة شعار « العروبة » قد عاش هذا المفهوم عشرات السنين ، حتى بعد أن لفظت الحياة السياسية « حزب الأمة » وذهبت من على مسرح السياسة المصرية تلك الحركة السياسية التى نظرت كثيرا فى (الجريدة) ، وفى كل كتابات فيلسوفها لطفى السيد ، لهذا المفهوم ..

وفى السنوات التى سبقت قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م . كان لا يزال بمصر تيار فكرى وسياسى له وزنه الكبير ، ينطق باسمه ، ويعبر عنه كتاب كثيرون ، مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان مثلا ، عندما يقول « .. انه لا محل بعد ذلك كله أن يتقدم بعض الغلاة من الدعاة ، فيطلبون اليها (مصر) ، أن تنزل عن صفتها المصرية ، لتنضوى تحت لواء العروبة ، فتعتنق القومية

(١) راجع الحصرى (ما هى القومية) والبزاز (بحوث فى القومية العربية) .

العربية ، وأن تشترى (زعامة العروبة) بالتنكر لماضيها وتراثها القديم » [1] .

فهو يرى فى الانضواء تحت لواء العروبة ، واعتناق القومية العربية نزولا عن « الصفة المصرية » ، التى يجب على مصر أن تتمسك بها ، ويرى فى ممارسة مصر لدورها القيادى فى الحركة العربية « صفقة » يراد لمصر أن تشتريها مقابل التنكر لماضيها وتراثها القديم ..

وما كان لمثل هذا التيار الفكرى و السياسى أن يجـد له كل هذا المكان ، والصدى ، والتأييد ، لو كان غريبا عن تربة الفكر والسياسة فى مصر ، ولو لم يكن أحد ردود الفعل للنكسة العربية التى تمثلت فى اجبار القوى الاجتماعية المصرية الجديدة على أن تجرجر أذيال الانسحاب والهزيمة عائدة من المشرق الى مصر فى عامى ١٨٤٠ و ١٨٤١ م .

* * *

وليست نظريات « حوض البحر المتوسط » ، و «الفرعونية» ، و « مصر للمصريين » بهذا التفسير والمعنى الذى تحدثنا عنه ، هى كل النظريات ، والنزعات الفكرية والسياسية التى انعكس فى

---

(١) انظر المرجعين السابقين .

ثوبها واطارها رد الفعل للنكسة التى حدثت فى عامى ١٨٤٠ ، ١٨٤١ م .. بل لقد ظهر رد فعل هذه النكسة فى ثوب آخر ، اتخذ من الاصلاح الدينى مجالا للدعوة ، ومن الأفكار الاسلامية و « الجامعة الاسلامية » نظرية وشعارا .

والذين اتخذوا من الخلافة الاسلامية و « الجامعة الاسلامية » شعارا لهم فى نضالهم السياسى والفكرى ، قادة ومفكرون ، وحركات سياسية ، لا يمكن أن توضع جميعا فى صف واحد ، ولا أن تنظر اليهم نظرة واحدة ، ولا أن يوزنوا بميزان واحد .

فالشيخ محمد مصطفى المراغى ، الذى تولى فى مصر « مشيخة » الأزهر ومعاهده الدينية ، عندما يتحدث الى جريدة « المصرى » فيقول : « ليس لى رأى فى الوحدة العربية .. لا أشتغل بها .. لست من أنصارها ، ولا من أعدائها .. غير خاف عليكم ان الدين لم يذهب الى العصبية الجنسية (وهو يقصد هنا بالجنسية القومية) ، ولم يفرق بين العربى وغير العربى ، وجعل الأمة الاسلامية وحدة ، لا فرقّ بين أجزائها .. ان الاتجاه بالتفكير الى الوحدة التى يتطلبها القرآن ، هو الذى يتحتم على علماء المسلمين » [1] .

---

(١) انظر المرجعين السابقين .

عندما يقول الشيخ المراغى هذا الكلام ، فهو انما يرمى الى تمهيد الأرض والأذهان لخلافة اسلامية لا عربية ، يكون خليفتها وسلطانها الملك فاروق ، كما حاول من قبله مشـايخ آخرون للأزهر صنع نفس الخلافة والسلطنة على « مقاس » الملك فؤاد .

وهو موقف رجعى ، يسقط القومية وسماتها ، ويتمسح بالدين لفرض نفـوذ أسرة محمد على ، لا على مصر وحدها ، ولا العرب فقط ، بل على العالم الذى يدين بالاسلام .

بينما مفكر وزعيم وطنى مثل محمد فريد ، عندما يتحدث فى كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » ، مضفيا تلك القداسة والهيلمان على الخلافة والسلطنة ، بمناسبة حادث مقتل السلطان الشاب « عثمان » ، فيقول [1] : « فأعدموا السلطان « عثمان » غير مبالين بهذا الجرم العظيم ، والاثم الذى ما بعده اثم الا الكفر المبين ، فانه ان كانت مخالفة أوامر الخليفة تعد كفرا بنص الكتاب الشريف .. فما بالك بقتله ؟؟!.. هنا يقف القلم ويجف المداد عن وصف هذه الفعلة الشنعاء ، والكبيرة الشعواء ، تاركا وصـفها للقارىء اللبيب ، والمطلع الأريب .. » .

ان مفكرا وقائدا متقدما مثل محمد فريد عندما يتخذ هذا

---

(١) انظر المرجعين السابقين .

الموقف الى جانب « الخلافة الاسلامية » ، رغم ما فيه من خطأ ورجعية ، وفقدان للاتجاه ، فهو انما يتخذه بدافع من عداء هذا القائد للاستعمار البريطانى الذى كانت ترزح مصر تحت نيره فى ذلك الحين ، والذى جند محمد فريد نفسه لقيادة الحزب الوطنى فى الحرب والنضال ضده .

كما يدخل فى ذلك « توهم » هذا القائد للمنفعة الكبرى التى يمكن الحصول عليها من وراء السلطة العثمانية ، ودعوة الخلافة كطريق لانقاذ مصر من الانجليز .

انه موقف رجعى ، كان الباعث عليه العـداء للامبـريالية والاستعمار ، وهى أرضية مختلفة عن الأرضية التى كان يقف عليها الشيخ المراغى ، ومن نادى نداءه بالخلافة للملك فؤاد أو الملك فاروق . وذلك بدليل أن محمد فريد قد عاد وعدل عن فكرة الخلافة وأثبت ذلك فى مذكراته (اليقظة .. محمد صبيح) .

وتحت نفس الشعارات ، شعارات « الجامعة الاسلامية » و « الخلافة الاسلامية » ناضل مفكران عملاقان من ألمع ما عرف عالمنا فى القرن التاسع عشر من دعاة الاصلاح الدينى ، والثـورة والنضال ضد الاستعمار وهما :

- المفكر الثائر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧ م) .
- والأسـتاذ الامام محمـد عبـده ، تلميذه ، وصاحبه ،

وصديقه . على أن هذين المفكرين وان كانا قد بدآ من فوق الأرض المستظلة بظل شعارات «الخلافة والرابطة الاسلامية» الا أن تطور الأحداث ، ونضوج الفكر الذى حملاه ، قد قادهما الى أرض أخرى ، كانت قاب قوسين أو أدنى من أرض التفكير القومى الناضج ، الذى يطرح خلف ظهره كل ما يتعلق بالخلافة الاسلامية من أوهام ..

وهذا التطور الذى مرت به أفكار هذين العملاقين قد مر بمراحل ثلاث :

. **المرحلة الأولى :** يوم أنشـآ مجلة (العـروة الوثقى) سنة ١٨٨٤ م ، فى باريس وكان عمر جمال الدين الأفغانى يومها خمسا وأربعين عاما .

وفى هذه المرحلة لم يكن هناك اعتراف من جانبهما بفاعلية السمات القومية ، وما كانا ليريا غير العوامل الدينية ، والمسائل الخاصة بالملة والاعتقاد .

ففى العدد التاسع من (العروة الوثقى) [1] وتحت عنوان (الوحدة الاسلامية) جاء : « من « أدرنة » الى « بيشارو » دولة اسلامية متصلة الأراضى ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ،

---

(١) (العروة الوثقى) مجموعة مقـالات وأخبار المجلة ط المكتبة الاهلية سنة ١٩٢٧ م .

لا ينقص عددهم عن الخمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، .. أليس لكل واحد أن ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله : (انما المؤمنون أخوة) ، فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب ؟؟..

لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأرض فى الجميع شخصا واحدا ، فان هذا ربما كان عسيرا ، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، .. لا جنسية للمسلمين الا فى دينهم »[1] .

وفى نفس المجلة تحت عنوان (الجنسية والديانة الاسلامية) جاء : « ان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده ، يلهو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة بالرابطة العامة ، وهى علاقة المعتقد .. كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم .. لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ،

---

(1) المقصود بالجنسية هنا : القومية . (العروة الوثقى) . ص ١٣٩ .

ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض »[1] .

وفى عدد آخر من (العروة الوثقى) وتحت عنوان (فاتحة الجريدة) جاء : « ان المسلمين ، رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة »[2] .

فلا قيمة فى هذه المرحلة ، عند جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، لغير العوامل الدينية ، ولا مكان للعوامل القومية وللسمات القومية ، بجانب الملة والاعتقاد .

• والمرحلة الثانية : من تفكير جمال الدين الأفغانى ، هى تلك التى أخذ فيها يعترف بقيمة وفعالية العوامل القومية الى جانب قيمة وفعالية العــوامل الدينية والملية ، وان ظل يغلب العوامل الدينية ، ويعطى الثقل لها على غيرها من العوامل ، فهو يقول : « ان كلا من الرابطة الدينية ، والجنسية ، مبدآن للحمية على الملك ، ومنشآن للغيرة عليه »[3] .

• أما المرحلة الثالثة : فهى التى نضج فيها الفــكر القومى لجمال الدين الأفغانى ، والتى كانت فى سنوات عمره الأخيرة ،

(١) المصدر السابق . ص ٤٢ .
(٢) المصدر السابق . ص ٣١ .
(٣) المصدر السابق . ص ١٩٦ .

والتى ترك لنا فيها أثرين من آثاره الفكرية ، ينطقان بهذا التطور الهام ..

ففى رسالة له باللغة الفارسية ، عنوانها (مقالات جمالية) يقول : « لا سعادة الا بالجنسية ، ولا جنسية الا باللغة ، ولا لغة مالم تكن حاوية لكل ما تحتاج اليه طبقات أرباب الصناعات والخطط فى الافادة والاستفادة . ان الروابط التى تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان ، وحدة اللغة ، ووحدة الدين ، ووحدة اللغة هى الأساس الذى تقوم عليه الجنسية ، واللغة أشد ثباتا وأكثر دواما من الدين .. لأننا نعرف أمما غيرت دينها خلال ألف عام مرتين ، بل وثلاث مرات ، دون أن يطرأ خلل على وحدتها اللغوية والقومية ، فنستطيع أن نقول لذلك : ان تأثير رابطة اللغة فى هذه الدنيا ، أقوى من تأثير رابطة الدين » [1] .

بل والحديث عن البعث القومى ، ومكان اللغة كسمة قومية من هذا البعث ، لم يكن غريبا على الأفغانى فى هذا الطور من أطوار تفكيره ..

ففى السنوات الست الأخيرة من حياته (١٨٩١ — ١٨٩٧ م) ، أملى جمال الدين على صاحبه «محمد باشا المخزومى» بالآستانة

(١) ساطع الحصرى (ما هى القومية ؟) .

رسالة عنوانها (خاطرات جمال الدين الأفغاني) قال فيها تحت عنوان (أدب اللسان) : « انه أكبر الجوامع التى تجمع الشتات ، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول قد اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها اليها ، والعامل فى ذلك انما هــو اللسان قبل كل ما ســواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله » [1] .

وفى هذا الطور الثالث من أطوار التفكير عند جمال الدين الأفغاني ، لا نغالى اذا قلنا انه قد دخل ساحة التفكير القومى وغادر الميدان الذى كانت تظله شعارات وألوية : « الخلافة الاسلامية » و « الجامعة الاسلامية » .. وان مفكرنا الكبير هذا ان كان قد بدأ مصلحا دينيا فى هذه المسألة ، الا أنه قد انتهى مفكرا قوميا ، وهذا جانب من حياة فكر جمال الدين طالما طمسه كثير من المفكرين الرجعيين .

ونحن قد احتفلنا بفكر الأفغاني ، وتطوره فى هــذا الباب ، لسببين أساسيين :

(1) (خاطرات الأفغاني . ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤) .

أولهما : ذلك الأثر الذى خلفه لنا جمال الدين فى حركتنا الثورية ، وتلك المدرسة الفكرية التى تتلمذ عليها كثير من القادة والأعلام والمفكرين .

وثانيهما : ان كل ما يقال عن جمال الدين الأفغانى ، فى هذا المجال الفكرى ، وغيره انما يمكن أن يقال كله ، أو أغلبه ، عن مفكرنا القومى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

وهكذا نجد أن هذا اللون من ألوان ردود الفعل ، التى أحدثتها نكسة سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ م قد اتخذ أكثر من موقف ، وبعث اشعاعاته الفكرية من على أكثر من أرضية .. بعضها رجعى ممالىء عن وعى ، لقوى التخلف والجمود .. وبعضها رجعى ، فاقد للرؤية ، وان يكن يبغى الخـلاص عن هـذا الطريق من الاستعمار الأوروبى .. وثالث بدأ بالعداء للاستعمار تحت شعارات « الخلافة والرابطة الاسلامية » ، ثم انتهى بفكر قومى ونضال قومى بالمفهوم الحديث لهذا التعبير .

* * *

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن التيار العربى الذى ظل حيا وقائما فى ظل عصر النكسة هذا ، علينا أن نزيد أمر ردود الفعل التى نشأت عن احداث النكسة وانتصارها ، بعض الايضاح .

ذلك اننا لا نستطيع أن ننسب الى الاستعمار والرجعية أسباب كل هذه النظريات والنزعات التى أدارت ظهرها للعروبة والقومية العربية ، وتنكبت الطريق التى سار عليها بناة تحولاتنا البرجوازية فى مسيرتهم القومية نحو المشرق العربى لبنـاء الدولة العربية الواحدة .

فما كان للاستعمار أن يصنع كل هذه النظريات والنزعات ، ويضمن لها كل هذا الأثر والتأثير لو لم يكن لها فى واقع الحياة المصرية ، المادية ، والفكرية ، أسسا وأصولا .

فهذه الدعـوات التى نادت بأن مصر لا صـلة لهـا فكريا أو سياسيا بالعرب والعروبة وأنها وحدة قائمة بذاتها ، سواء فى اطار « البحـر المتوسـط » أو فى اطار « التاريخ والحضـارة الفرعونية » أو فى دائرة « المصرية الحديثة » أو غير ذلك من الاطارات التى لا تتعدى بمصر حدودها « الطبيعية » الخاصـة بها .. هذه الدعوات التى جاءت وترعرعت بعد محاصرة الاستعمار للقوى الاجتماعية المصرية الجديدة داخل حدودها كاقليم ، انما كانت التعبير الفكرى والسياسى عن النمو الذاتى والخاص ، الذى أخذت تسير فيه مصر ، مستجيبة لما فرض عليها من عوامل الحصار وظروفه .

ذلك أنه قد أخـذت تنمو مع البرجـوازية المصرية التى لم تستطع ، بسبب النكسة ، أن تحقق أهداف الجماعة العربية فى بناء كيان الأمة العربية ، أخذت تنمو معها ، وبسبب نشاطها وسوقها وفكرها ، سمات الأمة المصرية بالمعنى الحديث لهذا التعبير .

ففى ظل نمو البرجوازية المصرية ، التى استمرت فى التقدم ، رغم تدعيم النكسة والاستعمار بقبضة الاقطاع .. تحصلت للجماعة البشرية التى تعيش فى مصر درجة عالية من وحـدة الجماعة واللغة والأرض والتكوين النفسى والاقتصاد .. وأصبحت هذه الجماعة البشرية تكون « أمـة » واحدة ، هى « الأمـة المصرية » .

وشهد العالم العربى ذلك الازدواج الذى لا يزال يعيشه حتى الآن .. « قومية عربية » ، تجمع سماتها العامة وخصائصها المشتركة هذه الجماعة العربية التى تعيش على هذه الرقعة العريضة من المحيط الى الخليج .. و « أمم » متعـددة تعيش داخل هـذه « القومية » وفى حدود هذا الاطار القومى .. أو « قومية عربية » واحدة تنتظم كظاهرة موضوعية أكثر من ثمانين مليونا من البشر

يعيشون كجماعة واحدة لهم أرض واحـدة ، ولغة واحـدة ، وتكوين نفسى واحد ، وهم لا يملكون الاقتصاد المشترك حتى الآن .. وداخل اطار هذه الظاهرة الموضوعية توجد جماعات أكثر تحديدا وتمايزا ، وبينها من الروابط ما لا يوجد ، بنفس الدرجة ، بينها وبين سائر أبناء الجماعة العربية الواحـدة ، وذلك مثـل الجماعة التى نسميها أهل المشرق العربى ، والثانية التى نسميها أهل المغرب العربى والثالثة التى تقع بين المشرق والمغرب ، والمتمثلة فى مصر والسودان .

وهذه الأمم التى تعيش فى محيط القومية العربية الواحـدة أو هذه الجماعات الضيقة التى توجد فى اطار الجمـاعة العربية الكبيرة ، والتى كانت نتيجة نمو ذاتى وموضوعى لظروف مادية ، نمت نموا خاصا ومتمايزا بفعل التجزئة التى لعب الاستعمار فيها الدور الأول والهام ، .. هذه الأمم والجماعات ، هى التى تناضل اليوم حركة الأمة العربية لصهرها فى « أمة واحدة » هى « الأمة العربية » ، ولاذابة الفروق التى بينها ، ومحو ما بينها من حواجز وفواصل واختلافات .

وهكذا نجد أن النمو الذاتى ، والمستقل ، والخاص الذى تمثل

فى طرق مختلفة توزعت الجماعة العربية فى القرن التاسع عشر ، قد كان عاملا موضوعيا يكمن خلف نشوء مثل هذه النظريات والنزعات اللاتوحيدية ، والتى تقف موقفا من العروبة والوحدة العربية ، يتراوح بين المعارضة ، والتجاهل والعداء .

وان دور الاستعمار فى هذا المجال ، انما كان دور صاحب المصلحة الأولى فى التجزئة ، وفارضها بالقوة والتآمر والعدوان .. وراعى استمرارها ، والمؤيد لهذه النظريات والنزعات غير العربية والمستفيد من ازدهارها ، وصاحب المصلحة الأولى فى سير « الأمم » والجماعات العربية ، فى طرق مختلفة ، بل ومتعارضة ، وقطع ما بينها من روابط قومية حتى لا تتطور القومية الواحدة الى أمة واحدة بل تتحلل وتضعف روابطها وسماتها العامة ، وتكون « الأمم » العربية التى فرضتها التجزئة ونتائجها ، ايذانا بالانفصال الأبدى ، لامرحلة تمر بها الجماعة العربية والقومية العربية نحو الكيان العربى الواحد للأمة العربية الواحدة .

الباب الثامن

تيار عربي يغالب العزلة

١

وإذا كانت هذه النزعات الاقليمية ، والنظريات والتيــارات اللاتوحيدية ، التى تحدثنا عنها ، والتى تمثلت فى « حوض البحر المتوسط » و « الفرعونية » وغيرهما ، نبتا طبيعيا لهذا النمو الذاتى والخاص الذى فرضته التجزئة التى أنشأها ورعاها الاستعمار ، فلقد كان هناك فى مصر ، طوال هذا العصر ، أى منــذ نكسة سنة ١٨٤١ م حتى قيام جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ م ، أى خلال قرن من الزمان ، تيار عربى واضح وأصيل .. ولقد كان هذا التيار تعبيرا عن واقع الروابط المشتركة التى تربط الجماعة العربية ، وثمرة للعوامل والسمات والقسمات العامة التى تربط بين أجزاء الوطن العربى الكبير ، والتى تكون سمات القومية

العربية التى وجدت منذ وقت مبكر فى ظل عصر الاقطاع ..

وهذا التيار العربى الذى شهدته مصر ، وعرفته حياة شعبها ، لم يكن قاصرا على ذلك البناء الحضارى الذى كان أنقى بنـــاء عربى شـــهده العـــالم العـــربى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بالنسبة للأبنية الحضارية العربية التى شهدها المشرق العربى تحت حكم الأتراك ، ومحاولات « التتريك » ، أو المغرب العربى تحت حكم فرنسا ، ومحاولات « الفرنسة » التى قام بها غلاة المستعمرين الفرنسيين .

ولم يقتصر هذا التيار العربى فى مصر على اللغة ، التى ظلت أقرب الى العربية الفصحى ، وأكثر التصاقا بلغة التراث ، منها فى أى مكان عربى آخر .. والتى جعلت من العامية المصرية ، أقرب العاميات الى اللغة العربية الفصحى .

ولم يقتصر على ما أشعه الأزهر من ثقافة عربية ، حفظت للعروبة قلبها النابض فى القاهرة ومصر ، ليواصل حمل الرسالة الى سائر أجزاء وطنها بعد أن تنقشع من فوقها سحابة الترك بالمشرق والفرنسيين بالمغرب ، وتعود المياه العربية الى الجريان .

كما لم يقتصر هذا التيار العربى فى مصر ، على ذلك المركز الذى اتخذته القاهرة من الفكر العربى الحر ، والمفكرين والثوار

العرب الأحرار ، والذى جعل منها كعبة يحجون اليها ، ومأوى يلجئون الى حماه ، وخلية ثورية للفكر العربى ، والنضال العربى يلتقى فيها ثوار المشرق والمغرب ، لتتفاعل فيها الخبرات ، وترسم فيها الخطوط العريضة للحركات الثورية السرية والعلنية ، التى أخذت تموج بها أنحاء الوطن العربى الكبير .

ذلك المكان ، والمركز ، والدور الذى واصلت به القاهرة دورها يوم استضافت « ابن خلدون » ، وجددت لنا هذه الذكرى يوم لجأ اليها وأنتج فى ربوعها فكره الثورى التقدمى ، مفكرنا القومى العملاق « عبد الرحمن الكواكبى » .

ويوم أن أصبحت مستقرا للكثير من الجمعيات العربية السرية ، التى أخذت تقود النضال القومى فى المشرق العربى ..

ومركزا لقيادة الثورة والنضال الوطنى ضد الفرنسيين والأسبان فى بلاد المغرب العربى كذلك .

كما لم يقتصر دور مصر ، وحظها من العروبة فى هذا العهد ، على ذلك البعث والأحياء للأدب العربى والتراث العربى الذى لعبت فيه دورا لا يقارن ، وقدمت به الى الحركة العربية ، والقومية العربية ، أجل الخدمات .

بل لقد وصل بنا ذلك الازدواج فى الموقف الذى شهدته مصر

خلال القرن الذى امتد من سنة ١٨٤١ الى قيام الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ م .. قد وصل هذا الازدواج الى المفكر الواحد ، والقائد الواحد ، من المفكرين والقادة الذين أنبتهم شعبها خلال هذه السنين .. وأيضا الى المؤسسة الواحدة من المؤسسات التى حملت لواء الفكر وساهمت فيه خلال هذا القرن من الزمان ..

* * *

فشاعرنا العملاق « محمود سامى البارودى » وهو أحـد زعماء « الحزب الوطنى » الأول ، ورفيق عرابى فى السـلاح والفكر ، والموقف من شعار « مصر للمصريين » بالمعنى والمفهوم الذى قدمناه ..

ان سامى البارودى هذا قد قدم لعملية البعث والاحيـاء القومى العربى خدمات لا تقدر ، وهى لم تقدر حق قدرها حتى الآن .

فهو الذىأعاد الى عمود الشعر العربى، والقصيدة الكلاسيكية العربية مجدها القديم ، وروعتها التى جعلت جيله ، والأجيال التى تمثلته فى مصر ، والبلاد العربية الأخرى ، تبصر أن خلف ظهرها تراثا عربيا من الشعر يستحق الاحياء ، وأن يفخر به العربى فى القرن العشرين .

* * *

و « سلامة موسى » المفكر المصرى ، وداعية الاحياء للحضارة الفرعونية ، وكل ما هو فرعونى ، هو الذى قدم للغة العربية خدمات كبرى بتطويعها للشعب ، والمساهمة الجادة فى تحويل اللغة الفصحى الى لغة مشتركة يستطيع أن يقرأها ويفهمها العربى المتوسط الثقافة ، والعادى التعليم والمعلومات ، فى كل مكان ، وأن تصبح لغة الصحافة والاذاعة والسينما وسائر وسائل الاعلام، لغة العرب الواحدة المشتركة ، وأن تحل بذلك مشكلة : لغة المعاجم ؟؟.. أم اللهجات العامية ؟؟.. التى استغرقت من الكثيرين الكثير من المناقشات ..

* * *

و « الدكتور طه حسين » الذى حمل لسنوات طويلة لواء الدعوة لنظرية «حوض البحر المتوسط» هو أحد المفكرين العرب القلائل جدا ، الذين ساهموا مساهمة جادة وعملاقة فى بعث التراث العربى من مرقده ، وتقديم هذا التراث الى الانسان العربى الحديث فى ثوب جديد ، لا ترفضه العقول الحديثة ، ولا تأبى الاقبال عليه النفوس العجلة الضيقة بأساليب بحث القدماء وصياغاتهم وطرقهم [1] .

* * *

(۱) لا يمنع من صدق ذلك أن لنا العديد من الملاحظات والاعتراضات على العديد من التقويمات التى ساقها الدكتور طه حسين للعديد من المواقف والأحداث والشخصيات التى كتب عنها فى مؤلفاته التى تعرض فيها للتراث والتاريخ العربى ، والاسلامى بالذات .

والجامع الأزهر ، ومعاهده الدينية ، هذا البناء الكبير ، الذى رغم دعوة معظم رجاله وقادة الفكر فيه الى « الجامعة الاسلامية » و « الخلافة الاسلامية » الا أن الخدمة التى أداها الأزهر للعروبة ، بمحافظته على تراثها وثقافتها وآدابها ، وتطويره لكثير من جوانبها ، قد كانت من أكثر العوامل الايجابية فعالية فى معركة البعث والاحياء .

وهذه فقط مجرد نماذج .. ومجرد أمثلة .. تقدم لنا تلك الحقيقة التى أشرنا اليها ، والتى جعلت مصر تعيش ذلك الازدواج الذى عرضناه .. والتى جعلت من مجتمعها وعاء عاشت فيه النزعات والتيارات اللاتوحيدية الى جانب التيارات والنزعات التى تخدم العروبة والتوحيد ..

بل والتى جعلت هذا الازدواج والثنائية تعيش فى انتاج المفكر الواحد ، ومواقف القائد الواحد ، والمؤسسة الثقافية الواحدة .

٢

والصحافة العربية التى نشأت بالقاهرة خلال هذا العصر ، والتى ساهمت فى انشائها وتدعيمها وتطويرها أعداد كبيرة من الأدباء والمفكرين من مختلف أجزاء الوطن العربى الكبير .. كانت هى الأخرى نموذجا للقسمة العربية لمصر ، والتيار العربى الذى قاوم النزعات الاقليمية التى عاشت على ضفاف النيل .

تلك الصحافة ، التى جعلت من كاتب مثل الأديب السورى « أديب اسحق » أحد الأدباء والساسة اللامعين فى مصر ، وأحد الذين تركوا آثارا بارزة فى الأحداث التى صاحبت ثورة مصر بقيادة أحمد عرابى فى أعوام ١٨٨٠ — ١٨٨١ — ١٨٨٢ م .

ولم يكن أديب اسحق هذا بالوثيقة التى تقدم الدليل على عروبة مصر ، بمجرد حياته فى القاهرة والاسكندرية ، ومجرد عمله الصحفى الذى أقامه ، وقام عن طريقه بدوره الكبير ، وانما كان كذلك بأفكاره العربية الناضجة التى عكست ذلك التيار العربى الذى عقدنا له هذا الحديث ، ذلك التيار الذى عبر عن أهدافه وأمانيه أديب اسحق فى كتابه (الدرر) الصادر سنة ١٨٨٠ م عندما قال : « ألم يكن فى هذه الأقطار نفر من أولى العزم ، تبعثهم الغيرة والحمية على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون أحوالها قبل التلافى . بل ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد ، كأنها من فم واحد .. فهلموا تنشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم فى ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا تتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن فى الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وان تعددت الأفراد

انسان .. أتحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ؟!. أم تخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد ؟!.. أم لا تعلمون أن مثل هذا الاجتماع ، منزها عن المقاصد الدينية ، منحصرا فى العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلف من أكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وارهابا ، فتعود للعرب الضالة التى ينشدون ، والحقوق التى يطلبون » [1] .

* * *

وغير أديب اسحق ، شهدت القاهرة حياة المفكر العربى الكبير « عبد الرحمن الكواكبى » (١٨٥٤ — ١٩٠٢ م) ونشاطه وابداعه .

وهذه البيئة العربية التى عاشها الكواكبى فى القاهرة ، كحلقة ثانية لحياته النضالية التى عاشها ضد السلطات والمظالم التركية فى سوريا ، هى التى أثمرت ذلك الفكر القومى الناضج الذى قدمه الكواكبى فى كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد) اللذين ألفهما ونشرهما فى القاهرة [2]

---

(١) راجع (بحوث فى القومية العربية) للدكتور البزاز ، و (ما هى القومية ؟) لساطع الحصرى .

(٢) ولن يغير من هذه الحقيقة حديث الدكتور عبد الرحمن الكواكبى ، حفيد مفكرنا القومى الكبير فى مقدمته لكتاب (أم القرى) المطبوع بسورية سنة ١٩٥٩ م ، حديثه عن أن جده قد ألف كتابيه قبل رحيله من سوريا واقامته فى مصر .

واللذين جعلا من الكواكبى داعية عروبة لا مجرد مصلح دينى .. ونصير « خلافة عربية » على أنقاض الخلافة الاسلامية للعثمانيين .. كما جعلا من القاهرة ، قلبا ينبض بالعروبة رغم ما عاش فيها من تيارات لا ترى فى العروبة أقوم سبيل للمصريين .

واذا كنا ونحن نتحدث عن جمال الدين الأفغانى قد أشرنا الى أنه فى سنى حياته الأخيرة ، قد قارب أن يكون مفكرا قوميا عميقا بالمعنى الحديث لهذا التعبير ، واذا كان الكواكبى قد تتلمذ فكريا ، كما هو معروف ، على الأفغانى ، فاننا نجد فيه ــ الكواكبى ــ نضوج الأفكار القومية التى لمسها بعبقرية ، وحذر ، جمال الدين الأفغانى .

فالكواكبى هو الذى رفض شعارات « الخلافة الاسلامية » و « الجامعة الاسلامية » وتحدث بوضوح وصراحة عن « الخلافة العربية » .

ولو أتيح لهذا الشعار أن يجد سبيله الى التطبيق ، لتحققت للجماعة العربية وحدتها ، ومن ثم لامتلكت ظاهرة « الأمة العربية » كما امتلكت من قبل ظاهرة « القومية العربية » ، ولعاد الدين الاسلامى فى المحيط العربى ثورة عربية كما بدأ منذ قرون .

فلم يكن الكواكبى يرى فى الاسلام ذلك « الكهنوت » الذى حولته اليه الرجعية والمستعمرون الأتراك .

والدليل على تقــدمه ويقظته فى هذا المجال ، ذلك الموقف الواعى الذى وقفه من الفتنة الطائفية التى أصابت الشـــام فى سنة ١٨٦٠ م والتى أدت الى أن يذبح الدروز ١٤٫٠٠٠ مسيحى مارونى فى لبنان ، وأن يذبح دروز دمشق بمســـاعدة الأكراد السوريين ٥٫٠٠٠ مسيحى ..

واستطاع الكواكبى أن يبصر اصــبع فرنســا خلف الطائفة المارونية ، وأصــبع الاستعمار الانجليزى خلف زعماء الدروز ، وأن يفضح هذا العبث الاستعمارى بمصالح الناس وأرواحهم .

وهذا الوعى القومى الذى اكتسبه الكواكبى هو الذى جعله يتخذ هذا الموقف المعادى للأتراك ، والذى جعله يتحدث عنهم ذلك الحديث الطويل فى كتابه (طبائع الاستبداد ، ومصــارع الاستعباد) ، والذى يمكن تلخيص رأيه فيهم فى كلمته الشهيرة : « ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل ، والترك ، والجراد » !!!..

وهو الذى جعله يحفل بالاسلام ، والاصلاح الدينى ، فى كتابه (أم القرى) كتعبير عن تقويم سليم لأثر الاسلام ، وقدره كقطاع هام وكبير فى حقل التكوين النفسى الواحد للجماعة العربية الواحدة ، التى نذر الكواكبى نفسه للدفاع عنها ه فى الشام ، ومصر ، بالقلم ، وبالنشاط العملى ، حتى سارت خلفه مؤامرات الأعداء فى شكل حكم بالاعدام تارة .. ومطاردة مرة أخرى ..

حتى اذا ما مات ، كتب الذين واروا جسده التراب ، على قبره كلمة « الشهيد » !!!..

٣

بل اننا نجد هذا التيار العربى الذى عاش فى مصر ، وأخذ يصطرع مع النزعات والأفكار الاقليمية ، قد تخطى نطاق المفكرين كأفراد ، والفكر كمدارس ، الى بعض الحركات السياسية ، والتنظيمات والأحزاب .

* * *

ففى الثورة العرابية ، ورغم الحديث الذى بعث به عرابى الى جورجى زيدان ، والذى تبرأ فيه من « تهمة » السعى لبناء دولة عربية ، الا أننا نجد أن الفكر العربى واستهداف بناء دولة عربية ، لم يكن أمرا غريبا على فكر الثورة العرابية ..

فالمستشرق الأوربى « دوفيربيه » يبعث الى المحامى البريطانى الذى تولى الدفاع عن عرابى بحديث ومعلومات عن عرابى يضمنها « اتهام » القائد الوطنى بأنه صاحب صلة وثيقة بالحركة السنوسية فى ليبيا ، وهى الحركة المعادية للخلافة العثمانية والاستعمار الأوروبى ، والتى اكتسبت لأهدافها هذه طابعا نضاليا عربيا مشوبا بفكر اسلامى لا يتنافى مع الطابع العربى الأصيل .

والخديوى توفيق يكتب الى السلطان العثمانى فى نوفمبر سنة ١٨٨١ م فيقول ضمن ما يقول : « ان مصر فى حالة ثورة ، وان هناك اقتراحا لانشاء امبراطورية عربية »[١] .

ونحن لا نعتقد أن حديث الخديوى توفيق هذا كان مجرد مبالغة ولا « تخويف » للسلطان ، لأن مثل هذا الاقتراح بانشاء امبراطورية عربية ، ليس غريبا على الواقع الثورى لحركة النضال التى خاضها ويخوضها الشعب المصرى منذ سنين[٢] .

* * *

والزعيم الوطنى المتقدم ، محمد فريد ، رغم محاولاته المتعددة ، وغير الموفقة للاستفادة من الخلافة العثمانية فى النضال ضد الاستعمار الانجليزى ، رغم ذلك ، الا أننا نلمح فى قطاعات كبرى من نشاطاته الكفاحية الطابع العربى ، وخاصة تلك القطاعات التى تمثلت فى صلاته ، وتنسيقه العمل مع الحركة الوطنية

---

(١) راجع (ما هى القومية ؟) لساطع الحصرى . و (الدولة العربية الكبرى) لمحمود كامل .

(٢) وحديث عبد الله النديم للسوريين الذين انحازوا للانجليز ، والذى يقول فيه : « أنا أخوك ، فلم أنكرتنى ، ما الشام ومصر الا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما .. أبرأتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ..؟؟.. » (راجع « تطور ونمو القومية العربية » للدكتور ابراهيم صقر) .

التونسية ، وبعض حركات المقاومة فى بلاد المغرب العربى بوجه عام ، وبالذات فى الفترة التى خلع فيها ايمانه بالخلافة الاسلامية .

* * *

بل لعل الكثيرين من المشتغلين بالمسائل العربية عندنا لا يعرفون المكان الذى اغتصبته لنفسها الأفكار العربية داخل حزب « الوفد المصرى » .. حتى بلغت من قوتها وأصالتها أن تكسب الى صفها سكرتير عام الحزب مكرم عبيد باشا ، هذا السياسى المصرى الذى لا يمكن أن يكون فكره العربى غير انعكاس لأصالة هذا الفكر فى المجال السياسى الذى عاش وعمل فيه .. فمكرم عبيد هو الذى يتحدث عن عروبة مصر ، فيقول ضمن ما يقول : « ان تاريخ العرب سلسلة متصلة الحلقات . لا ، بل هو شبكة محكمة العقد ، واذا علمت أن رابطة اللغة والثقافة العربية فى هذه الأقطار أوثق منها فى أى قطر من أقطار الأرض ، وأن التسامح الدينى الذى نشأ وترعرع ما زال موجودا بين أصحاب الأديان كلها فى الجارات الشقيقة ، أيقنت أن المقصود بقولى : المصريين عرب ، هو هذه الوشائج وتلك الصلات التى لم تفصمها الحدود الجغرافية ، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا ، على الرغم من وسائلها التى تتذرع بها الى قطع العلاقات بين الأقطار العربية ، واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها من أعظم الأركان التى

يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى . وأبناء العروبة فى حاجة الى أن يؤمنوا بعروبتهم ، وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة . نحن عرب ويجب أن نذكر فى هذا العصر دائما أننا عرب قد وحدت بيننا الآلام والآمال ، ووثقت روابطنا الكوارث والأشجان ، وصهرتنا المظالم وخطوب الزمان ، فأحدثت منا أمما متشابهة متماثلة فى كل ناحية من نواحى الحياة .

نحن عرب من هذه الناحية ، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية فى مصر ، وامتداد أصلنا القديم الى الأصل السامى الذى هاجر الى بلادنا من الجزيرة العربية .. فالوحدة العربية حقيقة قائمة ، هى موجودة لكنها فى حاجة الى تنظيم .. فتصير كتلة واحدة ، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة » [1] .

واذا كانت هذه الأفكار العربية الناضجة ، لم تجد فرصة البلورة والوضوح عند قاعدة حزب الوفد ، وهيئاته البرلمانية والشعبية بنفس المستوى والدرجة التى وجدت بها عند مكرم عبيد ، فانما كان مرجع ذلك الى سيادة النزعات الاقليمية الأخرى

(١) مجلة (الهلال) عدد ابريل سنة ١٩٣٩ م .

على حياة مصر السياسية ، وانتشارها داخل حزب الوفد نفسه فى معظم الأحيان ، ومعظم القطاعات .

* * *

وغير « الوفد المصرى » ومكرم عبيد ، فاننا نجد حـزب « مصر الفتاة » الذى تكون فى بداية الثلاثينيات من هذا القرن ، قد أفسح مكانا ملحوظا فى دعاياته ، وفى برنامجه ، للحديث عن العرب والعـروبة ، واعتبر العروبة دائرة كفاحية تلى الدائرة المصرية ، وتسبق دائرة الاسلام ، كما دعا الى الوحدة العربية فى برنامجه الثانى الذى صدر سنة ١٩٤٨ م ولقد تطورت هـذه الأفكار لدى هذا الحزب فتبنى شعار « الولايات العربية المتحدة » عندما تغير اسمه الى « حزب مصر الاشتراكى الديمقراطى » وتغير برنامجه أيضا ، وذلك قبيل الخمسينيات .

بل اننا نجد أن هذا الحزب قد أقام نوعا من الثنائية والازدواج بين فكرة العروبة من جانب ، ونزعة الفرعونية من جانب آخر ، ولم يجد تعارضا بين بعث المجد الفرعونى ، واذكاء روح العصبية للفراعنة وآثارهم ، وبين الكفاح لبعث المجد العربى ، واحياء تراث العرب وما خلفوا من آثار وأفكار .

ورغم الغموض الذى كان عليه برنامج هذا الحزب فى هذا المجال ، الا أننا نجد فى موقفه هذا ، الموقف الذكى السليم ، فهو

لم يضع « الفرعونية » كنقيض « للعروبة » وانما رأى فيها مجدا لابد وأن ترث العــروبة خير ما فيه ، وتراثا حضــاريا يعتز به الانسان ، أى انسان ، والموقف الأمثل أن يكون هذا التراث مبعث فخر واعتزاز للانسان العربى فى مصر ، والعربى من المحيط الى الخليج .

* * *

غير أن هذا الطابع العربى ، وتلك الأفكار والتيارات العربية التى عرفت طريقها الى بعض الحركات والأحداث السياسية فى مصر ، لا يعنى أن مصر قد عرفت ، فى قطاع حركتها السياسية ، وقطاع السلطة فيها ، التيار العربى بما يتناسب مع قوة هــذا التيار فى بنائها الحضارى وتكوين شعبها النفسى ، وكل شريان من شرايين الحياة التى عاشها الناس على ضفاف النيل .. فلقد كان هناك دائما عالمان .. عــالم الشعب والحيــاة والتكوين النفسى والثقافة والنمط الذى يعيش عليه الناس ، وكانت العروبة أكثر ما تكون وضوحا وجلاء فى هذا العالم ، وهذا الميدان . وعالم الدواوين السياسية ، وقطاعات المجتمع العليا ، والقابضين على أزمة الحكم وناصية الأمور ، وهؤلاء لم تكن العروبة قسمة فى عالمهم كما هى قسمة فى عالم الشعب ، وان كانت قد عرفت طريقها الى هذا العالم أحيانا ، وبشكل غير دائم وغير عميق .

وذلك لأن الآثار التى تركها الاستعمار ، وسياسة التجزئة والحرب التى شنت ضد كل ما هو عربى ، قد طبعت آثارها وآتت أكلها فى ميدان الحكام أكثر مما آتت أكلها فى ميـدان المحكومين .

فهذا الضعف الذى أصـاب السـياسة المصرية الرسمية فى موضـوع العروبة ، من الخطأ ، والخطأ البين أن يتخـذ دليلا أو مقياسا لضعف تيار العروبة فى أعماق الشعب المصرى ، والحياة المصرية ، وتكوين المصريين النفسى ، ودليلا على الحط من شأن الأفكار العربية التى تأثر بها ، وعاش فيها المصريون .

ولعل فى هذه المساهمات الهامة والجدية التى قامت بها الحركة الشعبية المصرية أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى فى ميدان الحركات العربية السرية ، والجمعيات العربية التى أخذت تناضل ضد الأتراك فى المشرق العربى ، ومن أجل الاحيـاء القومى ، والبعث العربى ، لعل فى هذا الدور الكبير الذى قامت به الحركة الشعبية المصرية ، فى الوقت الذى كانت فيه سياسة مصر الرسمية غارقة فى التخلف عن أن تبصر هذه الآفاق ، لعل فى ذلك الدليل المادى على صحة هذا الكلام .

وهكذا كانت المسيرة الكبرى التى قطعتها الجماعة العربية فى مصر ، والأحداث التى مرت بهذا الجزء من العالم العربى منذ أن ظهر نفوذ البرجوازية المصرية ، كطليعة للبرجوازيات العربية ، فى بدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد فى سنة ١٨٠٥ م ..منذ أن أطاحت الحركة الجماهيرية فى مصر بالوالى العثمانى ، وتمردت على نفوذ الباب العالى ، ورفعت الى السلطة محمد على باشا كممثل لآمالها وأحلامها فى العدل والحرية وبناء مجتمع جديد ، حسب ما خيل اليها فى ذلك الحين .

ومنذ هذا التاريخ ومصر تزخر بالأحداث الكبار ، ففى سنوات تقل عن الأربعين عاما ، أحدثت القوى الاجتماعية الجديدة تلك التحولات البرجوازية التى تحدثنا عنها ، وبنت القاعدة المادية التى أشرنا اليها ، .. قاعدة مادية جديدة لمجتمع جديد .. وعاشت تغيرات كيفية فى هذا المجتمع ، أنشأتها هذه التحولات المادية الكبيرة ، وبناء فوقيا جديدا ، وحياة مختلفة تمام الاختلاف عن التى عاشها الشعب المصرى فى عصر المماليك والأتراك والاقطاع.

كما شهدت هذه التجربة الجديدة تلك الأحداث ذات الطابع العربى التوحيدى ، التى تجسدت أكثر ما تجسدت فى تلك

الفتوحات والبناء والأحداث التى شهدها المشرق العربى فيما بين سنة ١٨٣١ م و سنة ١٨٤١ م .

هذه الأحداث التى مثلت القسمة العربية لحركة البرجوازية المصرية ، والطابع العربى للنظام الجديد ، والوجه العربى الذى ناضل من أجـل اعطائه للنظام الجديد ، بنـاة هـذا النظام ، و « الكادر » الجديد الذى تربى تربية وطنية حديثة ، والذى استلهم ثقافة الثورة البرجوازية الفرنسية الى جانب تراث العرب الذى تلقاه فى الأزهر الشريف .

غير أن هذه التجربة لم تعش طويلا فى حياة شعبنا ، وفى حياة الجماعة العربية ، وانمـا زحفت عليها جمـوع الصليبيين الجدد .. وأحفاد صليبيى الأمس .. بلا صلبان هذه المرة ، وانما بمعاهدات التجارة والامتيازات ، وأعلام المال والاقتصاد .

وشهدت أعوام ١٨٤٠ و ١٨٤١ م جولة ثانية بين القـوى الاستعمارية الأوربية والتركية والاقطاع ، وبين الحركة العربية الجديدة ، ونجح الاستعمار فى جولته هذه ، واستطاع أن يحطم الوجه العربى لهذه الحـركة ، وأن يحاصر قواها الاجتمـاعية الجديدة ، وقلبها النابض داخل حدود مصر كاقليم .

وبذلك فتح الاستعمار أمام هذه القوى باب الانحراف ، بل الانحرافات ..

- نحو حوض البحر المتوسط تارة ..
- ونحو أفريقيا تارة أخرى ..
- ونحو الفرعونية تارة ثالثة ..
- ونحو مصر ، فقط لاغير ، مرة ..
- ونحو الاسلام والخلافة الاسلامية والجامعة الاسلامية كبديل للعروبة فى بعض الأحيان .

ولكن هذا الليل الذى أرخى الاستعمار سدوله على مصر والعالم العربى فى بداية الأربعينيات من القرن الماضى ، لم ينجح فى اطفاء شعلة العروبة فى قلب مصر .. بل ظلت هذه الشعلة موقدة ، وبرهن استمرار اشتعالها طوال نحو قرن من الزمان ، على أن مصر لا تزال ، كما كانت منذ العهد الفاطمى ، القلب النابض للعالم العربى ، والقوة القائدة للجماعة العربية الواحدة ، لأنها التى تملك القوة البشرية والاقتصادية والحضارية الأكثر تقدما ، والأكثر قدرة على ممارسة هذا الدور على نطاق العالم العربى الكبير .

واذا كانت الجماعة العربية قد تعرضت فى خلال هذا القرن الذى امتد من أربعينيات القرن الماضى الى أربعينيات القرن الحالى ، لحالة من القهر ، والحرب ، والأماتة ، أكثر بشاعة

مما تعرضت له خلال قرون الحروب الصليبية ، فان ذلك لا يعنى أن الجماعة العربية فى الوقت الذى أخذت تبنى فيه « جامعة الدول العربية » فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، قد كانت فى نفس الوضع والحالة التى كانت عليها يوم أن غادرها الصليبيون ، وجلوا عن « عكا » آخر معاقلهم فى سنة ١٢٩١ م .

ولم يكن الفارق الوحيد هو فارق الزمن ، ولم تكن نفس السمات القومية التى اكتسبتها الجماعة العربية فى العصر الاقطاعى، هى كل ما كان للجماعة العربية قبيل اقامة « الجامعة العربية » .

بل لقد حدثت تطورات كبيرة وعميقة وجذرية فى هذا العالم العربى ، تطورات وتغيرات فى مستوى انتقال هذا العالم ، وهذه الجماعة من عصر الاقطـاع الى العصر البرجوازى ، من القيم والأفكار والحياة الخاصة بالمجتمع الاقطاعى الى اطار الرأسمالية بما تبنى وتخلق من قيم وأفكار ..

ولقد أغنت هذه التطورات سمات القومية العربية ، وجعلت الجماعة العربية قاب قوسين أو أدنى من التوحيد العربى ، وامتلاك ظاهرة « الأمة العربية » كامتداد وتطور لظاهرة « القومية العربية » لو لم يتدخل الاستعمار لينصر الاقطاع والتجزئة ، وليصيب القوى الجديدة بالنكسة التى تحدثنا عنها .

كما شــهدت هــذه الفترة الزمنية التى مرت منــذ القــرن التاسع عشر شكلا جديدا ، ومضمونا جديدا ، لحركة الصراع والنضال والثورة التى خاضتها الجماعة العربية ضد الأتراك ..

ذلك الصراع ، وهذه الثورة والمقاومة التى لم تكن خاصية لمصر فقط ، وانما شاركت فيها بلاد المشرق العــربى جمعاء .. بل وأيضا بلاد المغرب العربى ضــد الاستعمار الفرنسى ، الذى عرفته أكثر ضراوة وشراسة من نفــوذ الأتراك ، واحتــلالهم واستعمارهم .

الباب التاسع

فى المغـــرب العـــربى

١

وهذه البشاعة التى تحدثنا عنها ، عندما أشرنا الى آثار حكم الأتراك فى العالم العربى ، قد شـــهدتها بلاد المغرب العـــربى ، وناضلت ضدها ، وثارت عليها ..

ولكن هذه البشاعة ، وذلك القهر والاستعباد الذى حمـــله الأتراك الى بلاد المغرب ، وبالذات ليبيا وتونس والجـــزائر ، لم يكن شيئا مذكورا اذا ما قيس بما حدث لهذه المنطقة من جراء الاستعمار الأوربى لها ، سواء أكان من الطليان أو من الفرنسيين .

والمقاومة التى قابل بها الليبيون الاحتلال الايطالى ، ليست مثلا فقط للاستبسال من النضال والصلابة والاصرار على دحر العدوان ، وإنما هى كذلك صـــورة من صـــور العمل العربى

الجماعى ، وصورة من صور النضال العربى لا الليبى ، وتجسيد للسمات المشتركة ، والخصائص العامة التى تجمع الجماعة العربية فى كل مكان .

وهل بعد البلاء الذى أبلاه العديد من المناضلين والضباط العرب فى هذه المعركة من دليل ؟؟..

الضباط والمناضلين من أمثال عزيز المصرى ، وصالح حرب ، وعبد الرحمن عزام ، وصبحى الطرابلسى ، ومحمود حلمى ، والسيد عيسى الوترى ، واسماعيل الطرابلسى ، وتحسين العسكرى .. وغيرهم من أبناء الأقاليم العربية المختلفة ..

وهل بعد حكم الاعدام الذى صدر ضد عزيز المصرى ، والمتعلق بدوره فى هذه المعركة ، والذى أصدره الأتراك ، زاعمين أنه قد وقف ضدهم فى هذه الحرب .. هل بعد هذه الوقائع ، التى هى مجرد مثال ، دليل على أن هذه المعركة الليبية ضد الاحتلال الايطالى ، انما كانت صورة من صور النضال العربى القومى ، ضد هؤلاء الغزاة ؟؟..

والملحمة البطولية التى استمر الشعب الليبى فى صنعها وتقلمها، ضد الاحتلال الطليانى ، والتى لعبت فيها جماعة الشهيد « عمر المختار » دورا بطوليا ، وقدمت من التضحيات نماذج رائعة ، على

رأسها النموذج الذى قدمه رئيسها البطل العربى عندما قبض عليه الايطاليون وارتفعوا به فى احدى الطائرات ثم أسقطوه من ارتفاع شاهق ، ليلقى الموت على صورة لم يسبق لها مثيل ، جزاء رفضه المساومة والاستسلام .

والتى لعبت فيها أيضا الحركة السنوسية دورا هاما ، وقدمت نماذج من العمل الجماهيرى ، واقامة مراكز الدعاية والارشـاد والتنظيم على طرق التجارة ، وفى « الخانات » و « الزوايا » والمساجد ومراكز التبادل التجارى ، وغيرها من أماكن التجمعات القبلية التى خاضت نضالا بطوليا ضد الطليان ، والتى جعلت المفكر الاستعمارى ، ووزير خارجية فرنسا « هانوتو » يقول : « .. قد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر ، مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار .. وقد أوقفت أعماله رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى أفريقية الجنوبية » (١) .

* * *

وبلاد المغرب الثلاث الأخرى ، الجزائر ، وتونس ، ومراكش .. التى نكبت بالاستعمار الفرنسى فى أعـوام ١٨٣٠ م و ١٨٨١ م و ١٩١٢ م على الترتيب ، والتى لم يعتبرها الاستعمار الفرنسى

(١) الشيخ محمد عبده (الاسلام دين العلم والمدنية) .

الغاشم ودعاته ومفكروه مجرد مستعمرات ، بل أراد لها أن تكون الامتداد الفرنسى فى أفريقيا عبر البحر المتوسط .. ومن أجل ذلك مارست فرنسا ضد حركة المقاومة العربيه فيها ألوانا من العسفه والابادة الجماعية ، والاضطهاد ، ليس للاستعمار التركى عهد بها ، رغم ما حمله الى العالم العربى من ألوان القهر والاستعباد .

ولقد قدم الشعب الجزائرى نموذجا رائعا وبطوليا لهـذا النضال العربى ضد المستعمرين الفرنسيين ، لا فى ثورته الأخيرة المظفرة التى بدأت فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ م فقط كما يتبادر الى الأذهان ، وانما منذ أن دنست أرضـه أقدام المستعمرين الفرنسيين .

فالاحتلال الذى بدأ للجزائر سنة ١٨٣٠ م لم يستطع أن يثبت أقدامه ، ويقيم لنفسه جهاز سلطة فيها الا بعد ثمانية عشر عاما ، فى سنة ١٨٤٨ م .

وخلال هذه الأعوام الثمانية عشر ، قدم الشعب العربى فى الجزائر عشرات الألوف من الشهداء ، وخاض مئات المعارك ، وقدم نماذج نادرة من البطولة والتضحية وأضاف الى التراث العربى فى النضال أسطورة زعيمه وقائده عبد القادر الجزائرى ، والذى حمل أولاده وأحفاده الراية من بعده ، وربطت حياتهم

وتحركاتهم نضال الجزائر والمغرب العربى ، بالحركة العربية فى مصر والشام ضد الاستعمار .

ومنذ سنة ١٨٤٨ م ، وعندما أخذت الأمور تستقيم نوعا ما لسلطة الاحتلال الفرنسى ، شرعت تنفذ سياستها التى لخصها من قبل ذلك المفكر القومى الرجعى الألمانى « ماكس نودور » عندما قال : « ان شمال أفريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية ، وأما سكانه الحاليون فسيدفعون نحو الجنوب ، الى الصحراء الكبرى .. الى أن يفنوا هناك » !!! [1] .

واستطاع الاستعمار الفرنسى أن يجعل من هذه البلاد مهجرا ومستوطنا للأفاقين والمغامرين والباحثين عن الذهب والجريمة والاستغلال . وأن يزيح الشعب العربى بعيدا عن كل شبر من الأرض الخصبة ، وأن يقدم هـذا الشعب لقمة سائغة لوحش الصحراء .

ولكنه لم يستطع أن يفنى هذا الشعب ، لأنه لم يقدر سلفا التقدير السليم ، ولم يدرك أن روح هذا الشعب ، وعوده أقوى وأصلب من بشاعة حياة الصحراء ..

---

(١) فى سنة ١٨٣٠ ، وقبيل احتلال فرنسا للجزائر قال احد مفكرى الاستعمار الفرنسى عن الجزائر : « هذه المملكة الجزائرية التى ستصبح بلدا جديدا يتدفق اليه الفائض من السكان ، ومن نشاط ابناء فرنسا » !!

ولم يقدر أن اليوم الذى سيخرج فيه هذا الشعب من صحرائه وجبالها لتطهير ساحله ومدنه من المستوطنين والمستعمرين وجهاز قهرهم وارهابهم ليس ببعيد .. حتى ولو انتظر أكثر من قرن من الزمان . وأن هذه العودة ستكون شبيهة بخروج أجداد هـذا الشعب من صحراء شبه الجزيرة العربية لتحرير هذه المنطقة من العبـودية ، ولبناء نظام عليها أقرب الى روح العصر ، وأكثر انسجاما مع ناموس الحياة .

لم يكن الاستعمار يقدر هذا المصير ، ولا هذه التطورات ، اذ أنه ما كادت أقدامه تستقر على أرض الجزائر حتى شرع فى مسخ الحضارة العربية ، وسحق كل معالمها ، و « فرنسة » السكان العرب ، الذين أطلق عليهم « المسلمين » الفرنسيين .

وهذا اللسان الذى رآه محمد بن عبد الله ، عليه السلام ، محكا للعروبة ، و « ترمومترها » الدقيق ، منذ مئات السنين ، والذى اعتمده « الجاحظ » بابا جديدا لتعريب الذين لم يولدوا من أصول عربية صميمة ، هذا اللسان العـربى المتضمن للقيم العربية ، والتراث العربى ، والحضارة العربية ، والذى يضمن وجوده وحدة الوعاء الذى يشرب منه كل عرب المشرق والمغرب ومصر والسودان ، هذا اللسان كان أول ما وجه اليه الفرنسيون الضربات ..

وفى الأيام الأولى للاحتلال الفرنسى ، تحدث تقرير فرنسى رسمى فقال : « ان ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة افرنسية ، الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية ، والعمل الجبار الذى يتعين علينا انجازه ، هو السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالى بالتدريج ، الى أن تقوم مقام اللغة العربية الفصحى الدارجة بينهم الآن » [1] .

وتعبيرا عن عمق أبعاد المؤامرة الاستعمارية لفرنسة الجزائر ، وطمس السمات القومية العربية من حياة الجماعة العربية التى تعيش هناك ، جاء فى تقرير فرنسى رسمى سنة ١٨٤٩ م : « لا ننسى أن لغتنا هى اللغة الحاكمة ، فان قضاءنا المدنى ، الجزائى والعقابى ، يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته ، بهذه اللغة ، وبهذه اللغة يجب أن تصدر ، بأعظم ما يمكن من السرعة ، جميع البلاغات الرسمية ، وبها يجب أن نكتب جميع العقود ، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الأمور التى يجب أن نعنى بها قبل كل شىء ، هى السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة عامة بين الجزائريين ، بين الذين عقدنا

---

(١) انظر (هذه هى الجزائر) لأحمد توفيق المدنى .

العزم على استمالتهم الينا ، وتمثيلهم بنا ، وادماجهم فينا ، وجعلهم افرنسيين » [٢] .

ولا نعتقد أن أحدا ، مهما كان اغراقه وغلوه فى النزعة الاستعمارية الفرنسية ، يمكن أن يدافع عن هذه الخطة الاستعمارية لابادة مقومات الشعب الجزائرى القومية ، والحيلولة دون توحيد هذا الشعب ضمن الجماعة العربية الكبرى ، بدعوى أن هذا الموقف الفرنسى من اللغة العربية فى الجزائر انما كان جزءا من « تمدين » الجزائر و « تحضيرها » ، واعطاء الشعب الجزائرى فرصة الانتفاع باللغة الفرنسية ، وانقاذه من « التخلف » الذى تفرضه عليه لغته القومية . لأن هذه اللغة العربية هى التى تحدث عنها فيلسوف الفرنسيين « رينان » فقال : انها « فى غاية الكمال ، سلسة أية سلاسة ، غنية أى غنى .. كاملة .. » .. الى آخر ما أضفى عليها من نعوت وتمجيد .

والدين الاسلامى ، الذى كان يمثل قطاعا كبيرا من قطاعات التكوين النفسى للشعب الجزائرى وشعب المغرب العربى بوجه عام ، هذا الدين الاسلامى قد تعرض لمعركة ابادة ومحو ومسخ وتشويه لم يسبق لها مثيل .

(١) (بحوث فى القومية العربية) للدكتور البزاز ٠ و (ما هى القومية) لساطع الحصرى .

والمستر « برك » أحد كبار موظفى الولاية العامة بالجزائر يقول : « لقد وصل بنا امتهان واحتقار الدين الاسلامى ، الى درجة أننا أصبحنا لا نسمح بتسمية [1] « المفتى » أو « الامام » الا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس . ولا يمكن لموظف دينى أن ينال أى رقى الا اذا أظهر للادارة الفرنسية اخلاصا منقطع النظير » .

والنعرات العنصرية ، والأفق القبلى الضيق ، كأن أحد الأوتار التى عزف عليها الاستعمار الفرنسى بمهارة وتفوق واستمرار ..

فالعرب ، غير البربر .. والبربر ، لامصلحة لهم فى اللغة العربية ، ويمكنهم أن يكونوا فرنسيين مسلمين ، وهم لا شأن لهم بالشريعة الاسلامية والتشريع الاسلامى ، ويكفيهم العرف القبلى ، واذا احتاجوا الى شىء أكثر منه ، فليكن لهم فى القانون الفرنسى ما يريدون .

وعلى هذه الأسس القبلية ، والتفرقة العنصرية ، مارس الفرنسيون كل ما سجله تاريخهم الاستعمارى بشمال أفريقيا ، خاصا بهذا الموضوع ، وأصدروا فى المغرب سنة ١٩٣٠ م ذلك المرسوم الذى عرف بـ « الظهير البربرى » ، والذى اعترف بالعرف

(١) أى تعيين .

القبلى البربرى بديلا للشريعة الاسلامية ، والذى عمل على تقريب البربر من القانون الفرنسى .. لا حبا فى التجـديد ، ورغبة فى الحضارة ، وانما استهدافا للعزل والتفريق بين السكان الأصليين للبلاد ، وشق صفوف الحركة الوطنية ، وكسر شـوكة مقاومة الاستعمار .

وهو نفس السلاح الذى استخدمه الفرنسيون لخلق « الكيان الموريتانى المستقل » ومحاولة سلخ هذا الجزء عن المغرب العربى ، اعتمادا على العرق والجنس ، وترتيبا على « فرنسة » سكان هذا الجزء من أجزاء الصحراء .

وفى خضم هذه الحرب التى أعلنها المستعمرون الفرنسيون ضد الشعب العربى ومقوماته القومية والحضارية فى بلاد الشمال الأفريقى ، أثمر هذا الواقع القاسى ثمرتين مختلفتين ، ولونين من ألوان الحياة والسياسة والأهداف والأفكار .

ففى وجه الحرب الصليبية المعلنة ، وغير المعلنة ، ضد مقومات حياة العرب فى الشمال الأفريقى ، نشأت حركة المقاومة التى عرفت بالحركة السلفية .. تلك الحركة التى نادت بالرجوع الى منابع الاسلام الأولى ، وأصول تعاليمه النقية ، والتى تلفظ الدجل والشعوذة ، وتجار الدين الذين باعوا مقومات حياتهم وحضارتهم

فى سبيل منصب « المفتى » و « الامام » .. وأظهروا للادارة الفرنسية على حد تعبير المستر «برك» «اخلاصا منقطع النظير»[1]..

كما استهدفت الحركة السلفية هذه احياء التراث العربى ، والحفاظ على اللغة العربية ، والنضال من أجل عروبة الشمال الافريقى ، والاستماتة فى المعركة ضد « فرنسة » السكان الأصليين [2] .

وباختصار .. لقد اتخذت الحركة الوطنية الحديثة ، المعبرة عن النمو الجديد للقوى الاجتماعية الجديدة ، فى بدايات ظهورها وتبلورها ، شكل « الحركة السلفية » طريقا للبعث القومى ، والاحياء الحضارى ، ومقاومة الاستعمار .

وامتدادا لهذه الحركة السلفية كان « حزب الاستقلال » بالمغرب ، و « جماعة العلماء الجزائريين » فى الجزائر ، التى أنشئت كرد فعل للاحتفالات المجنونة التى أقامها الفرنسيون فى

---

(١) كان الجزائريون يطالبون باستمرار بتطبيق قانون سنة ١٩٠٥ م الخاص بفصل الدين عن الدولة ، وحرية الطوائف الدينية واستقلالها ، كما قاموا بحركة مقاطعة للمساجد التابعة للدولة ، وانشأوا مساجد « حرة » لا سلطان عليها الفرنسيين .

(٢) راجع فى ذلك حديثنا عن اللغة العربية وصراعها ضد الفرنسية فى كتابنا (الأمة العربية وقضية التوحيد) .

الجزائر سنة ١٩٣٠ م بمناسبة مرور مائة عام على احتلالهم للبلاد .. وكأثر من آثارها كانت المعاهد العربية التى أقيمت على غرار معاهد الأزهر الدينية فى كل من تونس ومراكش ، والمدارس والمعاهد التى أقيمت بالجزائر ، والتى جاهدت لتحفظ للشعب نقاء حواسه القومية ، ومقوماته المعنوية « الروحية » ، والتى كانت تعلم الناس لغتهم العربية يوم أن كان تعلمها جريمة يعاقب عليها القانون ، وتورد صاحبها مورد الهلاك .

و « حزب الاستقلال » فى المغرب هو الأب الروحى للحركة الوطنية هناك .. وكما كان ثمرة من ثمار « الحركة السلفية » فلقد أثمر ، عندما جمدت قيادته وتخلفت ، وتبنت الفكر الرجعى واليمينى ، أثمر انقسامات وانشقاقات ، قدمت نبتا أكثر تقدما ، وأكثر مسايرة لروح العصر ومنطق الظروف .

و « جمعية العلماء الجزائرية » كثمرة للحركة السلفية فى الجزائر ، وان تكن قد عكست الكثير من أفكارها وتعاليمها على الحركة الوطنية بشكل عام ، الا أنها قد عرفت داخل صفوفها الأجنحة المتفاوتة التقدم والتخلف والتردد بين الاتجاهات ، وساهمت مع مجموع الحركة الثورية الجزائرية الحديثة فى تحمل عبء الثورة ، والسير بها مرحلة شاقة وهامة من طريقها ، ولقد

لعبت صحيفة « المنتقد » التى أصدرتها ، ثم صحيفة « الشهاب » دورا كبيرا فى الثقافة والسياسة وعملية الاحياء .

واذا كانت هذه الحركة السلفية قد مثلت خلال مرحلة طويلة ، قلب الحركة الوطنية واباها الروحى فى المغرب العربى ، وكانت التعبير عن رد الفعل المعاكس والمناضل ضد محاولات « الفرنسة » للعرب المسلمين ..

واذا كنا قد اعتبرنا هذه الحركة ، احدى ثمرتين أثمرتهما السياسة الفرنسية الاستعمارية .. فلقد كانت الثمرة الثانية مغايرة تماما للشكل والمضمون الذى اتخذته الحركة السلفية التى تحدثنا عنها ..

(مع ملاحظة أننا نتناول من كل الموضوعات والأحداث ، فقط ، أهم الجوانب المرتبطة بموضوع العروبة والتعريب) .

فلقد اتخذت هذه الثمرة الثانية ، أحيانا ، شكل تلك الدعوة التى تحدث أصحابها طويلا عن الشمال الأفريقى كامتداد أفريقى لفرنسا ، وعن شمال أفريقيا اللاتينى ..

وعن الصلات التى تربط سكان الشمال الأفريقى بالفرنسيين فى فرنسا الأم .

وحول هذه النظرية اللاقومية واللاوطنية ، قيل الكثير ، وكتب الكثير ، وبذل الاستعمار وعملاؤه ، والمخدوعون ببريق حضارته ولمعان سيفه ، الكثير ، وأكثر من الكثير ..

وامتدادا لنظرية « الامتداد » هذه ، كان ذلك المخلوق المشوه الذى رأيناه فى مصر ، والذى اتخـذ فى الشمال الأفريقى نفس الاسم والشكل الذى عرفناه فى مصر ، والذى نبع من نفس المنابع ، وتأثر بنفس المؤثرات ، والذى سماه أصحابه هنا وهناك بنظرية « حوض البحر المتوسط » .

ومن بين صفحات كثيرة ، وكتب كثيرة ، خطها أصحاب وجهة النظر هـذه فى بلاد الشمال الأفريقى اخترنا كلمات صـغيرة ، ومعبرة ، لأحد كبار ساسة الشمال الأفريقى ، « الحبيب بورقيبة » الذى يقول فى كتابه (هذه تونس) [1] « .. تونس التى تتقدم اليكم فى هذا المجلد ، هى تونس المستقلة .. وهى صغيرة ، ولكنها كبيرة بالمركز الذى تحتله فى قلب البحر الأبيض المتوسط .. وهى الى ذلك مرتفع ينتصب حاجـزا وسط البحر عندما تعصف فيه العواصف .. فهى أداة وصل ، وفى امكانها أن تقوم سدا بين العالم

---

(١) صدر هذا الكتاب سنة ١٩٥٧ م .

الشرقى والعالم الغربى .. والسعى للتوفيق بين العالم العربى وعالم الغــرب » [1] .

فتونس ، مثلها فى ذلك مثل بلاد المغرب العربى ، ليست فى نظر أصحاب هذه النظرية الجزء العربى الحى المتفاعل فى اطار العالم العربى ، والحضارة العربية ، والساعى ليكون قطعة من الجماعة العربية الكبيرة ، والأمة العربية الواحدة ، وانما مكانها : فى البحر المتوســط .. وهى : حاجــز .. وسد .. وفى أحسن الحالات : أداة وصل وتوفيق .. لا انها امكانية منحازة للعــرب والعروبة ، كما يجب أن تكون ، وكما أصبحت عليه الحــال فيما بعد ، يوم اكتسحت الحركة الثورية العربية فى بلاد الشمال الأفريقى مضامين هذه الثمرة المشوهة والمشبوهة التى أثمرتها جهود الاستعمار ، وأحلت محلها حركة من العروبة والتعريب ، على أسس جديدة ، وبشكل جديد ، ومضمون جديد .

وهكذا نجد أنفسنا ، عندما نريد أن نبصر حركة العروبة

---

(1) لقد كانت هذه الأفكارمرحلة عارضة فى فكر تونس والحزب الدستورى الجديد الذى يراسه بورقيبة ، وهم الآن يسيرون فى الركب العربى ، ويناضلون من أجل الكيان العربى الواحد للأمة العربية الواحدة ، ولقد تبنى الحزب الأفكار الاشتراكية وغير اسمه الى (الاشــتراكى الدستورى) وذلك فى مؤتمره الذى عقــد سنة ١٩٦٤ م ، وان تكن العروبة والاشتراكية غير واضحة المعالم وغير حاسمة هناك حتى الآن .

والتعريب ، ومقاومتها للاستعمار الفرنسى والايطالى فى بلاد الشمال الأفريقى والمغرب العربى ، فاننا يجب أن نبحث عن ردود الفعل التى أحدثتها خطط الاستعمار . وعن الحركات الفكرية والسياسية والثقافية والدينية التى كانت ثمرة هذا الاضطهاد والتى اتخذت من الحركة السلفية هناك شكلا لها أو أبا روحيا ، أو تراثا وسندا فى التطور والنمو والارتقاء .

كما اتخذت من الصراع ضد نظريات « الفرنسة » و « الامتداد » و « حوض البحر المتوسط » فرصة للبلورة ، وتنقية الفكر ، والتعمق وازدياد الانصهار .

ولقد كان طبيعيا للحركة السلفية هذه ، لما تحمل من أهداف عربية ، ولما تسلك من طريق عربى أصيل أن تجد لها ، ولنضالها ، صدى فى مصر ، وفى بلاد المشرق العربى ، وأن يكون كفاحها امتدادا فى أحيان كثيرة ، للموجة العارمة التى تناضل ضد الاستعمار بمختلف صوره ، من المحيط الى الخليج ..

كما كان طبيعيا أن تعيش بلاد الشمال الأفريقى نفس الأحداث التى عاشتها بلاد الشرق العربى ومصر ، .. وأن يشهد ، مثلا ، مؤتمر الصلح الذى أعقب الحرب العالمية الأولى ثلاثة وفود تحمل نفس المطلب وهو الاستقلال :

• سعد زغلول .. عن مصر ..

• والأمير فيصل .. عن المشرق العربى ..

• والأمير خالد ، حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى ، عن الحركة الوطنية الجزائرية [1] .

وأن يلقى الزعماء العرب الثلاثة من المؤتمر نفس الجواب : الرفض .. وأن يعودوا بنفس الاحساس .. خيبة الأمل والرجاء .

كما لم يكن غريبا أن تكون القاهرة ، طوال هذه الفترة التى نتحدث عنها ، والتى امتدت الى الحرب العالمية الثانية ، موئلا لثوار المغرب العربى ، ومستقرا لحياة أبطال الكفاح المسلح فى الريف المغربى ، وأبطال النضال ضد الأسبان والفرنسيين .

---

(١) فى سنة ١٩١٣ أرسل الأمير خالد الى المؤتمر العربى بباريس البرقية التالية : « الى السادة الأفاضل العظام أعضـــاء المؤتمر العربى .. اتصلت بدعوتكم لأبناء الأمة العربية بكل فرح وسرور ، وادعو الله من صميم الفؤاد أن يثبت سعيكم ، وانى واحد منكم قلبـا وقالبـا وما دامت الأفكار شريفة والمقاصد عفيفة فلا شك من النجاح . واخبركم بأن دعوتكم كان لها صـــوت رنان ، وقد انتشرت فى جميع الآفاق ، واتتنا الجرائد الشرقية والغربية بما يسر الخاطر ويبعث على الأمل بنجاح هذه النهضة العامة ، ولا شك فى أن الدولة العثمانية توافق على طلبنا ، اذ بتحسين الادارة الداخلية تترقى سوريا فى أوج المعالى ، وبترقيتها تكون نتيجة حسنة للدولة العلية ، هذا مع أن المراد عدم الخروج من تحت سلطتها ، فالمولى يوفق الجميع لما فيه صلاح الوطن والأمة . وكنت أود أن أحضر بنفسى فى مؤتمركم العظيم ولكننى مشتغل بالاستعداد للسفر .. والسلام » خالد . (انظر : المؤتمر العربى الأول ، مجموعة وثائقه . ص ١٩٦) .

كما كان رائعا وجميلا ذلك الذى شهده صعيد مصر زمن الحملة الفرنسية ، يوم جاء ذلك « اللواء العربى » الذى قاده « الشيخ الكيلانى » أحد أبناء المغرب ، والذى ضم قوات عربية مختلفة ، وسافر من « ينبع » بالحجاز ، وحارب « نابليون » فى الصعيد .. فأبلى بلاء حسنا ، وخط بالدم المشترك على أرض مصر ، المصير الواحد للجماعة العربية من المحيط الى الخليج .

الباب العاشر

الكفاح البرجوازى فى المشرق العربى

١

وكما هو الحال الذى وصلت اليه الحركة القومية ، والطريق الذى سلكته القوى الاجتماعية الجديدة فى مصر ، وفى المغــرب العربى ، من حيث توزع الأفكار والاتجاهات حول المستقبل القومى ، والاطار الذى تتحرك فيه البلاد من الناحية القومية ، كانت حال المشرق كذلك ..

نزعات اقليمية ، نشأت كرد فعل للاحتلال العثمانى والاضطهاد التركى ، ثم قوى نفوذها نتيجة لنفوذ بعثات التبشير الغــربية الاستعمارية فى البداية ، ولنفوذ الاستعمار الفرنسى والانجليزى المباشر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ..

واحقاقا للحق ، فان هذه النزعات الاقليمية ، فى المشرق العربى لم يكن لها قوة ونفوذ كبير ، وخاصة فى الميدان الفكرى والمجال « الايديولوجى » للحركة القومية العربية ، لأن الكيانات السياسية الضعيفة للولايات العربية العثمانية ، ما كان لها أن تملك صلاحيات البقاء والاستقرار والنمو والتطور الاقتصادى والاجتماعى ، ومن ثم ما كان لها أن تكون مصدرا غنيا لفكر انفصالى اقليمى يقف على قدميه ، وتجزئة سياسية يمكن الدفاع عنها ، ويمكنها أن تصمد أمام الفكر القومى التوحيدى ، الساعى الى تكوين أمة واحدة من هذه الكيانات المصطنعة التى أقامها الأتراك ، ومن بعدهم الفرنسيون والانجليز .

فهذه الكيانات وان أرضت غرور القوى الاقطاعية العربية ومصالحها ، تلك القـوى التى تحالفت وتآمرت مع الاستعمار الأوربى والتركى ضد الحركة التوحيدية التى قامت فى النصف الأول من القرن الماضى ، فما كانت هذه الكيانات لتستجيب لمطامح البرجوازية العربية الناشئة والراغبة فى بناء وطن قومى ، ودولة واحدة من هذه الكيانات المصطنعة التى أقامها الأتراك ، ومن بعدهم البرجوازية ، ويضمن لها امكانيات التطور والنمو والازدهار .

ومن هذه الأرضية نبع الضعف الذى كانت عليه دعـوات

ونزعات اقليمية مثل « الفينيقية » التى ظهرت فى لبنان ، والتى كانت أثرا من آثار الدعايات الاستعمارية المسمومة ، التى أرادت أن توهم اللبنانيين أنهم ليسوا عربا ، وانما هم من أصل الفينيقيين الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتى العرب الى هـذه البلاد ، وأنهم تاريخيا ليسوا عربا ، وانما هم خليط من أبنـاء الفينيقيين وأبناء الامارات الصليبية ، وأن مصلحتهم الاقتصادية والحضارية فى أن يكونوا كيانا خاصا غير عربى ، وأن يمارسوا دورهم الخاص بهم « محايدين » حسنى الصلات بالجميع : ظالمين ومظلومين ، بعيدين عن « المشاكل » التى تزخر بها حركة التحرر والنضال ضد الأتراك ، .. أو ضد الفرنسيين ، مفتوحى الأبواب والقلوب والذراعين لجميع الأطراف .

ولقد كانت هذه النزعة ، كمعظم النزعات الاقليمية ، متأثرة بعدد من المثقفين والمفكرين المتأثرين بالفكر غير العربى ، والمصالح الأجنبية بالذات .

وكما كانت النزعة الاقليمية التى حملها ودافع عنها ، وتآمر من أجلها ، « الحـزب القـومى السورى الاجتماعى » ، نزعة « سوريا الطبيعية » و « الأمة السورية » والقائلة بأن « سورية للسوريين ، والسوريون أمة تامة .. والوطن السورى هو البيئة

السورية التى نشأت فيها الأمة السورية ، وهى ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس فى الشمال الغربى ، وجبال البختيارى فى الشمال الشرقى ، الى قناة السويس والبحر الأحمر فى الجنوب ، شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم فى الشرق . ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال السورى الخصيب ونجمته جزيرة قبرص » [1] .

كما كانت هذه النزعة ، والحزب الذى نادى بها ، مطية من مطايا الرجعية والاستعمار فى المنطقة ، فكذلك كانت كل النزعات التى سارت فى نفس الطريق ..

ولقد كان طبيعيا لهذه النزعات غير العربية ، لا أن تهمل فقط تنمية الروابط القومية ، والسمات والخصائص التى تجمع أبناء الجماعة العربية الواحدة ، بل وأن توجه نيرانها الى هذه الروابط والقسمات .

وكما شهدنا من قبل فى مصر حديثا عن وجوب كتابة اللغة بحروف لاتينية ، وعن وجـوب سيادة اللهجة العامية ، فكذلك شهدت بلاد المشرق العربى ، تحت حجج مختلفة ، دعوات لسيادة اللهجـات العامية ، عـلى حساب اللغة العـربية المشـتركة ،

(1) انطون سعادة (الأبحاث القومية والاجتماعية) ص ١٣ ، ١٥ (الحلقة ٤٢) .

بل ولا زالت مثل هذه الدعوات تجد لها صدى عند شاعر لبنانى مثل « سعيد عقل » الذى دعا اليهــا ، وكتب ديوانه (بارا) بالحروف اللاتينية والعامية اللبنانية ، ولكن هذه الدعوات كما قلنا لم تستطع أن تثمر ثمارا يعتد بها ، ولا أن تمثل خطــورة حقيقية على الفكر القومى التوحيدى للعرب فى المشرق ، لأنها ما كانت لتجد الكيانات السياسية المستقرة ، التى يمكن أن تضمن لها البقاء والاستمرار ، لقد كانت فاقدة لأسباب قوتها واستمرارها، ومن ثم لم تكتب لها الحياة .

وانما كتبت الحياة والقوة للدعوة العربية ، والفكر القومى ، والأهداف التوحيدية لعرب المشرق ، ثم للعرب أجمعين .

غير أن هذه الأفكار القومية التوحيدية قد نشأت فى المشرق ضعيفة غير قوية ، وسارت ببطء وعلى استحياء .. ولم تنضج النضج الكافى ، الا مؤخرا ، وأثناء الحرب العالمية الأولى على وجه التحديد ..

فعلى الرغم من أن الكيانات السياسية العربية المصطنعة ، والضعيفة ، كانت ســببا من أســباب نشــوء الأفكار القومية والتوحيدية ، والشعور بضرورة التفــكير عــلى النطاق القومى لا الاقليمى ، وهذا ظرف موات للحركة العربية العامة .. الا أن

الضعف الذى كانت عليه القوى البرجوازية العربية ، وهى القوى الاجتماعية الجديدة التى تحمل على عاتقها رسـالة الوصـول بالقومية الواحدة الى الأمة الواحدة .. وأيضا تأخر ظهور هـذه البرجوازيات ، وانعدام امكانيات نموها المبكر والسريع ، بسبب عوامل كثيرة ، لعب فيها الاستعمار التركى والغربى والاقطاع الدور الأول والأساسى .

بسبب كل هذه الظروف كان الضعف الذى أصاب الحركة العربية الواحدة ، والفكر العربى القومى ، والذى استمرت عليه هذه الحركة فى المشرق زمنا غير قصير .

ولم يكن الانسـحاب الذى قـام به الجيش المصرى فى سنة ١٨٤١ م من بلاد المشرق العربى ، ولا عودة الحلف الاقطاعى الاستعمارى الى السيطرة ، لم يكن ذلك بالأمر الذى قضى قضاء نهائيا على الفكر القومى التوحيدى الذى ساهمت هذه الحركة التوحيدية فى رعايته وتنميته واحيائه على النحو الذى أشرنا اليه من قبل .. لقد أضعفت هذه النكسة الى حد كبير جدا من نفوذ هذا الفكر ، وقوة هذه الحركة ، ولكنها لم تقض عليها ، ولم تنه عهدها بالوجود والحياة .

فالقوى الاجتمـاعية الجـديدة التى أفسحت لها الحركة

التوحيدية بعض الطريق ، وأشعرتها بقيمتها ووجودها ، وما لها من مستقبل يجب أن تبنيه ، .. أخـذت تقاوم الاستعمار التركى والسيطرة الاقطاعية ، .. ولكن دون ثورة ، لأنها لم تكن فى مستوى من القوة يضمن لها مقومات الثورة على هؤلاء الأعداء .

ولعل فى الموقف الوطنى التقـدمى الذى اتخـذته طلائع البرجوازيات العربية فى المشرق ، والممثلة فى نواب العرب فى مجلس « المبعوثان » العثمانى [1] ، ذلك الموقف الذى عارض فيه نواب بغـداد المشروع الاسـتعمارى الذى اتفقت عليه شركة « لنج » البريطانية مع السلطان العثمانى ، والذى يمنح هـذه الشركة امتياز الملاحة فى نهرى دجلة والفرات .. وفى المعركة التى دارت من قبل النواب العرب عن بغداد ضد هذا الامتياز ، لأنه يضر اقتصاديات البلاد ، ويزيد من نفوذ الاستعمار الانجليزى فى حوض ما بين النهرين .. وأظهر النواب استعدادهم لتكوين شركة عربية وطنية تقوم بهذا العمل بدلا من الانجليز .. ووقوف كل النواب العرب فى مجلس « المبعوثان » الى جانب نواب بغداد ، .. لعل فى ذلك بداية المقاومة البرجوازية .

ولقد كان هذا الموقف أكثر من تعارض بين مصالح العـرب

---

(١) استمر قيام هذا المجلس من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨م .

ومصالح الأتراك والانجليز ، بل كان صحوة للقوى الاجتماعية الجديدة ، نابعة من مصالحها الطبقية الجديدة ، ومستهدفة بناء الكيان الاقتصادى العربى ببطء وتدريج ، ولكن باصرار على أن يكون عربيا ، وعربيا خالصا هذا الكيان .

ولعلنا نذكر أن ابراهيم باشا قد سبق ووقف أثناء التجـربة التوحيدية التى تحدثنا عنها ، ضـــد نفس المشروع .. فموقف النواب العرب هذا ، انما هو امتداد لموقف عربى قديم .

والمدارس العربية التى أنشأتها مصر أثنـــاء قيـــام الحـــكم التوحيدى ، قد ظلت مراكز اشعاع للفكر القومى ، واستمرت تغالب جهل الاقطاع التركى الذى أخذ يواصل العبث بشراسة بمقومات الحياة العربية ، باللغة والثقافة والحضارة ، وكل ما يجمع بين العرب من قسمات ، وحتى عندما كانت تغلب هذه المدارس على أمرها ، فتغلق أبوابها ، كانت تظل ذكرى فى الضمير الثقافى تمجد التعليم المدنى والقومى على مر السنين .

والمؤرخون العرب ، وشهود عيان التجربة التوحيدية ، قد حافظوا بما كتبوا من فصول وأبواب وكتب تاريخية ، على بقايا الجذوة العربية ، وساهموا فى مقاومة طوفان « التتريك » .

واذا شئنا أن نعرف قوة هذه الحركة الفكرية والنضالية التى

أخذت تموج بها أحشاء هذا المجتمع العربى فى المشرق ، ومقدار السدود والحواجز ، التى وضعتها أمام رغبة الأتراك فى الانتصار ، فما علينا الا أن نقرأ تلك العبارات التى قالها أحد زعماء الأتراك ، معترفا بالعجز فى مهمة الأتراك الرامية الى محو كل ما هو عربى من البلاد ، لقد قال : « ان سياسة التتريك لا يمكن أن تنجح مع العـــرب ، لأن عددهم كبير ، ولأن لغتهم قوية ، ولها مناعة كبيرة ، لكونها لغة الدين والقرآن .. ولهذه الأسباب كلها يجب أن نعرف أن كل محاولة لتتريك العرب محكوم عليها بالفشل »[1].

٢

على أن القوى الاجتماعية الجديدة ، قوى البرجوازية العربية بالمشرق العربى ، ما كانت لتجد تعبيرا صادقا عن قوتها ووزنها وآمالها وبرامجها ، أكثر مما وجدت ذلك فى صـــورة الجمعيات السرية العربية ، التى تبنت قضية النضال العربى ضـــد عسف الأتراك .

هذه الجمعيات التى كانت القسمة الأساسية لهـــذه الحركة القومية العربية ، منذ أن انتكست حركة ابراهيم باشا ، واستمرت

(١) راجع (بحوث فى القومية العربية) للدكتور البزاز .

بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، والتى كانت قاعـدة الثـورة العربية التى قادها « شريف » مكة ، الشريف حسين .

وهى ما كانت لتجد التعبير العلنى عنها فى أحسن من الجمعيات العلمية والأدبيـة والثقافية التى أنشـأتها وأقامت لها الأندية وأصدرت باسمها المجلات .

وعلى طول هـذه الفترة التاريخية التى استغرقت أكثر من نصف قرن من الزمان ، وفى طول بلاد المشرق العربى وعرضها ، وارتباطها بالقاهرة فى أحيان كثيرة ، ومدا للبصر الى بلاد المغرب العربى أحيانا ، كانت الجمعيات العربية القومية تقام ، وتحارب ، وتضطهد ، وتحل ، ثم تقام وتناضل من جديد .

ولقد استفادت هذه الجمعيات أبلغ الاستفادة من عدة عوامل مناسبة ، وعدد من الظروف المواتية لها ولنضالها ، مثل المدارس التى أنشأها النظام التوحيدى الذى أسلفنا ذكره ، والمدارس التى أقامتها البعثات التبشيرية المسيحية منذ ذلك الحين ، وبداية حركة الطبع والنشر التى بدأت لكتب التراث العربى القديم ، منذ أن أدخلت « البعثة الأمريكية البرسباتيرية » الطباعة العربية الى لبنان سنة ١٨٣٤ م .

كما زاولت نشاطها ، فى أحيان كثيرة ، تحت ستار الجمعيات العلمية ، والأندية والأهداف الأدبية والثقافية ، واستطاعت بذلك أن تقيم لنفسها المراكز لا فى الولايات العربية فقط ، بل وفى العاصمة العثمانية فى بعض الأحيان ، كما حدث لجماعة (المنتدى العربى) التى أقامت لها ناديا يحمل هذا الاسم فى « استنبول » ، وأصدرت مجلة قومية عربية بنفس الاسم كذلك .

وبدأت صفحات هذه المجلة تتحدث عن العروبة ، وعن التاريخ والتراث العربى ، وتتخذ الأدب المسرحى وسيلة لتلقين الشعب العربى أن العرب للعرب ، وأن عدوان العربى على العربى مما تأباه القيم والشمائل العربية والخلق القويم .

كما أدركت هذه الجمعيات السرية قيمة القــوة فى معركة التحرير القومى ، وخلع النير العثمـــانى عن الرقاب .. فعرفت طريقها الى الجيش العثمانى ، واستطاعت جمعية (العهد) التى كان الفريق عزيز المصرى يلعب فيها دورا بارزا وقياديا ، أن تنتظم عددا كبيرا من الضباط العرب فى هذا الجهاز الحساس ، بلغ الأربعة آلاف عضو ، وأن يكون لها عدة فروع فى عدد من البلاد العربية .

كما أدركت هذه الجمعيات جميعا ، قيمة اللغة القومية ، كأهم قسمة من قسمات الجمـاعة العربية الواحدة ، وكأداة ضرورية

ولازمة للسير بالعرب فى طريق الوحدة نحو الأمة الواحـدة ، فرفعت شعارها المطالب بجعل هذه اللغة لغة رسمية فى الولايات العربية ، وباستخدامها والاعتراف بها فى الدواوين الرسمية ، ومجلس « المبعوثان » .

كما أدركت هذه الجمعيات قيمة الدعاية والاثارة ضد الظلم العثمانى ، فأصدرت المنشورات السرية ، ووزعتها بمختلف الطرق، وعملت على تجنيد الشباب العربى للانخراط فى سلك عضويتها ، وتوجيهه للعمل القومى والنضال العربى السليم .. وهى فى هذا العمل الأثارى كانت تستخدم كل ما تقدمه العربية من وسائل وأدوات ، ولقد رأت فى الشعر العربى أحـد هـذه الوسـائل والأدوات .

والذين كتبوا تاريخ التحركات القومية فى القرن التاسع عشر فى بلاد المشرق العربى يذكرون فى مكان بارز ، تلك القصيدة التى كتبها الشـيخ الثائر المناضل « ابراهيم اليازجى » والتى طبعت ووزعت كمنشور ثورى ضد العثمانيين ، والتى جاء فيها :

تنبهـوا واسـتفيقوا أيها العـرب

فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعـلل بالآمـال تخدعكم

وأنتم بين راحات القنـا سـلب

* * *

فشمروا وانهضوا للأمــر وابتدروا

من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

لا تبتغوا بالمنى فوزا لأنفســـكم

لا يصدق الفوز مالم يصدق الطلب

* * *

فيا لقومى ، وما قومى سوى عرب

ولن يضـــيع فيهم ذلك النســب

* * *

أليس فيـــكم دم يهتـــاجه أنفه

يوما ، فيدفع هــذا العار اذ يثب

فأسمعونى صـــليل البيض بارقة

فى النقــع ، انى الى رناتهــا طرب

واسمعونى صـــدى البارود منطلقا

يدوى به كل قاع حــين يصطخب

* * *

صـــبرا هيا أمة الترك التى ظلمت

دهــرا ، فعما قليــل ترفع الحجب

لنطلبن بحـــد السيف مأربنـــا

ولن يخيب لنا فى جنبـــه أرب

ومن يعش ير ، والأيام مقبـــــلة

يلوح للمـــــرء فى أحداثها العجب

* * *

ونحن اذا كنا قد اخترنا لهذا الباب عنوانا يدل على أن الكفاح الذى شهدته بلاد المشرق ، والذى هو موضوع حديثنا هنا ، انما كان كفاحا برجوازيا ، واذا قلنا ان هذه الجمعيات السرية العربية ، التى هى القسمة الأساسية للحركة النضالية فى ذلك التاريخ ، انما كانت بمثابة التنظيمات السياسية القومية للقوى البرجوازية العربية الجديدة .

اذا كنا قد قلنا ذلك ، وهو ما نقصـــده بالفعل ، فان ذلك لا يعنى أن كل هذه الجمعيات انما تألفت من أعضاء برجوازيين ، وانما الذى نعنيه بالتحديد ، هو أن القوى البرجوازية العربية التى أخذت تعرف طريقها للنضال ضد الأتراك ، والتى سلكت طريق التنظيم السرى ، كانت هى القائدة لهذه الحركة القومية ، تنظيما وفكرا و « ايديولوجية » ، .. وان سارت معها ، وخلفها ، كل فئات الشعب ، وجميع الذين أضيرت وتضار مصالحهم المادية والأدبية من سيطرة الأتراك .

وحول هـــذه الأهداف والأفكار تجمعت الشبيبة العربية ، وتحركت الجمـــاهير المتطلعة للمستقبل القومى الحر ، وماجت الأرض العربية بالعديد من الجمعيات المناضلة ، التى كان من أهمها وأبرزها :

• « جمعية بيروت » التى أنشئت سنة ١٨٧٥ م :

ولم تكن تطلب الاستقلال العربى الكامل عن الدولة العثمانية ، بل تدعو الى نظام ذاتى لسوريا ولبنان فقط .

* * *

• جمعية سرية أخرى ، أقيمت سنة ١٨٨٠ :

تطلب أن تكون اللغة العربية لغة الولايات العربية ، ورفع الرقابة التركية عن الصحف الوطنية ، ووحدة سوريا ولبنان .

* * *

• « رابطة الوطن العربى » التى أنشئت بباريس من الطلاب العرب سنة ١٩٠٤ م :

وهدفها تحرير عرب الولايات العثمانية من نير الأتراك .

* * *

• « جمعية الاخاء العربى العثمانى » التى أقيمت بالآستانة سنة ١٩٠٩ م :

وكانت تدعو الى دولة مزدوجة عربية ـــ عثمانية ..

* * *

• « الجمعية الاصلاحية » وهى التى أنشئت ببيروت سنة ١٩١٢م .

• « حزب اللامركزية الادارية العثمانى » الذى أقيم بالقاهرة سنة ١٩١٢ :

وهو الذى أقيم ليوحد كل الجمعيات العربية ، ولقد ذابت فيه بالفعل معظم الجمعيات ، وكان له مجلس ادارة من عشرين عضوا ، يخضع للجنة تنفيذية من ستة أعضاء ، وهو يدعو الى نظام لامركزى ، كما يستفاد من اسمه .

* * *

- « جمعية العربية الفتاة » التى أنشئت بباريس سنة ١٩١٢ م ، ثم انتقلت قيادتها الى بيروت بعد عامين من قيامها ، وكانت أكثر الجمعيات العربية نضجا ووعيا ، فكانت تطلب الاستقلال العربى الكامل عن الأتراك ، وبناء الكيان العربى القومى .

* * *

- « الجمعية القحطانية » وهى التى تكونت من الضباط العرب بالجيش العثمانى سنة ١٩١٣ م ، ثم حلت بعد عام واحد من قيامها لمعلومات جاءت لقيادتها عن وشايات تمت بهم الى المسئولين الأتراك .

* * *

- « الجمعية الاصلاحية » بالبصرة ، وهى مماثلة الأهداف لجمعية بيروت الاصلاحية ، ولقد أنشئت سنة ١٩١٣ م .

* * *

- « جمعية العهد » وهى التى أقيمت فى سنة ١٩١٤ م من الضباط العرب بالجيش العثمانى ، والتى كانت البديل للجمعية

القحطانية ، ولقد لعبت دورا كبيرا ، وأقيمت لها فروع عدة ، وبلغت عضويتها قرابة الأربعة آلاف عضو ، وكانت تهدف الى ابراز الكيان العربى فى الاطار العثمانى .

وجمعية « العهد » هذه ، مع « العربية الفتاة » هما اللتان مثلتا قاعدة الثــورة العربية التى قامت ضــد الأتراك بقيادة « الشريف حسين » بعد ذلك بسنوات .

* * *

وغير هذه الجمعيات السرية ، التى ركزت جل نشاطها فى الحقل السياسى ، ثم العسكرى ، لعبت عدة جمعيات وأندية ثقافية وعلمية دورا ملحوظا فى ذات الاتجاه ..

- ففى سنة ١٨٤٧ م نشأت ببيروت « جمعية الآداب والعلوم » .
- وفى سنة ١٨٥٧ م قامت « الجمعية العلمية السورية » .
- وفى سنة ١٩٠٩ م أنشأ الموظفون والنواب والأدباء والطلاب العرب بالقسطنطينية « المنتدى العربى » الذى أقيمت له عدة فروع فى مختلف المدن السورية والعراقية ، وصدرت له مجلة بنفس الاسم ، كانت منبرا للفــكر الذى حمــله ونادى به منشئوه .
- كما ساهم بدور ملحوظ فى هذا الحقل من حقــول العمــل القومى ذلك الجهد الذى بذله « بطرس البستانى » وخاصة فى

جريدتيه القوميتين (نفير سورية) و (الجنان) التى كان شعارها « الوطنية من الايمان » ، وكذلك المدارس الوطنية التى أقامها .

* * *

وكأثر من آثار هذه الحركة التنظيمية العارمة ، والقومية التى أخذ ساعدها يشتد ، شهدت بلاد العراق سنة ١٩١٣ م مؤتمرا عقده أعيان جنوب العراق فى مارس من نفس هذا العام .

ولقد اختار المؤتمرون لاجتماعهم بلدة « المحمرة » [1] وكانت الشعارات التى عقد تحتها المؤتمر هى :

• استقلال العراق والبلاد العربية التابعة لتركيا ، ووحدتها .. وعقب ارفضاض المؤتمر ، اتصل المؤتمرون فى نوفمبر من نفس العام بعبد العزيز آل سعود ، وطلبوا منه قيادة الحركة العربية ضد الأتراك ، فأيدهم تأييدا أدبيا ، وأبلغهم عدم امكانه القيام بزعامة حركتهم ، أو قيادة مثل هذا العمل الكبير .

أما الحدث الثانى الذى شهده عام ١٩١٣ م ، والذى كان ثمرة لهذه الحركة القومية ، والجمعيات السرية ، فهو ذلك العمل السياسى والتنظيمى العملاق ، الذى يمكن أن يعد تجسيدا أمينا

---

(١) وهى احدى بلاد منطقة « عربستان » التى اقتطعتها تركيا من العراق وتنازلت عنها لايران .

لأهداف هذه الجمعيات وهو ذلك المؤتمر الذى عقدته هـذه الجمعيات ، فى باريس سنة ١٩١٣ م .

٣

ففى هذا العام ، سنة ١٩١٣ م ، شهدت باريس ذلك المؤتمر الذى عقده مندوبون عن كل الجمعيات والأحزاب العربية التى تعمل وتناضل ضد طغيان الأتراك ، سواء أكان مجال عملها فى المشرق ، أو فى القاهرة ، أو كانت تعمل فى المهجر ، حيث يعيش العرب المغتربون .

وحضر هذا المؤتمر الذى دام انعقـاده ستة أيام ، خمسة وعشرون مندوبا ، من بينهم أحد عشر مندوبا مسلما ، لأن هـذه الجمعيات وهذا المؤتمر بالتالى ، لم تكن تفرق بين الأديان من جانب ، ومن جانب آخر كان المسيحيون العرب يلعبون فى هذه الحركة القومية دورا متعاظما فى كل المجالات والحقول الثقافية والسياسية والفكرية ، وأيضا فى النشاط العملى فى مختلف البلاد .

ولقد ألقى فى هذا المؤتمر العديد من التقارير ، والعديد من الخطب ، وتوجت أعماله بعشر قرارات ، ألحق بها ثلاث مواد .

وهذه التقارير والخطب والقرارات والمواد التى تمثل وثائق

هذا المؤتمر الهام . والتى اعتبرت وثيقة الوثائق بالنسبة للحركة القومية فى المشرق العربى بالذات ، وبرنامجا لكل جمعية وحزب من أحزابها .

هذه التقارير والخطب والقرارات والمواد ، كانت ولا تزال مادة أساسية ، بل المادة الأولى لتقويم أفكار هـذه الجمعيات السرية ، والمستوى الذى بلغته من النضج .. ومن ثم الأساس لتقويم المستوى الذى وصلت اليه البرجوازية العربية فى المشرق فى ذلك الحين ، والحركة القومية التى قادتها .

والاشارة التى قدمناها فيما سبق عن ضعف البرجوازية فى هذه البلاد ، وانعكاس ذلك على ضعف الأهداف القومية التى رفعتها هذه الأجهزة السياسية لهذه الطبقة والممثلة فى الجمعيات السرية ، ومؤتمرها الكبير بباريس .. هذه الاشارة انما بنيناها على أساس المستوى المتخلف الذى كانت عليه هذه الشعارات بالنسبة للموقف من الأتراك والاستقلال عنهم ، اذا ما قيست بالشعارات التى رفعتها التجربة المصرية وقواها الاجتماعية الجديدة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ازاء احتلال الأتراك .

فالجمعيات السرية ومؤتمرها العام ، لم ترفع حتى سنة ١٩١٣م ، أى بعد قرن من شبيهتها المصرية ، شعار الاستقلال التام عن الأتراك .

وفى فقرات كثيرة من التقارير والدراسات التى ألقاها المندوبون فى المؤتمر ما يؤكد هذه الحقيقة ، ويلقى الضوء على مستوى النضج لهذه الحركة ، ومستوى نضج هذه الأفكار .

فالمندوب « اسكندر عمون » يقول : « ان الأمة العربية لا تريد الانفصال عن الدولة (الامبراطورية العثمانية) ، ولا نصرة حزب على حزب ، ولا جنس على جنس ، انما تريد استبدال نظام الحكم الحاضر بنظام يناسب كل العناصر على اختلاف شئونها ، فيكون لمجموع الأمة سلطة عليا نيابية ، قائمة على النسبة الصحيحة ، لادارة الشئون العامة » [1] .

فبينما يرى أن العرب « أمة » .. يعود فيعبر عن مختلف أجناس وأمم الامبراطورية العثمانية بأنها « مجموع الأمة » .. وكل الذى يطلبه هو نظام نيابى قائم على نسبة تمثيل صحيحة وعادلة ، يكون دعامة لحكم جديد يناسب كل العناصر .

ويؤكد هذا المفهوم المندوب « الشيخ أحمد طبارة » فيقول : « نحن قوم ولدتنا أمهاتنا عثمانيين ، ونريد أن نبقى عثمانيين ، ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلا » [2] .

---

(١) (المؤتمر العربى الأول) ص ١٠٣
(٢) (المؤتمر العربى الأول) ص ٩٠ .

أما المندوب « ندره مطران » ، فانه وان كان يتحـدث عن سمات قومية لا تجمع العرب والأتراك ، ولا تدخل ضمن نطاق الاسلام ، الا أنه يرى فى مطلب « الدولة العربية » تهمة يدفعها عن المؤتمر ، ويلقى تبعة الصاقها بالمؤتمر على « المتزلفين للقـوة وللحاكم » ، فيقول : « ان العرب لا يجهلون حسنات ارتباطهم بالدولة العثمانية ، وحرصهم عليها ، .. الدين لا ينفى المصلحة الشخصية ، ولا يقوم مقام العادات والتقاليد واللسان والوطنية ، الا أن المتزلفين للقوة وللحاكم يختلقون على رجال الاصـلاح ما توحيه أهواؤهم ، فيتهمون المسلم بدولة عربية ، ويتهمـون المسيحى بدسيسة أجنبية » [1] .

كما أننا نجد أثر الفكر القومى ، والدراسات القومية فى البحث الذى ألقاه المندوب « عبد الغنى العريسى » أمام المؤتمر ، والذى قال فيه : « هل للعرب حق جماعة ؟؟.. ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق الا اذا جمعت ـــ على رأى علماء الألمان ـــ : وحدة اللغة ، ووحدة العنصر . وعلى رأى علماء الطليان ، وحدة التاريخ ، ووحدة العادات . وعلى مذهب ساسة الفرنسيس ، وحدة المطمح السياسى .. فاذا نظرنا الى

(١) (المؤتمر العربى الأول) ص ٦١ .

العرب من هذه الوجوه الثلاثة ، علمنا أن العرب تجمعهم : وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحدة مطمح سياسى ، فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم ـــ على رأى كل علماء السياسة دون استثناء ـــ حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة »(١).

وتعبيرا عن هـــذا المفهـــوم الذى يفرق بين « العثمانية » و « التركية » .. والذى يرفض « الدولة العربية » كما يرفض « الدولة التركية » ويريد « مجتمعا عثمانيا » .. تعبيرا عن ذلك تحدث المندوب « اسكندر عمون » ، فقال : « اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركيـــة ولا عربية ، حكومة يتســـاوى فيها جميع العثمانيين فى الحقوق والواجبات ، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ، لا بداعى الجنس ولا بداعى الدين ، عربيا كان أو تركيا أو أرمنيا مسلما أو مسيحيا أو درزيا »(٢) .

وحول موقف المؤتمرين من الثورة ، كأسلوب للتغيير والتطور، يقول المندوب « نعوم مكرزل » : « اننا نعتقد بالثورة ، الا أن اعتقادنا بالثورة مشروط فيه أن تكون أدبية اصلاحية .. حتى اذا ضاعت كل حيلة مع أعداء أنفسهم ، قبل أن يكونوا أعداءنا ،

---

(١) (المؤتمر العربى الأول) ٤٢ ـــ ٤٣ .
(٢) (المؤتمر العربى الأول) ص ١٠٤ .

اعتقدنا بها دموية ، لأن كل أنظمة الشعوب الحرة كتبت بنجيع القلوب لا بالمداد الأسود » [1] .

وعلى هذا النحو كان تداول المندوبين لأهم قضية يمكن أن تعرض لمناضلين قوميين ، قضية العلاقة بين بلادهم والامبراطورية التى تستعمرها ، وتفرض عليها الذل والقهر والهوان .

لقد كانوا يرون فى « العثمانية » رابطة .. كما رأى غيرهم فى الاسلام رابطة .. تغنى عن القومية بمعناها العلمى الحديث ، ومن ثم فلا داعى للدولة العربية ، ولا داعى للاستقلال التام .

وفى هـذا الاطار الذى رسمته هـذه التقـارير والخطب والدراسات ، صدرت قرارات المؤتمر على النحو التالى :

١ ـــ ان الاصلاحات الحقيقية ، واجبة ، وضرورية للمملكة العثمانية ، فيجب أن تنفذ بوجه السرعة .

٢ ـــ من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية ، وذلك بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعالا .

٣ ـــ يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية « ادارة لامركزية » تنظر فى حاجاتها وعاداتها .

---

(١) (المؤتمر العربى الأول) ص ١٠٨ .

٤ ـــ كانت ولاية « بيروت » قد قدمت مطالبها بلائحة خاصة صدق عليها فى ٣١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٩١٣ م ، باجماع الآراء ، وكانت هذه المطالب قائمة على مبدأين أساسيين ، وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب . والمؤتمر يطلب تطبيق وتنفيذ هذين المطلبين .

٥ ـــ اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية .

٦ ـــ تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية ، الا فى الظروف والحالات التى تدعو للاستثناء الأقصى .

٧ ـــ يصادق المؤتمر ، ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اللامركزية .

٨ ـــ يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفيه لبنان وسائل تحسين ماليتها .

٩ ـــ سيجرى تبليغ هــذه القــرارات للحكومة العثمانية السنية ، وتبليغ هذه القرارات أيضا للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية .

١٠ ـــ يشكر المؤتمر الحــكومة الفرنسية شكرا جزيلا لترحابها الكريم بضيوفها » .

كما ألحق المؤتمرون بقرارات المؤتمر هذه ثلاث مواد هى :

« ١ — اذا لم تنفذ القرارات التى صادق عليها المؤتمر ، فالأعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أى منصب كان فى الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها .

٢ — ستكون هـذه القرارات برنامجا سياسيا للعـرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

٣ — المؤتمر يشكر مهاجرى العـرب عـلى وطنيتهم فى مؤازرتهم له ، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم » [١] .

* * *

واذا كانت قد اتضحت لنا ، على ضوء هذه القرارات والمواد ، مواقف المؤتمـرين ، ومن ثم الجمعيـات التى مثـلوها ، من الامبراطورية العثمانية ، والرابطة الاستعمارية التى تقنن سيطرة الأتراك على العرب .

وأيضا ، ذلك المدى الذى نظرت اليه ، وعملت له هـذه الجمعيات فى مجالات الاصـلاح القـومى .. وذلك المستوى

---

(١) (المؤتمر العربى الأول) ص ١١٣ — ١٢٠ .

المتواضع لهذه المطالب القومية التى نادى بها المؤتمر .. فلقد اتضحت لنا كذلك حدود الدائرة التى فكر فى اطارها المؤتمرون ، دائرة المشرق العربى [1] ، اذ أنهم قد ناقشوا وقرروا للمشرق ، « للعرب العثمانيين » ولم تمتد نظرتهم لمصر ، والمغرب العربى ، لأنهم كانوا يفكرون فى اطار عثمانى ، ويستهدفون « دولة عثمانية » لا اطارا عربيا و « دولة عربية » [2] .

ولكنهم ، والحق يقال ، كانوا على يقظة بذلك الفخ الذى يريد ايقاعهم فيه الاستعمار الأوروبى ، والذى كان يعمل ليرث تركة الامبراطورية العثمانية المتداعية ، امبراطورية « الرجل المريض » .

فبعد ارفضاض المؤتمر ، أوفد المؤتمرون نيابة عنهم المندوب « مختار بيهم » ليبلغ وزارة الخارجية الفرنسية : « اننا نحترم الفرنسيين ، ولكننا لا نرضى أن يكونوا رؤساء علينا ، بل نرغب فى

---

(١) كان الدكتور سيد كامل (مصرى) من شـهود المؤتمر ، وسأل : « هل للمصرى أن يشترك فى المناقشات ؟؟.. الرئيس : لا ، لا » .

(٢) وتعبيرا عن ذلك جاء فى حديث رئيس المؤتمر الى صحيفة « الطان » الفرنسية فى شهر « حزيران » سنة ١٩١٣ م : « أن العرب العثمانيين المقيمين فى الولايات العربية العثمانية هم الذين يعقدون هذا المؤتمر وهو لا يهتم فى الحاضر ولا فى المستقبل بشيء ما ليس له علاقة بالولايات المشار اليها (أى العرب غير العثمانيين) وحسب المؤتمر ما لديه من شئون هذه الولايات وأحوالها » .

معاضدتهم فى اصلاح أحوالنا ، بشرط أن نبقى عثمانيين ، وليس السوريون ـــ كما قيل لكم ـــ يفتحون صدورهم لفرنسا » .

وعندما أدرك الفرنسيون هذه الحقيقة ، وعلموا أن الحركة العربية ، وجمعياتها ومؤتمرها ، ليست مطية ذلولا ، ولا هى سهلة الامتطاء ، رسموا لأنفسهم خطة عمل جديدة ازاءها ، وكتب « بيشون » وزير خارجيتها الى قناصل دولته لدى الدول الأجنبية هذه الرسالة التى جاء فيها : « ان الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ، ولذلك يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها ، لكى تكسبوا قلوب الأهلين ، على أن تسعوا فى الخفاء للقضاء عليها » (مجلة « الثقافة الوطنية » ببيروت سنة ١٩٥٦ م) .

وهكذا كانت الحركة القومية العربية ، تتحسس طريقها ، وتشق هـــذا الطريق بصـــعوبة وبطء ، وترفع من الشـــعارات ما يتناسب مع مستوى القوى الاجتماعية الجديدة ، وبالذات قوى البرجوازية العربية التى كانت هـــذه الجمعيات تجسيدا لآمالها القومية والسياسية والاقتصادية [1] .

---

(١) بل انه لتلفت نظرنا تلك العبارة التى جاءت بخطاب رئيس المؤتمر ، الختامى ، السيد / شكرى غانم ، والتى تقول : « اننا انما نطالب بالاصلاح ، وندفعهم اليه اذا مست الحاجة ، رغبـــة بتوثيق **الجامعة الشرقية** ، قبل الرغبة بمنفعتنا ، وحفظا لسلامة الدولة واستقلالها قبل حفظ مصلحتنا » .

وكان مؤتمر الوحدة العربية بباريس سنة ١٩١٣ م ، المرآة الصادقة لهذا المستوى من مستويات النضال .

٤

واستجابة للقوة والنفوذ الكبيرين اللذين كانت تمثلهما هذه الجمعيات العربية السرية ، واللذين عكسهما مؤتمرها الذى تحدثنا عنه ، و « للاعتدال » الذى كانت تتصف به قرارات المؤتمرين ، وصدورا من الموقف « المعتدل » نسبيا الذى كانت تقفه « جمعية الاتحاد والترقى » التركية ، والتى كانت قد وصلت الى المشاركة فى السلطة والحكم بالامبراطورية يومئذ .

لكل هذه الاعتبارات ، لم يقف ممثلو هذه الجمعية التركية موقفا سلبيا من هـذا المؤتمر وقراراته ، ولم يديروا ظهـورهم للمؤتمرين ، ولم يقابلوا نتائج هذا المؤتمر باللامبالاة .

فأوفدت الحكومة العثمانية الى باريس أحد مندوبيها لمفاوضة المؤتمرين ، ثم عاد هذا المندوب الى عاصمة الامبراطورية العثمانية ومعه ثلاثة مندوبين عرب ، من بينهم المناضل العربى « عبد الكريم الخليل » ، رئيس « المنتدى العربى » ومعتمد الشبيبة العربية .. فأكمل المفاوضـات التى اسـتمرت نحو شـهرين ، ووقع مع

« طلعت بك » وزير داخلية الدولة العثمانية ، وأحد ثلاثة كانوا يمثلون قمة القيادة فى « جمعية الاتحاد والترقى » .. وقع معه معاهدة تعتبر تجسيدا لميزان القوى فى ذلك الحين بين الطرفين .. الحركة القومية العربية بالمشرق العربى ، والحكومة العثمانية ..

ولقد جاءت بنود الاتفاقية المعقودة بين المركز العام للاتحاد والترقى وبين هيئة الشبيبة العربية على النحو التالى :

المادة الأولى : يكون التعليم الابتدائى ، والاعدادى (الثانوى) باللغة العربية فى جميع البلاد العربية ، كما يكون التعليم العالى أيضا بلغة الأكثرية ، وانما يكون تعليم اللغة العثمانية اجباريا فى المدارس الاعدادية .

المادة الثانية : يشترط فى رؤساء المأمورين ، بوجه عام ، أن يكونوا واقفين على اللغة العربية ، وأما سائر المأمورين فيعينون من قبل الولاية ، الا أن الحكام ومأمورى العدلية الذين يتولون أعمالهم بارادة سنية (ملكية) فسيعينون من المركز ، وأما الولاة فمستثنون من القيد سالف الذكر .

المادة الثالثة : ان العقارات والمؤسسات الوقفية المشروط صرفها الى الجهات الخيرية المحلية ستئول الى مجالس الجماعات المحلية ، على أن تدار من قبلها وفق شروطها الخاصة .

المادة الرابعة : الأمور النافعة ستترك الى الادارة المحلية .

المادة الخامسة : ان الأفراد العسكريين سيؤدون خدماتهم العسكرية ، فى وقت السلم ، داخل البلاد العربية ، وفى دوائر مناطق الجيش التى ينتسبون اليها ، الا أن الجنود الذين لابد من ارسالهم فى الحالة الحاضرة الى « الحجاز » و « العسير » و « اليمن » ، سيرسلون من جميع الولايات العثمانية ضمن نسبة معينة .

المادة السادسة : ان المقررات التى تتخذها مجالس المديريات العامة ، ضمن صلاحيتها القانونية ، ستكون نافذة على كل حال .

المادة السابعة : يقبل ، كمبدأ أساسى ، أن يكون فى الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل ، كما أنه سيكون فى الدوائر المركزية عدد مماثل لذلك من العرب بصفة مستشارين أو معاونين ، وسيعتبر من الأسس المقررة : أن يكون فى كل من لجان المأمورين ، وشورى الدولة ، ومجلس المشيخة الاسلامية ، ومجالس سائر الدوائر المركزية ، اثنان أو ثلاثة من العرب ، كما يكون فى كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين من درجات مختلفة أيضا من العرب .

المادة الثامنة : سيكون فى الحالة الحاضرة ، خمسة « ولاة »

وعشرة « متصرفين » من العرب ، كما أنه ستزال « المغدوريات » (الغبن) التى قد تكون لحقت بالموظفين فى الدوائر الملكية والعدلية والعلمية ، والذين لم يرفعوا [1] بالنسبة الى سائر زملائهم . وأما فيما بعد فسيكون تعيين الموظفين وترفيعهم وتأديبهم وفق قانون خاص .

المادة التاسعة : سيعين فى مجلس الأعيان من العرب بنسبة اثنين

عن كل ولاية عربية .

المادة العاشرة : سيعين فى كل ولاية ، مفتشون متخصصون من

الأجانب فى الدوائر والمصالح التى تحتاج الى ذلك .. وستقرر صلاحيات هؤلاء المفتشين وواجباتهم بنظام خاص يكفل الحصول على الفوائد الانضباطية والاصلاحية المنتظرة منهم .

المادة الحادية عشرة : النقص الموجود حاليا فى ميزانيات الدوائر

التى تركت ادارتها الى الولايات سيسد عن طريق اضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية ، وسيخصص نصف حصيلة

(١) أى يرقوا .

ضريبة « المسقفات » الى الادارات المحلية على أن تصرف لأمور المعارف » (١) .

توقيع : توقيع :

عبد الكريم خليل طلعت

* * *

ولقـد اعتبرت الحـركة القـومية العربية ببلاد المشرق ، وجمعياتها وأحزابها الوطنية ، هـذه الاتفاقية انتصـارا كبيرا للأهداف التى ناضلوا من أجلها ، وتنفيذا لجوهريات المطالب التى صاغوها فى قرارات مؤتمر باريس .

ولكن النوايا غير الطيبة للساسة الأتراك الذين ساهموا فى عقد الاتفاقية من قادة « جمعية الاتحـاد والترقى » ، والذين لم يساهموا فى عقدها ، من غير قادة هذه الجمعية ..

وأيضا قيام الحرب العالمية الأولى ..

كل ذلك قد حال دون تطبيق هذه الاتفاقية ، وجعل الأتراك يتجاهلون نصـوصها وموادها ، بل ويتجاوزون فى عسـفهم واضطهادهم ما كان مألوفا ومعروفا من قبل .

بل لقد كان مصير « عبد الكريم الخليل » ، الذى وضع

---

(١) راجـع (الدولة العثمانيـة والشرق العربى) للدكتور محمد أنيس .

توقيعه على المعاهدة ، والذى كان رئيس « المنتدى العربى » ومعتمد الشبيبة العربية ، كان مصيره الاعدام على يد السفاح التركى « أحمد جمال باشا » ، وزير الحربية ، وصنو طلعت بك فى قيادة « جمعية الاتحاد والترقى » .

وهكذا حملت الحرب العالمية الأولى الى واقع النضال القومى العربى فى المشرق عوامل جديدة ، وتطورات غيرت من اتجاهات الأحداث .

فالأتراك شرعوا فى التنكر للوعود والاتفاقات التى تضمنتها المعاهدة .

وشرعوا يشنون حملة من الارهاب والاعدامات ، والسجن والنفى والتشريد ، كما أخذت أحداث الحرب تهز مركز تركيا ، وتظهر السلطان العثمانى ونظامه على حقيقته ، وتضع أمام الحركة القومية العربية امكانية الانفصال عن الامبراطورية ، والاستقلال عنها ، والثورة ضدها ، وهو الأمر الذى لم يطرقه مؤتمر باريس .

والاستعمار الغربى المتحالف ، الذى ظل نحو قرن من الزمان يحرس أشلاء الامبراطورية العثمانية ، تحينا لفرصة ميراثها ، قد وجد فى انضمامها لألمانيا فى الحرب ضده فرصة لتنفيذ الخطة التى دبرها وخطط لها منذ عشرات السنين .

والسخط العام الذى ازدحمت به نفوس العرب ، قد أنضج عوامل الثورة ، ودفع بعجلة الأحداث الى الأمام .

٥

وكما قلنا ، لقد كانت جمعية « العربية الفتاة » ، التى بدأت بمستوى من الوعى الناضج بالمسألة القومية ، وجمعية « العهد »، هما مابقى من الجمعيات السرية ، عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، ودخلتها الدولة العثمانية الى جانب الألمان ضد الحلفاء.

وللضعف الذى كانت عليه البرجوازية فى المشرق العربى ، ولعدم قدرتها على الحركة المستقلة الواسعة والقوية ، كان من الصعب على هذه الجمعيات القومية الثورية التى تمثلها أساسا ، أن تقود وحدها الثورة التحريرية ضد الأتراك ، ومن ثم فان احتمالات اســتمرار حالة التردد فى موقف هذه الجمعيات ازاء السلطة العثمانية كان لايزال قائما خلال الحرب كما كان قائما قبلها .

وتلك الآمال التى كان يعلقها بعض أعضاء هذه الجمعيات على بعض الأتراك ، وعلى الاتحاديين بالذات ، لاتزال لها أرضـــية تعيش عليها .

غير أن بعض العوامل الجديدة التى دخلت على الموقف قد جعلت هذه الجمعيات القومية تفقد نهائيا الثقة فى الأتراك وتطلق الى الأبد طريق التهادن معهم ، وتحسم قضية الثورة ضد العثمانيين .

فحركة البعث الجديدة التى كانت تشهدها الدولة العثمانية ، والقائمة على أكتاف مجموعة من المثقفين والقادة الأتراك المستنيرين ، المعارضين للسلطة الأقطاعية فى الدولة ، هذه الحركة أخذت تتبلور شيئا فشيئا ، وتحولت الى ما عرف « بالحركة الطورانية » ، التى أخذت تسعى بكل الوسائل لتتريك الامبراطورية ، ومن ثم تتريك العرب . وسلوك سبيل القسوة والقهر لبلوغ ذلك الهدف ..

ومن ثم فان الموقف « المعتدل » لبعض القادة والمفكرين العرب حيال « الدولة العثمانية » التى لاهى بالتركية ولاهى بالعربية ، قد أخذ يفيق ويستيقظ على هذا الخطر الماحق ، خطر الحركة الطورانية ، التى لا ترضى بشىء سوى « التتريك » .

وجمال باشا التركى ،أحد الثلاثة الذين كانوا يقودون«جمعية الاتحاد والترقى » التركية ، والذى كان يتولى وزارة الحربية، وقيادة الجيش الخامس فى سوريا .. كانت السياسة العنيفة

والدموية التى اتبعها ، أيضا ، أحد العوامل التى غيرت من مجرى الأحداث التى شهدها المشرق العربى فى ذلك الحين .

فلقد انتهز هذاالقائد السفاح وجود بعض الأوراق و «الوثائق» التى استولت عليها السطات التركية من دار القنصلية الفرنسية ببيروت ، والتى تتحدث عن صلات بين بعض القادةالقوميين العرب والقنصل الفرنسى ببيروت ، فعقد المحاكمات العسكرية ، وأصدر أحكام النفى والتشريد لعدة مئآت من الزعمـــاء والوطنيين .. والاعدام غيابيا ضد خمسة وأربعين وطنيا .. ونفذت بالفعل أحكم الاعدام فى عشرات من المناضلين والزعماء .

وخيمت على أرجاء بلاد المشرق العربى ، بل على العالم العربىِ قاطبة مشـــاعر الحزن والبؤس والنكســـة .. وأصيبت الحركة القومية بطعنة فى الصميم ، هزتها من الأعماق .

ولقد كان ضمن القادة الذين أعدمهم الأتراك « عبد الحميد الزهـــراوى » الذى رأس مؤتمـــر باريس ســـنة ١٩١٣ م .. و « عبـــد الكريم الخليل » الذى ذيلت بتوقيعه مع طلعت بك الاتفاقية العربية التركية التى تحدثنا عنها فى الفصـــل السابق .. والمناضل « شكرى العسلى » الذى كتب « المجلس العرفى » الذى حاكمه فى حيثيات حكم اعدامه : « انه ألقى خطابا فى مصر ،

فى ميـدان ابراهيم باشـا .. وأثناء خطابه أشـار الى تمثـال ابراهيم باشا ، فقال : « الى أين يشير هذا التمثال ؟؟.. واستمر قائلا : ان مصر والشـام أختان بينهما رابطة الدين واللسان والعنصرية ، وهذا التمثال يشير بيده الى البلاد الشامية » .

والمناضل « محمد الحمصانى » الذى قال وهو يتقـدم الى المقصلة : « انى أعلن أمـام الله والناس ، أن المواطنين الذين سيعدمون أبرياء ، وأنا وحدى المذنب . وذنبى ، لو اعتبر هذا ذنبا ، انى أعشق الحرية ، وأنشد تحرير وطنى ، وأنى أردت بكل قواى هذا التحرير ، ولا أندم بحال على ما فعلت ، وأنى سعيد باعتبارى أول الضحايا . وان ضمائرنا تثور نحن العرب ، أبناء أعظم مدنيات العالم كلما فكرنا فيما صرنا اليه من ذلة ساقتنا اليها قبائل الأناضول المتوحشة . ولقد ضقنا ذرعا بالظلم المزرى الذى يوقعه على رؤوسـنا الأتراك . كفـانا منكم استعبادا ، ولا جدوى من تقتيلنا ، فان الفكرة التى سنواصل السعى لها ستعيش وتنتشر من بعدنا » .

والمناضل « سالم الجزائرى » الذى قال لرفاقه قبيل تنفيذ الحـكم باعدامهم : « لو أننا متنا بين عشيرتنا ، فوق أسرتنا ، بهدوء ، لبكانا أب أو أم ، أو أهل فقط .. ولكن اليوم حينما

نعلق فوق المشانق سيتجه بنظراتهم الينا آلاف الرجال والنساء ، وسيتجه الينا شعب بأكمله يبكينا بدموع من دم ، ألا وهو الشعب العربى الذى ستفتح له آفاق عريضة فى الحياة بموتنا » .

ولقد شملت موجات الاعدام هــذه ، الى جانب من تقدم ، المناضــلين « عبد القــادر خرسا » و « نور الدين القاضى » و « محمود الحمصانى » و « سعيد عقل » و « باترو باولى » و « جرجى حداد » و « عمر حمد » و « عبد الغنى العريسى » و « الأمير عارف الشهابى » و « الشيخ أحمد طبارة » و « محمد الشنطى » و « توفيق البساط » و « أمين لطفى » و « شفيق المؤيد » و « عبد الوهاب الانكليزى » و « الأمير الجزائرى » و « رفيق رزق سلوم » [1] .

* * *

على أن هذه الاعدامات التى نفذها جمال باشــا السفاح ، والاضطهادات التى قام بها الأتراك فى السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى ، لم تجعل طريق الثورة ، طريقا وحيدا أمام الحركة القومية العربية ، فقط .. وانما هى قد أضعفت من قيادة هــذه الحركة القومية ، وحرمت هذه الجمعيات السرية من خيرة قادتها

---

(1) راجع فى ذلك (الدولة العربية الكبرى) لمحمود كامل ، و (الدولة العثمانية والشرق العربى) للدكتور محمد أنيس .

وزعمائها ، ومن ثم جعلت من البحث عن قيادة وزعامة للحركة القومية العربية ، مسألة مطروحة أمام هذه الجمعيات ..

وهكذا كانت العوامل الجديدة التى طرأت على الموقف فى المشرق العربى ، داعية الى التعجيل بالثورة القومية العربية على الأتراك ، وأيضا جاعلة هذه الجمعيات تلقى بزمام القيادة لهذه الثورة الى قيادة لم تترب فى صفوفها ، ولم تتمرس بكفاحها ، وليس لها اخلاص هذه الجمعيات لأهدافها ، وكانت هذه القيادة ممثلة فى « شريف » مكة ، الشريف حسين وولديه فيصل وعبد الله .

* * *

ففى سنة ١٩١٥ م ، وصل « فيصل » من مكة الى دمشق ، مقر الحركات السرية العربية ، واجتمع سرا بزعماء جمعيتى « العهد » و « العربية الفتاة » .. واعتمد عضوا فى هاتين الجمعيتين ..

وجرت بينهم مفاوضات حول الموقف ، واتفقوا على القيام بثورة ضد الأتراك بالتعاون مع قوى الحلفاء الأوربيين الذين يخوضون الحرب ضد الأتراك . على أن يقود « الشريف حسين » هذه الثورة ، التى يكون عمادها نفوذ القوى الثورية العربية

المنظمة فى الجمعيتين ، وأن يكون هدف الثورة هو اقامة دولة عربية واحدة مستقلة فى المشرق العربى بأجمعه ..

وعندما عاد فيصل الى مكة فى يونيو سنة ١٩١٥ م ، كان يحمل معه الوثيقة التى اتفق عليها فى مفاوضاته مع جمعيتى « العهد » و « العربية الفتاة » ، والتى عرفت باسم « بروتوكول دمشق » ، والتى تتلخص فيما يأتى :

١ ـــ أن تعترف بريطانيا باستقلال الدولة العربية بالحدود الآتية :

شمالا : خط مرسين ـــ أطنة ، ممتدا الى أرفة وماردين ، وجزيرة ابن عمر ، فحدود فارس .

وشرقا : ايران حتى الخليج العربى ..

وجنوبا : المحيط الهندى (ما عدا عدن التى تحافظ على وضعها الراهن) .

وغربا : البحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

٢ ـــ اقامة تحالف عربى بريطانى دفاعى ..

٣ ـــ الغاء الامتيازات الأجنبية التى عقدتها الدول الأوربية مع السلطات العثمانية طوال عهد الاحتلال ..

٤ — منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية ..

وهذا البرنامج الذى اتفق عليه فيصـــل مع رجال الحركة العربية ، والذى عرف باسم « بروتوكول دمشق » ، انما يمثل مستوى جديدا من المستويات التى وصلت اليها الحركة القومية فى تطورها . وان المقارنة البسيطة بينه وبين قرارات مؤتمر باريس سنة ١٩١٣ م لتجسد لنا التحولات الهامة التى حدثت فى هــذا الميـــدان .

ومنـــذ اللحظة التى ضمن فيها « الشريف حسين » قيادته للحركة العربية فى الشام ، ومن ثم قيادته للقطاع الأساسى والمنظم ، بل والمتقدم ، للحركة العربية فى المشرق بأسره ، شرع يعيد وينظم اتصالاته بالانجليز . وصلات الشريف حسين بالانجليز كانت قديمة ، وقبل أن يصل الى اتفاق مع جمعيتى « العهد » و « العربية الفتـــاة » .

فمنذ سنة ١٩١٢ م ، بدأت اتصالات ابنه الأمير عبد الله بالمعتمد البريطانى بالقاهرة « كتشنر » وبالسكرتير الشرقى لدار المعتمد « رولاند ستورز » ..

وعندما تولى « كتشنر » وزارة الحربية البريطانية فى أغسطس ســنة ١٩١٤ م بعث الى « رولاند ستورز » يطلب منه تجديد

اتصالاته بالشريف ، لأن الثورة العربية ضد الأتراك قد أصبحت احتياجا عسكريا ، الى جانب فائدتها ضد النفوذ الاسلامى للخليفة العثمانى على مسلمى الهند ، وأثرها فى تحطيم ركن هام من قوة الأعداء ونفوذهم .

وفى الشهر الذى أعقب عودة « فيصل » من دمشق الى مكة ، وبالتحديد فى ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ م كتب الشريف حسين الى « هنرى مكماهون » أولى الرسائل التى استمرت طويلا .. والتى عرفت « بمراسلات حسين ـــ مكماهون » والتى ألقت ضوءا على أهم ما أقيمت عليه العلاقات العربية ـــ البريطانية من قواعد وأسس ، وما شملته من وعود واتفاقات .

ولقد طلب حسين من مكماهون فى رسالته هذه أن تعترف بريطانيا ، وتتعهد له ، لقاء الثورة على الأتراك ، بتنفيذ « بروتوكول دمشق » و « أن توافق انجلترا أيضا على اعلان خليفة عربى على المسلمين » . وفى ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م جاء رد مكماهون يقول :

« الى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الأشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد بن السيد ،

والشريف بن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العاملين ، ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركته الناس أجمعين .. تتشرف باسداء الشكر الى سموكم من أجل افصاحكم عن شعوركم الخالص نحو انجلترا ، ومصالح انجلترا هى مصالح العرب ، فى رأى سموكم ورأى رجالكم . وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما جاء فى رسالة اللورد كتشنر .. وهذه الرسالة كان موضحا بها رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها ، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربيا عريق العروبة .

وأما بخصوص مسألة الحدود فيلوح لنا أنها سابقة لأوانها ، وان وقتنا ليضيق عن البحث فى مثل هذه التفاصيل ، ونحن بعد فى ابان الحرب ، وخاصة أن الأتراك لا يزالون يحتلون احتلالا تاما شاملا قسما كبيرا من الجهات التى أشرتم اليها فى اقتراحكم ».

وهكذا حرص مكماهون أن يسجل فى رسالته هذه مسائل ثلاث :

أولاها : هذه السلسلة الفريدة من ألفاظ التعظيم والتبجيل والتفخيم ، التى لابد وأن يكون الشريف حسين قد سر لها أعظم السرور .

وثانيها : تكرار « حقيقة » أن مصالح انجلترا هى مصالح العرب حسب رأى الشريف حسين ورجاله .

وثالثها : أن الوقت وان اتسع لعبارات التفخيم والتعظيم فانه لا يتسع ، بسبب الحرب واحتـــلال الأتراك للأرض العربية ، للتعهد ، ولو بكلمة أو كلمات ، بالموافقة على حدود الدولة العربية المحددة فى « بروتوكول دمشق » الذى تضمنته رسالة الشريف الى مكماهون !!!.

ولكن الشريف حسين ، مهما كان تهافته على التأييد الانجليزى، ما كانت لتطمئنه مثل هذه الرسالة ، وما كانت لتجعله يعلن الثورة على الأتراك وهو آمن الى المستقبل الذى يبيته له الانجليز .. ومن ثم فان الرسالة التى بعث بها الشريف حسين الى مكماهون فى ٩ سبتمبر سنة ١٩١٥ م قد عبرت عن دهشته لموقف مكماهون هذا ، وذكرت « أن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد يمكن ارضاؤه ومفاوضته بعد الحرب ، بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود ، وهو متفق على هذا الاعتقاد » .

وأمام اصرار الشريف على أن تعترف بريطانيا بحدود الدولة العـــربية المستقبلة ، لم يجـــد مكماهون بدا من الدخـــول فى الموضوع ، والمساومات ، فكتب الى الشريف رسالته المؤرخة

فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥ م والتى جاء فيها : « لقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون مسألة الحدود من المسائل الهامة الحيــوية المستعجلة ، ولذا فانى قد أسرعت فى ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وانى بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية ، التى لا شك أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول :

ان ولايتى مرسين واسكندرونة ، وأجــزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية محضة ، ومن ثم يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة . ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات ، ودون تعرض للمعاهدات المعقــودة بيننا وبين زعماء العرب .

وأما بخصوص الأقاليم التى تضمنتها تلك الحدود ، والتى تستطيع بريطانيا الحل فيها بملء الحرية ، دون أن توقع ضررا بمصالح حليفتها فرنسا ، فانى مفوض من قبل حكومة بريطانيا أن أعطيكم المواثيق الآتية جوابا على كتابكم :

١ ـــ ان انجلترا مستعدة ، على أساس تلك التعديلات ، أن تعترف باستقلال العرب ، وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

٢ — تحرر بريطانيا الأراضى المقدسة من الاعتداء الخارجى وتعترف بوحدتها .

٣ — تقـدم بريطانيا للعـرب عنـد الحاجة أية مساعدة أو نصيحة تلزم ، وتعاونهم فى تشكيل أفضل أشكال الحكم فى مختلف البلاد العربية .

أما بخصوص ولايتى « بغداد » و « البصرة » فان العرب يعرفون أن مركز انجلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا اداريا خاصا ، للمحافظة على هذا الاتحاد من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان السكان ، وتوطيد مصالحنا العسكرية فيها » .

وهكذا أراد مكماهون أن يستثنى من حدود الدولة العربية التى حددها « بروتوكول دمشق » ولايات ومناطق « مرسين » و « اسكندرونة » ، والمناطق الواقعة غرب ولايات دمشق وحمص وحلب ، والقسم الجنوبى للعراق « بغداد والبصرة » .. أما باقى المنطقـة المتبقيـة للدولة العـربية ، والتى يغلب عليها الطـابع الصحراوى ، فيستثنى منها ما توجد معاهدات بين انجلترا وبين حكامه ، مثل الحجاز ، وعسير ، وامارات الخليج العربى وغيرها وبقية البقية ، تمارس انجلترا عليها من النفوذ والوصاية ما يجعلها

عديمة الاستقلال الحقيقى .. قليلة الحول والطول والنفوذ .. وذلك بعد اعطاء فرنسا ما يكفل لها الرضى عن موقف الانجليز ..

فماذا كان موقف الشريف حسين من موقف انجلترا هذا ؟؟..

وما جوابه على هذه الرسالة التى بعث بها مكماهون .. والتى حول بها « برتوكول دمشق » ودولته الموحدة الى مسخ مشوه ، وكيان مهلهل يستحق الرثاء ؟؟..

لقد وافق الشريف حسين على هذا الحل .. وان كان — يرحمه الله — قد وافق على دفعات !!..

ففى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٥ م كتب الشريف لمكماهون : « رغبة فى تسهيل الاتفاق ، وخدمة الاسلام ، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتمادا على نيات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة ، فاننا نتنازل عن اصرارنا فى ضم « مرسين » و « أطنة » الى المملكة .. أما ولايتى حلب وبيروت وشواطئها ، فهما ولايتان عربيتان خالصتان ، لا فرق هناك بين مسلم ومسيحى عربى ، فكلاهما أحفاد جد واحد » .

واذا كان حرص الشريف على « خدمة الاسلام » وعدم « تعكير صفو المسلمين » والاعتماد « على نيات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة » قد دفعته الى هذا التنازل الجرىء ، فان

حرصه على تدعيم علاقات انجلترا بفرنسا قد دفعه الى السير خطوة أخرى فى طريق التنازلات ، فكتب لمكماهون فى أول يناير سنة ١٩١٦ م باستعداده للتنازل عن المنطقة الواقعة غرب دمشق ـــ حمص ـــ حلب ، على أن يكون من حق العرب أن يطالبوا بها عند انتهاء الحرب ، تدفعه الى ذلك التنازل « الرغبة فى تجنب ما قد يكون من شأنه الحاق الضرر بالتحالف بين بريطانيا العظمى وفرنسا ، والاتفاق الذى حدث بين الدولتين ابان الحرب الراهنة ، ولكننا نرى من واجبنا أن يتأكد الوزير (مكماهون) من أننا عند أول فرصة بعد انتهاء الحرب ، سنسأله ما سنتركه الآن لفرنسا فى بيروت وشواطئها » .

والذين يعجبون لهذه الجرأة فى التنازلات قد يقل عجبهم اذا علموا أن رسالة الشريف السالفة الذكر قد جاءت ردا على رسالة لمكماهون أرسلها الى الشريف فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٥ م ، وجاء فى ختامها : « هذا عربون لصدق نيتنا ، ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم من أجل تحقيق غايتنا المشتركة ، فانى مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه » ..؟؟!!!..

وازاء هـذا التنازل من جانب الشريف حسين عن كل من « عدن » و « مرسين » و « الاسكندرونة » وجنوب العراق

(بغداد والبصرة) . والمنطقة الواقعة غرب دمشق ـــ حمص ـــ حلب ..

أمام هذه الصورة التى شوهت وقتلت « بروتوكول دمشق » لم يسع « هنرى مكماهون » الا أن يبعث للشريف فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ م بالرسالة التى قال فيها : « ان حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع مطالبه » [١] .

وعلى هذه الأسس التى تم التوصل اليها ، أعلن الشريف بدء الثورة العربية ضد الأتراك .. وذلك بأن أطلق بنفسه الرصاصة الأولى على القلعة التركية بمكة فى ١٠ يونيو سنة ١٩١٦ م وأذاع على العرب المنشور الذى أعلن فيه الثورة ، وساق فيه حيثياتها ، وهاجم فيه الاتحاديين الأتراك ، ودعاة التتريك الذين « نبذوا الأحكام ، وشنقوا الأحرار العرب جماعات وفرادى ، وشردوا أسرهم ونفودها من أرضهم ، وصادروا الأموال ، ولقد نصحنا فلم ينفع النصح ، وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال ، وضربنا على أيدى الاتحاديين ، وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية ، انفصالا تاما ، وأعلنا استقلالا لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم

(١) راجع فى كل ذلك (الدولة العثمـــانية والشرق العربى) للدكتور محمد انيس ، و (الدولة العربية الكبرى) لمحمود كامل .

خارجى » . وانطلقت الثورة العربية لتعم كل أرجاء المشرق العربى ضد الأتراك .

ولكن .. هل كان حقا أن هذا الاستقلال الذى أعلنه الشريف لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجى ؟؟..

ومن كان يريد الشريف أن يخدع بهذه العبارة ؟؟..

أهو شعب المشرق العربى ؟؟.. أم جمعيتا « العهد » و « العربية الفتاة » ؟؟.. أم نفسه ؟؟.. أم جميع هؤلاء ؟؟؟..

وما هى حقيقة العرش الذى نصب الحسين نفسه ملكا عليه فى ديسمبر سنة ١٩١٦ م ؟؟

ان الفروق الواضحة والبينة ما بين « بروتوكول دمشق » ، وبين الاتفاق الذى توصل اليه « حسين ـــ مكماهون » هى الفروق ما بين قاعدة الثورة العربية القومية المخلصة المناضلة ، وبين قيادتها المغامرة الضعيفة المتهالكة ، المرتمية على أعتاب النفوذ الأجنبى والتى باعت مستقبل المشرق العربى للاستعمار .. وعلى أساس هذا الانفصام بين القاعدة الثورية والقومية للحدث الذى عرفه تاريخنا باسم « الثورة العربية الكبرى » ، وبين القيادة المغامرة المرتزقة التى قادت هذا الحدث .. على أساس هذا الانفصام ، وبسبب منه انتكست هذه الحركة القومية ،

وأفضت هذه الثورة العربية التوحيدية ، الى صورة من التجزئة ، ومخطط انفصالى صنعه الاستعمار على عينه ، هذا المخطط الذى تجسد فى اتفاقية « سيكس ــ بيكو » و « وعد بلفور » .. وفى التطبيق العملى الذى شهدته البلاد العربية بالمشرق فى أعقـاب الحرب العالمية الأولى .

ونحن لن نجد دليلا على المستوى المتهاوى والمنفسخ للقيادة المغامرة التى فرضتها الأحداث على الثورة العربية ، بل فرضها ارهاب الأتراك على هذه الثورة .. من تلك العبارة التى صرح بها الأمير « فيصل » فى بداية نوفمبر سنة ١٩١٨ م والتى قال فيها : « لقد كانت انجلترا وفرنسا ، كما كنا نحن ، مثلنا مثل التجار الذين يجدون أمامهم متاجر لا صاحب لها ، .. ألم يكن منطقيا أن يسـعى كل منا ليحـوز نصـيبا أكبر مما يسـتولى عليه الآخرون ؟!؟ » .

٦

ليست سوى سطور تلك التى تفصلنا عن الرسالة التى بعث بها مكماهون الى الشريف حسين فى ١٠ مارس سنة ١٩١٦ م ،

والتى قال فيها : « ان حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع مطالبه » .. وعلى الذين يدافعون عن بريطانيا ازاء تهم الغــدر والخديعة والخسة ، على هؤلاء ، وبينهم للأسف بعض الكتاب العرب ، أن يذكروا أنه قبل عام من هذه الرسالة ، وبالتحديد فى فبراير سنة ١٩١٥ م ، كانت انجلترا هذه تدير سلسلة أخرى من الاجتماعات والاتصالات والمراسلات ، حــول نفس الموضــوع (مستقبل الولايات العربية العثمانية) .. ولكن على طرف آخر ، وبلهجة أخرى ، وبنوع آخر من الوعود ، وعملة مختلفة من عملات السياسة البريطانية ، والاستعمار البريطانى العتيد .

ففى فبراير سنة ١٩١٥ م ، شرعت انجلترا تفاوض كلا من فرنسا وروسيا القيصرية وايطاليا ، لاقتســام تركة الامبراطورية العثمانية ، وتوزيع الأسلاب والغنائم ، وعقد الاتفاقيات التى توضع موضع التطبيق بعد أن تضع الحرب العالمية أوزارها .

وفى مدينة « سان جان دى مورين » عقد مؤتمر ضم هذه الدول الاســتعمارية الأربع ودام انعقــاده من ١٩ فبراير الى ٤ مارس ، وانتهى بالاتفاق على مخطط اســتعمارى لتقســيم الامبراطورية العثمانية بين هذه الأطراف ..

واتفق على أن يكون لايطاليا : « الأناضول » و « أزمير » و « قونية » و « أطنة » .

وأن تأخــذ روسيا القيصرية « أرمينيــا » و « جــزءا من الأناضول » .

وأن تستأثر فرنسا بسوريا .

وأن تحصل انجلترا على : « فلسطين » و « الجزيرة العربية » و « العراق » .

وحتى لا تغبن ايطاليا فى هذه الصفقة ، فلقد اتفق فى هذا المؤتمر على أن تعوض بقطعة من الأرض الأفريقية كذلك ؟!!!..

وهذا الاتفاق الذى تمخض عنه هذا المؤتمر الاستعمارى هو الذى عدل فيما بعد ، فى تطور العلاقات والمفاوضات بين انجلترا وفرنسا ، ووصل الى ما سمى باتفاقية « سيكس ــ بيكو » التى عقدت فى مايو سنة ١٩١٦ م . لاقتسام المنطقة العربية بين هاتين الدولتين الاستعماريتين بالذات .

وفى هذه الاتفاقية ، التى تم الاتفاق على بنودها ونصوصها فى نفس الوقت الذى كانت تتم فيه مراســلات « حسين ــ مكماهون » ، تحــددت أهداف الاستعمار ، ورسمت حــدود الأسلاب والغنائم ومناطق النفوذ والاحتلال ، فلقد صورت كل ذلك تلك الخريطة التى وضعتها للعالم العربى ، والتى جاءت على النحو التالى :

أولا ـــ المنطقة « أ » : وتشمل ســوريا الداخلية (الموصـــل ، ودمشق ، وحمص ، وحلب وحماه) .

ثانيا ـــ المنطقة «ب» : وتشمل العراق فيما عدا بغداد والبصرة .

ثالثا ـــ المنطقة الزرقاء : وهى التى لونت عـــلى الخريطة باللون الأزرق ، وتشمل المنطقة الساحلية السورية واللبنانية .

رابعا ـــ المنطقة الحمراء : وهى التى لونت على الخريطة باللون الأحمر وتشمل العراق الجنوبى (بغداد ، والبصرة) .

خامسا ـــ المنطقة السوداء : وهى التى لونت على الخريطة باللون الأسود ، وتشمل فلسطين باستثناء بير سبع والنقب وجزء من الخليل .

ولقـــد قررت الاتفاقية بالنســـبة للنمطقتين « أ » و «ب» ، امكانية أن تقام بهما حكومة عربية ، أو حلف حكومات عربية ، على أن تمارس فرنسا نفوذا ماديا وأدبيا على المنطقة « أ » ، وأن تمارس انجلترا نفس النفوذ على المنطقة «ب» .

وأن تحتل فرنسا ، وتحكم حكما مباشرا « المنطقة الزرقاء » وأن تفعل انجلترا نفس الشيء ، الاحتلال والحكم المباشر ، للمنطقة الحمراء ..

أما « المنطقة السوداء » ، والتى تشمل فلسطين ، فلقد أقرت الاتفاقية اقامة ادارة دولية لها باشراف الدولتين الاستعماريتين .

أما الموانى والمراكز الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية ، فلقد نظمتها المعاهدة بحيث يكون :

لبريطانيا : ميناءى « حيفا » و « عكا » .. وامتيازات فى ميناء « الأسكندرونة » .

ولفرنسا : ميناء « الاسكندرونة » .. وامتيازات فى ميناءى « حيفا » و « عكا » وأيضا جزء من ماء دجلة والفرات .

ونصت الاتفاقية على ألا تتنازل انجلترا عن جزيرة « قبرص » لدولة أخرى الا بعد التشاور مع فرنسا .

كما اتفق على أن تسرى على جميع هـذه المناطق التعريفة الجمركية التى حددتها اتفاقيات الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطة العثمانية ، واتفاقية « باليتمان » الانجليزية ـــ العثمانية المعقودة فى سنة ١٨٣٨ م ، وذلك لمدة عشرين عاما .

ولعلنا نجد ، بنظرة بسيطة الى بنود هذه الاتفاقية التى ذهبت مثلا فى الوقاحة والغدر الاستعماريين ، أنه فى الوقت الذى كان « هنرى مكماهون » يعد فيه الشريف حسين بأن « حكومة جلالة الملك قد صدقت على جميع مطالبه » ، والذى وصل فيه الطرفان

الى استثناء الساحل السورى والعراقى ، وبعض الأجزاء التى بين حكامها وبريطانيا معاهدات ، من حدود الدولة العربية الجديدة ، فى هذا الوقت كانت قد اقتسمت مع فرنسا جميــع الولايات العربية فى المشرق ، ولم تدع للشريف حسين موطىء قدم يقف عليه فى هذه البلاد ، ولا رقعة يوضع عليها العرش الذى بويع به فى ديسمبر سنة ١٩١٦ م !!!..

* * *

وفلسطين .. ذلك الاقليم العربى الذى حدد له المستعمرون مستقبلا شاءوه متفقا مع اللون الأسود الذى لونوا به مكانها على الخريطة .. خريطة اتفاقية « سيكس — بيكو » ..

فلسطين هذه لم يكتف المستعمرون لها بهذا المصير ، مصير الادارة الدولية التى حددتها الاتفاقية ، وانما استمرت اتصالات « سيكس » البريطانى و « بيكو » الفرنسى ، ومفاوضاتهما معا ، ومع ممثلى الحركة الصهيونية .. تلك المفاوضات والاتصالات التى انتهت بذلك الاتفاق الذى أعلنته بريطانيا باسم « وعد بلفور » فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ م ، والذى بعث بمضمونه قبل اعلانه وزير الخارجية البريطانية سير «ادوارد جراى » فى رسالة سرية الى الحكومة الروسية القيصرية ، سلمها لها « جورج بوكنان »

سفير انجلترا فى « بتروجراد » وهى الرسالة المؤرخة فى ١٣ مارس سنة ١٩١٦ م التى جاء فيها :

« مذكرة مقدمة من السفارة البريطانية فى بتروجراد الى مستر سازانوف ، وزير الخارجية ، وصلت برقية من سيرادوارد جراى ، تقرر أن اهتمام حكومة جلالة الملك قد انصرف أخيرا الى مسألة الاستعمار اليهودى فى فلسطين ، ومع أن كثيرين من اليهود لا يكترثون لفكرة الصهيونية كما هو معروف ، فان طائفة كبيرة العدد شديدة النفوذ منهم فى جميع الدول ستقدر تقديرا عاليا الاقتراح الخاص بوضع اتفاق عن فلسطين يحقق الآمال اليهودية تحقيقا كاملا ، فاذا كانت وجهة النظر المشار اليها آنفا صحيحة ، فان الواضح أن نتائج سياسية هامة يمكن الوصول اليها بواسطة الانتفاع من الفكرة الصهيونية ، واحدى هذه النتائج هى اجتذاب العناصر اليهودية فى الشرق وفى الولايات المتحدة وغيرهما الى جانب الحلفاء ، وهى العناصر التى يدل موقفها الحالى من قضية الحلفاء على العداء الى حد كبير .. ان المشروع يجب أن ييسر لليهود الاستيطان فى مستعمرات يهودية بفلسطين ، تستطيع فى الوقت المناسب أن تنافس من حيث

التعداد ، العرب المقيمين بها ، وعندئذ يتمكن اليهود من الاضطلاع وحدهم بادارة البلاد » [1] .

ونحن لن نطيل فى الحديث الآن عن فلسطين ، والمشكلة الصهيونية التى أفضت الى قيام اسرائيل ، لأن ذلك يحتاج الى عمل مستقل .. وانما فقط أردنا أن نشير الى المصير الذى انتهت اليه الولايات العربية فى المشرق العربى على يد بريطانيا وفرنسا فى الاتفاقيات السرية التى عقدت من وراء ظهر العرب ، قيادة وقاعدة ، والتى أوصلت المشرق العربى الى وضع من التجزئة والاقليمية كون عناصر مأساة دامية ، لا يزال يعيش العالم العربى فى أذيالها وآثارها حتى هذه الأيام .

٧

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، تحركت فوق الأرض العربية بالمشرق ، أربع قوى مختلفة لكل منها نوايا

(١) الفقرة الأخيرة من رسالة سرية بعث بها وزير الخارجية الانجليزى الى وزير الخارجية الروسى . (راجع فى ذلك « الدولة العربية الكبرى » لمحمود كامل .

وأهداف .. ولكل منها وسائل وسبل تختلف عن الأخـرى ، كل الاختلاف أو بعضه .

• فقاعدة الثورة العربية ، قد أقامت حكومة وطنية مثلت فيها مختلف أجزاء المشرق ، وأعلنت وحـدة الدولة العـربية ، وجابهت مؤامرات الاستعمار والصهيونية بالمؤتمرات القومية التى عقدت ممثلة لكل القوى والأقاليم ، مثل مؤتمر دمشق الذى عقد فى يوليو سنة ١٩١٩ م والذى أعلن منهاجا عربيا قوميا ، وأكد تمسك العـرب بدولتهم القومية الموحـدة ، ووقوفهم فى وجه المؤامرات والأطماع الاستعمارية ، وتمسكهم بفلسطين عربية ، وجزء من الوطن العربى والدولة العربية ، ورفض الهجرة اليهودية اليهـا .

كما قامت هذه القوى القومية بتجييش جيش عربى قومى ، قوامه كتائب وألوية من مختلف أجزاء المشرق العربى ، وعمادة الضباط الذين خدموا من قبـل فى الجيش العثمانى ، والذين تمرسوا فى العمل السياسى القومى فى جمعية « العهد » عـدة سنوات .

وانفتحت أمام هذه الحركة القومية أبواب الثقافة العربية ، والتعليم العربى ، وحركة واسعة من التعريب ، ومحاولة جـادة

وقوية لتعويض التخلف فى الثقافة العربية الذى فرضه على المنطقة احتلال العثمانيين .

بل وأخذت هذه القوى الثورية تتطلع الى قلب الوطن العربى « مصر » ، فجاءت بعثة من الثوار والقادة الثوريين للاتصال بسعد زغلول باشا وقادة ثورة سنة ١٩١٩ م ، وزعماء الوفد المصرى ، لتنسيق القوى الثورية العربية ، وتنظيم امكانيات التعاون والعمل القومى بين الثوار .

ولكن عوامل موضوعية ، خاصة بالثورة العربية ، مثل الطبيعة المغامرة لقيادتها ، وارتباطها بالاستعمار البريطانى ، الذى كان العدو الأول الذى تحاربه الثورة المصرية ، وتأييد الانجليز والفرنسيين ، وعطفهما على هذه القيادة ، فى الوقت الذى حاربا فيه قيادة الثورة ، والحركة الوطنية فى مصر .

وأيضا ظروف سيادة النزعات الفرعونية ، و « مصر للمصريين » بمعنى عدم الارتباط بالعروبة ، صدورا من دواعى النمو الذاتى للأمة المصرية المستقلة .. كل ذلك قد حال دون تعاون هاتين الثورتين ، وجعل مندوبى الثورة العربية يعودون الى الشام من القاهرة صفر اليدين ، وجعل التاريخ يسجل لنا ذلك الجواب الذى نسب الى سعد زغلول ، على سؤال وجه اليه عن سر رفضه التعاون مع الثوار العرب بالمشرق :

« ان صفر + صفر + صفر = صفر » !!!

ولكن .. ورغم عدم التحالف بين هاتين الثورتين ، فلقد استمرت القاعدة الثورية العربية فى المشرق تتحرك على أرض المشرق ، وتفجر طاقات ثورية غنية فى مختلف المجالات ، ومختلف الأقاليم .

• وثانى القوى التى تحركت على أرض المشرق عقب الحرب العالمية الأولى ، كانت قوى الاستعمار الأوربى ، قوى بريطانيا وفرنسا ، وكان تحركها من أجل تنفيذ اتفاقية « سيكس — بيكو » ، وتنفيذ « وعد بلفور » ، والحيلولة دون اقامة كيان عربى واحد يهدد فى المستقبل مصالح الاستعمار .

ففى الشام تحركت الجيوش الفرنسية ، وضربت بيد من حديد تجمعات الجيش العربى ، والحركة الثورية العربية ، ولم تنجح شجاعة الجيش القومى ، ولا استبسال الوطنيين العرب فى منع الفرنسيين من احتلال الشام .

وفى العراق تحركت القوات الانجليزية لتضرب نفس الجيش العربى الذى حارب الفرنسيون كتائبه فى الشام ، وسقطت الضحايا ، وخضبت الأرض بالدماء .. واحتل الانجليز العراق ، وأقاموا تلك الادارة العسكرية التى تحولت الى حكومة عميلة ثم مملكة يجلس على عرشها « فيصل » بأمر الاستعمار .. تلك

الحكومة التى وصفها اللورد « كيرزون » بقوله : « ان هـذه ليست حكومة عربية توحى اليها بريطانيا ، وتعينها بالنصح .. بل هى حكومة بريطانية ، تتخللها بعض عناصر عربية !!! » .

ولم تعط بريطانيا نفسها الحق فى ثمار اتفاقية « سيكس ـــ بيكو » فقط ، وانما أعطت لنفسها الحرية والحق لتعدل ، مع فرنسا لا مع العرب ، هـذا الاتفاق .. وعندما أحست بالقيمة المتعاظمة للواء « الموصل » ، وامكانيات البترول الكامنة فيه ، أرادت أن تنقل هذا الاقليم من منطقة نفوذ فرنسا الى منطقة نفوذها هى ، وأن « تقايض » و « تبادل » عليه مع فرنسا . وبالفعل شهد عام ١٩١٩ م تلك الصفقة الجديدة التى عقدت ، فدخلت « الموصل » الى حدود العراق وأعطيت فرنسا بدلا منها محافظة « دير الزور » التى كانت فى التقسيم الأول ضمن حدود العراق ، كما أعطيت فرنسا ٢٥٪ من أسهم « شركة الزيت التركية » التى سميت شركة الزيت العراقية بعد ذلك .

الى هذا الحد من مراحل التطبيق لاتفاقية « سيكس ـــ بيكو » ، وصل الاستعمار .. والى مؤتمر « سان ريمو » الذى عقد فى أبريل سنة ١٩٢٠ م حمل الاستعمار هذه الصورة ، صورة المخطط الذى دبره ونفذه ، فوافق عليه المؤتمر ، وأعطى له الشرعية والصلاحية والتقنين .

على أن فرنسا لم تكتف بهذه الصـــورة التى رسمت على خريطة الاتفاقية الاستعمارية بينها وبين انجلترا ، بل أمعنت أكثر فأكثر فى اقامة المزيد من الحـــدود والفواصـــل وخلق التجزئة والانفصال وتأكيدهما :

ففى سنة ١٩٢٠ م جعلت فرنسا من :

- ولاية دمشق دولة مستقلة ..
- ومن ولاية حلب دولة مستقلة ..

وفى سنة ١٩٢١ م جعلوا كذلك من :

- جبل الدروز دولة مستقلة ..

وفى سنة ١٩٢٢ م جعلوا من :

- بلاد العلويين دولة قائمة بذاتها ..

وشرعوا يمارسون فى بلاد الشام سياسة « الفرنسة » ، والغاء القومية ، ومحو كل ما يربط الناس هناك بالعـــرب والعروبة ، زاعمين « أن السوريين ليسوا بعرب ولو كانت لغتهم عربية . واللبنانيون يختلفون عن العرب وعن السوريين فى وقت واحد ، انهم فينيقيون ، ولا سيما المسيحيون منهم من أبعد الناس عن العرب والعروبة ، لأنهم أحفاد الصليبيين الذين أتوا الى سوريا ولبنان من مختلف البلاد الأوربية ، ولا سيما من فرنسا » .

وهكذا تحدث الفرنسيون عن الشام ، لا كما يتحدثون عن الجزائر ، بل كما يتحدثون عن « الالزاس » عنـدما يناقشون المفكرين والساسة الألمان .. فلا اللغة العربية بجاعلة السوريين واللبنانيين عربا ، كما لم تجعل الألمانية ، فى نظر الفرنسيين ، الالزاسيين ألمانيا .

واذا لم يكن ممكنا للفرنسيين أن يقولوا للناس ان « ارادة ومشيئة » سكان سوريا ولبنان هى أن يكونوا فرنسيين ، فليلتمس لهم مفكرو الأمبريالية الفرنسية الى الأجداد الصليبيين ، وخاصة الفرنسيين ، أصلا ونسبا .

• أما القوة الثالثة التى أخذت فى الحركة السريعة ، والتنظيم الحثيث ، فكانت الحركة الصـهيونية .. تلك التى اتخذت من « وعد بلفور » عن عزم بريطانيا على اعطاء اليهود « وطنا قوميا » فى فلسطين ، قاعدة ومنطلقا .. والتى استطاع « وايزمان » أبرز قادتها حينئذ أن يعقد فى يناير سنة ١٩١٩ م اتفاقا سريا مع الأمير فيصل بن الشريف حسين يوافق فيه فيصل على جعل فلسطين اقليما خارج نطاق الدولة العربية التى يسعى العرب لاقامتها ، والموافقة على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وظل هذا الاتفاق سرا بين « فيصل » والصهيونية الى سنة ١٩٣٥ م .

هذا الاتفاق الذى جعل الشريف حسين يتحدث عن ابنه عندما بلغه أمر هذه الخيانة قائلا : « ان فيصل قادر على أن يبيع نفسه ، نظير صحن من العدس » !!! [1] .

أما « صحن العدس » هذا ، فكان موافقة « وايزمان » على تأييد « مطامح العرب » ومطالبهم فى بناء دولة عربية فى المشرق . أى والله هكذا كان الأمر بين فيصل ووايزمان ؟!!

وسارت الحركة الصهيونية خطوات جادة ومصممة فى سبيل اقامة القاعدة الاستعمارية التى أعانها الاستعمار على اقامتها فى فلسطين .

• أما القوة الرابعة التى شهدت أرض المشرق العربى حركتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فكانت تلك القيادة « المتهنة » للثورة العربية التى أخذت فى الاستسلام حتى قبل أن تضع الحرب أوزارها ، والتى شهد ميناء « جدة » مسرحية استسلامها ، وفصول تهافتها وركوعها على قدميها أمام ممثلى الاستعمار .

ففى ٥ مايو سنة ١٩١٧ عقد بجدة اجتماع بين « سيكس » البريطانى ، وبين الشريف حسين ، واتفق فيه على التسليم بمطامع الانجليز .. وتحدث « سيكس » بعد هذا الاجتماع الى الضابط

---

(١) راجع المصدر السابق .

الفرنسى « بريمون » الذى كان يرأس البعثة العسكرية الفرنسية فى الحجاز ، عن المسائل الثلاث التى يدخل الشريف طرفا فيها :

- المسألة الانجليزية ـــ العربية ..
- والمسألة الفرنسية ـــ العربية ..
- والمسألة الانجليزية ـــ الفرنسية ..

وكيف أن « سيكس » تحدث الى الشريف فى المسألة الأولى فقط ، وأرجأ الحديث فى المسألتين الأخيرتين الى ما بعد حضور ممثل فرنسا المسيو « بيكو » ..

وفى يومى ١٩ ، ٢٠ مايو سنة ١٩١٧ م ، شهدت « جدة » اجتماعات حضرها كل من « سيكس » و « بيكو » و « حسين » و « فيصل » .. واتفق فيها على تنفيذ المخطط الذى أراده وعمل من أجله الاستعمار ..

وهذه الاجتماعات هى التى تحدث فيصل عن نتائجها الى أحد الضباط الفرنسيين فى نوفمبر سنة ١٩١٨ م عندما قال : « لقد حصل الاحتفاظ بمسألة سوريا الساحلية فى محادثات جدة . فقد كانت انجلترا وفرنسا ، كما كنا نحن ، مثلنا مثـــل التجار الذين يجدون أمامهم متاجر لا صاحب لها ، ألم يكن منطقيا أن يسعى كل واحد منا ليحوز نصيبا أكبر مما يستولى عليه الآخرون ؟؟ » .

لقد كان الوطن العربى بالنسبة لهذه القيادة « العربية » كما هو بالنسبة لانجلترا ولفرنسا ، تماما « متاجر لا صاحب لها » ومن ثم فلقد كان التفريط الذى بلغ حد الخيانة ، أمرا طبيعيا ومستساغا من أمثال هؤلاء الرجال .

واذا كانت هذه هى القوى السياسية الأربعة التى تحركت على أرض المشرق العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وأثناءها ، فان القوة الأخيرة ، التى تحدثنا عنها ، وهى قوة « قيادة الثورة العربية الكبرى » ، قد تحولت الى ما وصفناه ، وانتهى المطاف بالشريف حسين ، الى « شريف متقاعد » يقضى بقية أيامه فى جزيرة قبرص .

وانتهت بفيصل ملكا صنعت له بريطانيا عرشا وأجلسته عليه فى بغداد ، على مساحة صنعت لها حدودها ، وسمتها مملكة العراق .

وانتهت بالأمير عبد الله ، أميرا على منطقة شرق الأردن ، ثم ملكا على هذا الجزء الاستراتيجى من الصحراء العربية ، كثكنة عسكرية استعمارية ، وقاعدة للبريطانيين .

* * *

أما تطور القوى القومية العربية ، فانه باستثناء القطاعات التى خانت أهداف الثورة ، وبرامج الجمعيات العربية القومية ،

ومصالح العرب فى التحرر والوحدة ، فلقد استمرت الأجـزاء الأساسية من هذه القوى القومية تقود جماهير الجماعة العربية فى نضالها البطولى ضد الرجعية والتجزئة والصهيونية والاستعمار.. فى سوريا ولبنان ثورات مستمرة ضد الفرنسيين .. وفى العراق هبات وطنية ثورية .. وفى فلسطين ثورات مسلحة ودامية ضـد الانتداب البريطانى ومطامع الصهيونيين .

ومع وضوح الأهداف القومية وتبلورها ، ومع اشـتداد النضال وقسوة الضربات التى يكيلها الأعداء للحركة الوطنية ، ومع وضوح الرؤية الذى يزداد من قبل الثوار لأبعاد الثـورة ومستقبلها ، كانت الوشائج بين كفاح عرب المشرق ، وكفاح عرب مصر ، وكفاح عرب المغرب ، تزداد اقترابا والتقاء .. فى الحياة الواقعية والظروف الموضوعية ، وفى أذهان الثوار وقلوبهم .

وهذا التقارب وذلك الالتقاء ، وهذه الوحدة ، التى نبعت من حدة المعركة ضد الاستعمار ، ووحدة المخطط الذى وضعه الأعداء للمنطقة ، ومن التقارب والانصهار بين مصالح القـوى الاجتماعية غير الاقطاعية التى أخذت مصالحها فى التشابك ــ وتنظيماتها فى التعاون ، وصفوفها فى التراص والاتحاد .

هذه الوحدة فى النضال ، هى التى جعلت من قيام « جامعة الدول العربية » علامة بارزة فى طريق الجماعة العربية ، نحـو امتلاك ظاهرة « الأمة العربية الواحدة » ، وشاهدا حيا وبارزا من شواهد التطور الجـديد لوحدة الجماعة العربية فى وضـعها الجديد ، وعصرها المجيد .

أهم مراجـــع البحث

المرجع	المؤلف	المترجم
ما هى القومية ؟	ساطع الحصرى	
محاضرات فى نشوء الفكرة القومية	» »	
آراء وأحاديث فى القومية العربية	» »	
فى الأدب الجاهلى	د . طه حسين	
حديث الأربعـــاء	» »	
على وبنوه	» »	
على هامش السيرة	» »	
فجر الإسلام	د . أحمد أمين	
ظهر الإسلام	» »	
ضحى الإسلام	» »	
يوم الإسلام	» »	
الإسلام بين العلم والمدنية	الأستاذ الأمام محمد عبده	
رسالة التوحيد	» » » »	
التعصب (١)	جمال الدين الأفغانى	
هرطقات فريهية	د . جورج حنا	
واقع العالم العربى	» »	
تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان	
عصر محمد على	عبد الرحمن الرافعى	
بحوث فى القومية العربية	د . عبد الرحمن البزاز	

(١) فى مراجع كتابنـــا (الأمة العربيةوقضية التوحيد) نســا هذا المرجع الى الأستاذ الامام محمد عبده ، لأنه مقال نشر أولا فى « العروة الوثقى » ثم طبعته مطبعة الأنوار سنة ١٩٢٨ منسوبا اليـه ، ولكننا بمراجعـــة كتاب (خاطرات جمال الدين الافغانى) استطعنا أن نتأكد من أن هـــذا البحث انما هو بقلم جمال الدين ، فلزم هذا التصحيح .

تابع المراجع

المرجـــع	المؤلف	المترجم
الدولة العثمانية والشرق العربى	د . محمد أنيس	
عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس	
المعتمد بن عباد	على أدهم	
ابن قتيبه	د . عبد الحميد سند الجندى	
عبد الرحمن بن خلدون	د . عبد الواحد وافى	
الدولة العربية الكبرى	محمود كامل	
الغرب والشرق من الحروب الصليبية حتى حرب السويس	محمد على الغتيت	
ثورات العرب	» » »	
المختار الثقفى	د . على الخربوطلى	
العالم العربى	د . نجلاء عز الدين	
تاريخ الفلك عند العرب	د . أمام إبراهيم محمد	
هذه هى الجزائر	أحمد توفيق المدنى	
الخالدون العرب	قدرى حافظ طوقان	
حقيقة السلام	يحى أبو بكر ، كمال متولى	
كفاحنا ضد الغزاه	الدكاتره : عبد المنعم أبوبكر، محمد عواد حسين ، عبد اللطيف أحمد على ، محمد مصطفى زياده ، أحمد عبد الرحيم مصطفى	
سندباد مصرى	د . حسين فوزى	
رسالة الغفران	أبو العلاء المعرى	
التجديد فى الإقتصاد المصرى الحديث	د . حسين خلاف	
تاريخ مصر الإقتصادى فى العصور الحديثة	د . محمد فهمى لهيطه	
فى أصول المسألة المصرية	صبحى وحيده	
تاريخ الملكية العقارية فى مصر القديمة	د . إبراهيم أرنست هرارى	(مخطوط لم يطبع)
تطور الملكية العقارية فى مصر	محمد كامل مرسى	
السوق الإفريقية المشتركة	محمد نمش	

تابع المراجع

المرجع	المؤلف	المترجم
الثقافة الوطنية وثورة الجزائر	بشير الحاج على	
القومية العربية	محمد عمارة	
الوحدة الإيطالية	عزيز مرقص منصور	
نهر الأردن والمؤامرة الصهيونية	على محمد على	
إتحاد مصر وسوريا	ميشيل عفلق، أكرم الحورانى صلاح الدين البيطار .	
العدوان البريطانى على اليمن	على السقاف	
طريق الوحدة الإقتصادية والبلاد العربية	يونس صالح الحريثى	
الإشتراكى الزاهد أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جودة السحار	
خطب الرئيس جمال عبد الناصر فى دمشق	كتب سياسية سنة ١٩٥٨ م	
العروة الوثقى	جمال الدين الأفغانى، محمد عبده	
ألف ليلة وليلة		
الامبريالية	ج . ا . هوبسون	عبد الكريم أحمد
موجز تاريخ الشرق الأوسط	جورج كيرك	عمر الإسكندرانى
عطيل	أميل لودفيج	« دار الهلال »
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين	د . فيليب حتى	د . جورج حداد ، عبد المنعم رافق
تاريخ الدولة العربية	يوليوس فلهوزن	محمد عبد الهادى أبو ريدة
حركة التحرر القومى فى الشرق	ف . ا . لينين	
حق الأمم فى تقرير مصيرها	» » »	
ملاحظات أنتقادية على المسألة الوطنية	» » »	
رسائل متبادلة ماركس وإنجلتر		
الطريق إلى السويس	أرسكين تشايلدرز	« كتب سياسية »
روح القومية	مكس نوردو	عادل جبره
موجز تاريخ العالم	ه . ج . ويلز	عبد المنعم توفيق جاويد
بسمارك	أميل لودفيج	« الألف كتاب »
مذكرات الأمير عبد الله (آخر ملوك بنى زيرى بغرناطه)	تحقيق : ا . ليفى بروفنسال	

تابع المراجع

المرجـع	المؤلف	المترجم
الشعوبية : أول صراع فى تاريخ القومية العربية	د . عبد القادر حاتم	
المنطق الثورى للحركة القومية العربية	عبد الله الريماوى	
القومية والوحدة فى الحركة القوميـة العربية الحديثة	» » »	
وثائق مؤتمر حزب جبهـة التحرير الوطنى الجزائرى سنة ١٩٦٤ م		
تاريخ العرب (مطول)	د . فيليب حتى ، د . ادوارد جرجى ، وجبرائيل جبور	
المؤتمر العربى الأول (المنعقد بباريس سنة ١٩٦٣ م	(مجمـوعـة وثائق المؤتمر وقراراته)	
أضواء على القضية الجزائرية	إبراهيم كبه	
الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ	روجيه جارودى	قدرى قلعجى
العاميات الشعبية فى لبنان	يوسف خطار الحلو	
العالم والغرب	أرنولد توينبى	روفائيل جرجس
دائرة معارف الشعب		
النظريات السياسية الإسلامية	د . ضياء الدين الريس	
الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية	د . » » »	
تطور ونمو القومية العربية	د . إبراهيم صقر	
اليقظة	محمد صبيح	
خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى	محمد باشا المخزومى	

تابع المراجع

الدوريات

رقم	المرجـــــــــع	
١	الأهرام	
٢	الجمهورية	
٣	الأهرام الإقتصادى	
٤	آخر ساعة	
٥	نهضة أفريقيا	
٦	تراث الإنسانية	
٧	المجـــلة	
٨	العربى	
٩	روز اليوسف	
١٠	الكاتب	
١١	بنك مصر	
١٢	الهلال	
١٣	الفجر الجديد	(السودانية)
١٤	الحريـــة	(اللبنانية)

الفهرس

صفحة

صفحة

(الباب السادس)

صفحة

(الباب السابع)

(الباب الثامن)

(الباب التاسع)

صفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة — ١٩٦٧

الثمن [illegible] قرش